

الهيئة العامة لقصور الثقافة

أنفاس التاريخ

د.حامد عبد الرحيم عيد

أنفــاس التاريــخ

د. حامد عبد الرحيم

تقديم:
د. عباس الجرارى

وزارة الثقافة



وزارة الثقافة



الهيئة العامة لقصور الثقافة

- أنفاس التاريخ
- د. حامد عبد الرحيم
- تصميم الغلاف:

أحمد الجناينى

- المراجعة اللغوية: حسين جعفر

هذه الطبعة

الهيئة العامة لقصور الثقافة

- رقم الإيداع: ١٩٣٢ / ٢٠١٥
- الترقيم الدولى: 978-977-92-0067-5
- الطباعة والتنفيذ:

شركة الأمل للطباعة والنشر

ت: 23904096

المتابعة والتنفيذ

سحر عاصم

أنفــاس التاريــخ

الإهـــداء

الـــى روح أمـــى وأبـــى

وإهـداء إلى زوجـتـى الـعـزيـزة

حامد عيد

تقديم

بسم الله الرحمن الرحيم

بين المغرب ومصر روابط عريقة وعميقة ترجع فى جذورها إلى بدايات التاريخ وما قبله، وهى روابط متينة لم يكن تعاقب الحقب والأزمان يزيدها إلا رسوخاً وثباتاً، وقدرة على بناء صرح شامخ للحضارة والثقافة، وعلى تجاوز كل العقبات، التى قد تعوق هذا البناء.

وإذا كانت تلك الروابط مست مختلف مكونات هذا الصرح، سياسياً واقتصاديا وروحياً وفكريا وفنياً، مما هو معروف وقائمة له شواهد وأعلام، فإنها تجاوزت هذه المجالات لتتأكد بالالتحام الاجتماعى المتجلى فى تبادل الهجرات، وما ينتج عنها من زيجات عرفت أوجها قديماً باقتران الملك المغربى أغسطس الشهير بيوبا الثانى (25-23 ق.م) بانى مدينة وليلي، بكليوباترا سيلني، التى أنجبت له الأمير بطليموس، وهى بنت كليوباترا الكبيرة.

وشهدت العلاقات المغربية المصرية تألقاً فى المرحلة الحديثة والمعاصرة،

وما واكبها من نهوض، سواء فى مرحلة الكفاح الوطنى للتحرر من الاستعمار أو بعد ذلك، مما كان فيه لأرض الكنانة فضل كبير على سائر الأقطار العربية. وهو تألق يعمل البلدان الشقيقان، والقائمون على تمثيلهما غاية الجهود لاستمراره وبلورته فى أزهى صورة وأبهى حلة.

ولا يخفى أن للدور الذى قام به المركز الثقافى المصرى منذ تأسيسه فى الرباط بعد حصول المغرب على استقلاله أواسط الخمسين من القرن الماضى – وما زال يقوم به – دوراً كبيراً فى تقوية أواصر التعاون العلمى والأدبى والفني، بدءاً من التعريف بما يغنى به كل طرف ميادين هذا التعاون، إلى توسيع آفاقه بجميع الوسائل المتاحة، من خلال تقديم محاضرات وعقد ندوات وتنظيم مهرجانات، وتسهيل تبادل المنشورات، وما إليها، من إنتاج فى سائر أنماط الإبداع.

ولعل ما حققه المركز فى الفترة، التى كان يديره الأستاذ الدكتور حامد عبد الرحيم عيد، بدءاً من سنة 2001م، لَيشكل محطة بارزة فى مسيرة هذا المركز، بما سجل عبْر «صالونه» المتميز من صحائف ناصعة، زانَها حضور مفكرين وأدباء وفنانين من البلدين، لتثبيت ركائز التعارف والتعاون بينهم، والعمل على نفض الغبار عن بعض غوامض التراث المشترك، وكذا إثارة قضايا ثقافية معاصرة، ومناقشتها فى إطار حوارى حر تُتبادل فيه الآراء ووجهات النظر.

وتسنى لى أن أحضر بعض هذه الأنشطة وأشارك فيها، وأن أعاين ما يتمتع به الدكتور عيد من معرفة واسعة وخبرة فائقة وغيرة كبيرة

على القيم الأصيلة والمقومات الثابتة، التى تجمع بين البلدين، إلى جانب خصال حميدة تكشفها دماثة خلقه وهدوء طبعه وحكمة تصرفه، مع لطف معشر كان يقربه إلى قلب المغاربة، ويحببه إليهم ويحببهم إليه، ويخلف لدا الجميع طيب الذكر وحسن الأحدوثة، واعتزازاً منه بالذكريات الجميلة، التى احتفظ بها عن مقامه بالمغرب والمهام الثقافية، التى أنجزها فيه بكثير من النجاح، فإنه أبى إلا أن يُدون لقطات منها فى هذا السفر النفيس، الذى أحسن حين أعطاه عنواناً معبراً هو: «أنفاس التاريخ».

وإننى إذْ أعرب عن سعادتى بالتقديم له بهذه الكلمة الوجيزة، لأود أن أزجى له تهنئة أخوية على إصداره، مشفوعة بصادق التنويه والتقدير ومقرونة بخالص الدعاء له بدوام التوفيق واطراد السداد، وللبلدين العزيزين – مصر والمغرب – أن يستمر التواصل بينهما ثقافياً وعلى جميع المستويات ومختلف المجالات؛ بما يعينهما على أداء رسالتهما السامية عربياً وإسلاميا وعالميا، وعلى مواجهة كل الإكراهات والتحديات، التى قد تعترض هذا الأداء ومواصلته، فى تطلع دائم إلى تحقيق الأمن والاستقرار وإشاعة التقدم والازدهار.

والله من وراء القصد.

المستشار الدكتور عباس الجرارى

مستشار جلالة الملك محمد السادس

ملك المملكة المغربية

تقديم

يجد القارئ بين دفتى هذا الكتاب مقالات ورسائل حررت، ونشرت فى فترات متباعدة بجريدة الأهرام المصرية، ساهم بها صاحبها فى مجالات مختلفة أكاديمية وثقافية وتربوية واجتماعية وحياتية، أثناء مهمة قومية فى المملكة المغربية كمستشار ثقافى، ومدير للمركز الثقافى المصرى بالرباط فى الفترة من 2001-2004، وهى أقرب ما تكون خطاطات تتناول موضوعات ومواقف، أحيانا بأسلوب صادم، وأحيانا أخرى بصيغة لينة حسب السياقات والوقت، اللذين يعرضان فيه.

ربما يرد على ذهن قارئ هذه المقالات والرسائل أنها متنافرة لا يربط بينها رابط، وبالتالى فهى لا تجيب على أسئلة جوهرية، ولا تفكك إشكالية معقدة، والحقيقة أن الهدف المقصود هو أن يستجلى القارئ مسار فكر ومنهج معالجة، يعكسان اقترابا أصيلا وأسلوبا مختلفا لإثارة الذهن كى يتفاعل مع مضمون ما يقرأ، وليلمس ما كان يهم المصريون ومصر فى وقت ما وحتى اليوم من المشاكل والمعضلات المطروحة فى الساحة الفكرية للحوار وتبادل المعلومات، كما أنه يعكس دورا مهما للعمل الثقافى فى العلاقات بين الدول، خاصة دولة شقيقة كالمغرب.

لا يهم أن يعرف القارئ المساحة الزمنية، التى حررت ونشرت فيها هذه المقالات والرسائل، المهم أن يعلم أن صاحبها وثق أفكاره وعبر عن مواقفه تاركا لآجيال مقبلة أن تستنبط من المقروء انشغالات الناس فى مصر والمغرب، لذلك فهذه نصوص ليست للتقييم، وليست للاستثمار العلمى، فائدتها لاتتجاوز مجرد الاطلاع عليها، ثم يطوى القارئ الكتاب، على احتمال أن يفتحه قارئ آخر بدرجة أقل من الأدنى، هذا كان فى ظنى المحفز على نشر هذه النصوص، التى لا يدعى صاحبها أنها تمثل نسقا فكريا أو نتاجا نظريا. لذا ينصح صاحب هذه المقالات والرسائل قارءها أن يغض الطرف عن هفوات اللغة، وشطحات الفكر وعثرات اللسان، واستطرادات القلم، ويكفيه أن يقول عنها: إنها كانت من هموم الناس، بمن فيهم صاحبها، فإن صادف اجتهاده الصواب فله أجران، فإن لم يصادفه فله أجر واحد، ملتمسا عفو أهل الدنيا، ومغفرة رب السماوات والأرض.

حامد عيد

الإفتتاحية

لا أقول وداعا.. ولكن إلى الملتقي..!![1]

ويمضى الوقت سريعا، مثل موجة من برق خاطف، لتنهى بالتمام والكمال ثلاث سنوات قضيتها فى مهمتى الرسمية إلى أرض المغرب الشقيق كمستشار ثقافى بالسفارة المصرية ومدير للمركز الثقافى المصرى بالرباط. لقد مرت هذه السنوات كلمح البصر بدأتها بأحلام كبيرة قد أكون حققت جزءا منها، ولكن يبقى الكثير. أتمنى من الله أن يكملها من يخلفنى.

لقد جئت إلى أرض المغرب الشقيق، وأنا احمل لها الحب، وأعلم عنها الكثير، فقد أتيح لى فرصة القراءة عنها وعن تاريخها التليد، وعن تاريخ تلك العلاقات الأبدية، التى ربطت بينها وبين مصر فكان ذلك زادي وزوادي، الذى ساعدنى كثيرا فى اختصار الوقت لمعرفة ما يجرى على الساحة المغربية والتعامل مع مهمتى بمرونه وتفهم.

لقد كانت العلاقات المصرية المغربية منذ الأزل علاقات ود ومحبة وإخاء، علاقات تعاون وتفاهم ووفاء وانسجام تجمعهما الأفئدة، وتهفو أبدا إليها المشاعر والأحاسيس، وكيف لا، فقد نشأت تلك العلاقة

1 -(نشرت بجريدة العلم المغربية فى يونيو 2004)

وترعرعت فى أحضان الإسلام، الذى جمع الشعبين فى وحدة واحدة، وفى أحضان العروبة، التى توحد بفضلها القلب واللسان، فكان أن قوى فيها الخطاب، وتدفق من ينابيعها البيان، وجرت فى شرايينها تلك الدماء الزكية الطاهرة لتبعث الحياة، وتهب الاستمرار لتلك العلاقة الحيوية للإسلام والعروبة ووشائج القربى.

وفى هذا المقال أصطحب القارئ المغربى فى محطات مهمة يتعرف من خلالها على الدور المهم، الذى قام به المركز الثقافى المصرى خلال السنوات الثلاث المنقضية، والذى لم يصل لحد الكمال إلا أنها خطوة مهمة على الطريق، لقد كانت البداية بتلك الرسائل، التى نشرت بواحد من أشهر الأبواب الصحفية فى مصر وهو بريد الأهرام بجريدة الأهرام اليومية عن انطباعاتى الأولى، التى شعرت بها عند زيارتى إلى عدة مدن مغربية، حيث بدأتها بالرباط، العاصمة السياسية للمملكة، مرورا بالدار البيضاء، ومعلمها الكبير مسجد الحسن الثانى، تلك الجوهرة، التى بنيت فوق الماء، واشترك فى بنائها كل الشعب المغربى، ثم إلى مدينة فاس، والتى كتبت عنها رسالة بعنوان: أنفاس التاريخ، حكيت فيها مشاعرى عندما زرت المدينة القديمة، ثم كانت الرسالة الرابعة عن مدينة الحب والسلام، مدينة تطوان، ولأول مرة يتعرف المصريون على زيت ارجان، وتلك الشجرة العجيبة، التى تنمو بجنوب المغرب فى رسالة بعنوان شجرة الحياة، كانت تلكم البداية، والتى وصلت إلى الشعب المغربى من خلال وكالة الأنباء المغربية بعناوين مثيرة مثل، دبلوماسى مصرى يتحدث عن...،

أو المستشار الثقافى المصرى يصف مدينة...وغيرها من التعليقات، مما أوجد حالة من حالات الود. فكان استقبالا حفيا بى، ثم تابعتها بمقالات أخرى طويلة بصفحة قضايا وآراء بالأهرام تعرف بالمغرب وثقافته والروابط المشتركة للشعب المغربى مع شقيقه الشعب المصرى، ونشرت بالإضافة إلى الأهرام القاهرية فى واحدة من كبريات الصحف المغربية وأعرقها، وهى صحيفة العلم. وكانت عناوينها كما يلى: صفحه جديدة فى تاريخ العلاقات المصريه المغربية، جامعاتنا وسوق عربية مشتركه للثقافة والتعليم.، أيام طه حسين فى المغرب، فى ذكرى محمد الخامس الملك العالم، مصر ودورها الثقافى العربي، التعريب وأزمته المستحكمة، فى مواجهة تشويه حضارة الإسلام، الترويج لمونديال 2010، نحو وثيقه للأخلاقيات فى مجال العلوم والتكنولوجيا، الذكرى الـ130 لرحيل الشيخ رفاعة الطهطاوي، عبق التاريخ فى روح العلاقات المصرية المغربية، المقهى الثقافى من الرباط، وتكريم بن سالم حميش، مرور700 عام على ميلاد الرحالة المغربى الشهير ابن بطوطة. فى نفس الوقت أردت أن أعرف القارئ المغربى ماهية الحضارة المصرية القديمة حين استضافتنى صحيفة العلم فى مقال أسبوعى بعنوان «مصريات» تحدثت فيه على مدى أكثر من عشر مقالات عن قصة الحضارة المصرية فى مجال الكيمياء، والفن والهندسة، والطب، والصيدلة، ومعجزة بناء الأهرام وغيرها.

وبنفس الحب قمت بقيادة فريق من ثلاثة من العاملين بالمركز وانطلقنا لآفاق بعيدة ورحبة فى حدود إمكاناته، حيث انتقلنا

بمقتنياته ومعارضه إلى مدن خارج الرباط بأسابيع ثقافية تم تنظيمها فى رحاب عدد من الجامعات المغربية فى كل من تطوان ومكناس والمحمدية والقنيطرة والدار البيضاء، ويكتسب أرضا جديدة يعرف من خلالها جموع الطلاب المغاربة على مصر وثقافتها.

وبعد غام من هذه الصحوة بدأ الإعداد للصالون الثقافى المصرى، الذى يعقد أول لقاءاته مع السياسى المغربى المخضرم د.عبد الهادى بوطالب، الذى حكى فيه عن رحلته السياسية فى نصف قرن، تبعه فى اللقاء الثانى بالمفكر الإسلامى، ووزير الإعلام، والشباب المصرى الأسبق الدكتور أحمد كمال أبو المجد، وعضو أكاديمية المملكة، الذى تحدث فيه عن الوضع السياسى المتردى، الذى تعيشه الأمة العربية، ثم كان للشعر نصيب فى لقاءات الصالون، حيث دعى السفير الشاعر الدكتور عبد العزيز خوجة سفير المملكة السعودية بالمغرب، وألقى عددا من قصائده، منها تلك القصيدة، التى يتحدث فيها عن مصر وحبه لها، وعنوانها «أوبة العاشقين»، وفى اللقاء الرابع استضاف الصالون المفكر والسياسى المصرى الكبير الدكتور عبد الوهاب المسيرى أستاذ الأدب الإنجليزى والخبير فى الصهيونية- ثم كان ضيف الصالون الخامس الدكتور عبد العزيز التويجرى، المدير العام لمنظمة الايسيسكو، الذى كتب وصفة لمواجهة التحديات، التى تواجه الأمة الإسلامية فى القرن 21، وكان اللقاء السادس مع الفيلسوف المغربى الكبير د.طه عبد الرحمن فى حديث عن الترجمة ودورها فى تحديث الفكر العربى، أما اللقاء السابع فكان مع المتحدث الرسمى باسم

القصر الملكى الدكتور حسن أوريد، الذى طرح رؤيته العلمية لرحلة الشيخ الطهطاوى إلى باريس، وكان اللقاء الثامن، الذى جاء فى وقته تماما مع عميد الأدب المغربى، ومستشار جلالة الملك الدكتور عباس الجرارى، حيث تحدث فيه بصراحة عن دور المثقفين العرب فى قضية الساعة، وهى الإصلاح العربى، ويختم الصالون لقاءاته برحلة مع المناضل الكبير الدكتور عبد الكريم غلاب، مدير صحيفة العلم، يحكى فيه عن ذكرياته عن مصر خلال فترة وجوده فيها فى أربعينيات القرن الـ20، وسجلها فى كتابه «القاهرة تبوح بأسرارها».

لم يكتف المركز خلال السنوات الثلاث المنقضية بهذه الأنشطة المتنوعة، ولكن فى رحابه دعا إلى العديد من الندوات العلمية والثقافية والفنية، التى غطت عددا من الموضوعات المهمة، التى تهم العلاقات المصرية المغربية والحالة الثقافية وموضوعات الساعة، وما أذكره هنا ليس على سبيل الحصر ولكن للتعرف على نوعيات تلك الندوات، وكانت البداية بندوة مهمة عن رحلة عميد الأدب العربى الدكتور طه حسين إلى المغرب بدعوة من جلالة المغفور له الملك محمد الخامس، والتى جرت أحداثها فى عام 1958 ودعا فيها شيوخ المفكرين المغاربة على رأسهم الدكتور عبد الهادى التازى، والدكتور محمد بن شريفة، والدكتور عبد الكريم غلاب، وبعدها تم الاحتفال فى ندوتين بذكرى شاعرين مصريين كان لهما صدى كبير لدى شعراء ومفكرى المغرب، وهما أمير الشعراء احمد شوقى، وشاعر النيل حافظ إبراهيم، وكانت الندوة التالية بعنوان تأثير ثورة يوليو

على حركات التحرر فى شمال إفريقيا،» التى شارك فيها من مصر د.جابر عصفور أمين المجلس الأعلى للثقافة، آنذاك، وشارك فيها عدد من المفكرين والسياسيين العرب والمغاربة...وتتوالى الندوات، ولأول مرة بالرباط ينظم المركز الثقافى المصرى بالرباط فى فبراير 2003 معرضا للحضارة المصرية القديمة، وندوة كبرى بنفس العنوان شارك فيها كل من المستشار الثقافى المصرى ود.البيضاوية بلكامل، والدكتور عبد العزيز سالم، والأستاذ إياد يونس من سوريا، وفى مايو 2003 ينظم المركز ندوة أدبية وثقافية رائعة ضمت فنانين من مصر والمغرب. وكان محورها الرئيسى هو «دور الفنان العربى فى مواجهة المتغيرات الثقافية فى عصر العولمة»، دعى للحديث فيها من مصر الفنان الكبير يحيى الفخرانى، والفنان القدير د.أحمد عبد الحليم، كما دعى من المغرب الناقد الفنى د.مصطفى المسناوى، والكاتب المسرحى عبد الكريم برشيد. وتبعتها ندوة علمية مهمة بعنوان الرقم العربى بين الحقيقه والافتراء، وحدث فيها ما يشبه المناظرة، وكان طرفاها الدكتور يونس الحملاوي، أستاذ الحاسبات بجامعه الأزهر وأمين عام الجمعية المصرية لتعريب العلوم، وفى الجانب المدافع عن الأرقام المستخدمة فى المغرب العربى كان الدكتور عبد الرازق الترابي، الحاصل على الدكتوراه فى الإسلاميات، وعضو هيئه تحرير مجلة أبحاث اللسانيات، واتخذ دور الحكم بينهما الدكتور على القاسمي، الكاتب والباحث العراقى المقيم فى المغرب، الذى اختاره مؤخرا مجمع اللغة العربية عضوا مراسلا عن العراق.

وفى وقت لاحق من العام 2003 أقام المركز أمسية أدبية لتكريم الأديب والروائى المغربى د. بن سالم حميش، الفائز بجائزة نجيب محفوظ للأدب الروائى للعام2002، التى تمنحها الجامعة الأمريكية سنويا فى عيد ميلاد الأديب العالمي عن روايته العلامة.

لقد شهد المركز الثقافى المصرى العديد من المحاضرات والندوات العلمية والثقافية، ومن أهمها ندوة «العمارة الإسلامية فى الوطن العربي»، والتى شارك فيها من مصر أ.د صالح لمعي، أستاذ العمارة الإسلامية، ومن المغرب د.محمد العافية، الأستاذ بجامعة عبد المالك السعدى بتطوان، ثم كانت الندوة المهمة، التى أقيمت بمشاركة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط عن رفاعة الطهطاوي، وتأسيس مرجعية النهضة العربية، وذلك بمناسبة مرور مائتى عام على ميلاد رفاعة رافع الطهطاوي، حيث دعى لها من مصر حفيد الشيخ الطهطاوى السفير رفاعة الطهطاوي، مدير معهد الدراسات الدبلوماسية بوزارة الخارجية بمصر وفى بداية العام 2004 نظم المركز بتعاون مع الجمعية المغاربية للتنسيق بين الباحثين فى الآداب المغاربية والمنظمة الإسلامية للتربية و العلوم والثقافة ندوة بعنوان « ثقافة الطفل والشباب فى العالم العربي» حضرها عدد من الباحثين من مصر والسعودية والمغرب، وفى العشرين من مايو 2004 عقدت بالمركز ندوة مهمة مشاركة فى الاحتفاء بذكرى مرور 700 عاما على ميلاد الرحالة المغربى الشهير ابن بطوطة، وشارك فيها من مصر الدكتور حسين نصار ومن المغرب عضوا أكاديمية المملكة

المغربية الدكاترة عبد الهادى التازى ومحمد بن شريفة.

لقد استقبل المركز ضيوفا كثر من مصر ألقوا محاضرات، وأسهموا بجد فى إيجاد صيغة من التواصل بينهم وبين الشعب المغربى المحب لكل ما هو مصري، فها هى اللقاءات السنوية من شهر رمضان لفضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر الدكتور سيد طنطاوى، كما كانت هناك لقاءات مع الدكتور مصطفى الفقى، وفضيلة الشيخ إسماعيل الدفتار والعالم الجليل الدكتور عبد الحافظ حلمى وغيرهم من العلماء المصريين، الذين كانوا فى زيارات خاطفة للمغرب.

أما عن التعاون العلمى، الذى كان لدور المركز النشط الحظ الأوفر فى تفعيله من خلال ربط الاتصال بين الجامعات المصرية والمغربية حتى إنه ساهم فى توثيق العلاقة بين أربع جامعات مصرية ومثيلتها مغربية من خلال اتفاقيات تم توقيعها بالأحرف الأولى أتمنى أن يتم استثمارها وتنتعش الرحلة العلمية بين البلدين ويتوافد الباحثون من مصر إلى المغرب، وبالعكس لتتكون قناة جديدة مهمة تزيد من أطر العلاقات الوطيدة بين الشعبين الشقيقين، بالإضافة إلى رد الروح لبروتوكول التعاون العلمى بين البلدين، حيث تم تشكيل لجان مشتركة لتقوم بتفعيل هذا الاتفاق المهم.

أما عن العلاقات الثقافية، فحدث ولا حرج، فكانت تلك الوفود الفنية، التى جاءت إلى أرض المغرب، وعلى رأسها نجوم كبار من نوعية سميحة أيوب ويحيى الفخرانى وليلى علوى وفاروق الفيشاوى وعزت

العلايلى وإلهام شاهين ورغدة، وغيرهم من نجوم مصر الكبار بالإضافة لفرق الفنون الشعبية والفرق المسرحية، لقد جاءت بحق تشارك الشعب المغربى فى أفراحه وأتراحه، فى مهرجاناته واحتفالاته بدعم كامل من وزارة الثقافة المصرية، وبتواصل حى من المركز الثقافى المصرى، ما أدى إلى وجود حقيقى للثقافة والفن المصريين، فى قلب المغرب شماله وجنوبه.

أما عن العلاقات الشبابية والرياضية، فشهدت على مدى السنوات الفائتة نموا شهد به القاصى والدانى، فلم تنقطع رحلات الوفود الرياضية والشبابية بين مصر والمغرب، مما كان له الأثر الكبير فى إنجاح تلك الاتفاقية المهمة الموقعة بين وزارتى الشباب والرياضة فى كل من البلدين، وكان دور المركز الثقافى هو همزة الوصل بينهما مما ضاعف من النجاح، الذى شهدته تلك العلاقة.

تتبقى كلمة عن مكتبة المركز العامرة، التى تقتنى أكثر من 35 ألف كتاب، وتم تزويدها خلال السنوات الثلاث المنقضية بأكثر من ألفى كتاب فى شتى مجالات المعرفة من أحدث الإصدارات، التى قدمتها المطابع المصرية لتكون شاهدا على ما يربط تاريخيا وثقافيا بين مصر والمغرب، وهنا أود أن أقدم شكرنا لهيئة الكتاب، دار الكتب والوثائق القومية، هيئة الثقافة الجماهيرية، المجلس الأعلى للثقافة، مؤسسة الأهرام، دار المعارف، التى زودتنا بالعديد من الإصدارات، التى أغنت مكتبة المركز بشكل متميز.

لم أكن راغبا فى تقديم كشف حساب للأنشطة، التى قدمها المركز خلال تلك الفترة، ولكن كان قصدى من سردها أن أؤكد أن المركز الثقافى المصرى، بصفته من أقدم المراكز الثقافية الأجنبية والعربية بالمغرب، حيث أنشئ عام 1957 طور نفسه بشكل غير مسبوق ليتماشى مع رغبات مرتاديه من الأشقاء المغاربة، الذين يتابعون أنشطته عن قرب.

إننى حينما أبعث بتلك الرسالة إلى أهلى وأصدقائى المغاربة، الذين عملت معهم فى كل المجالات العلمية والثقافية والفنية والشبابية، فإننى أبغى منها تبليغ شكرى وتقديرى لكل هؤلاء، الذين لولا دعمهم وتعاونهم معنا لما استطعنا أن نصل إلى ما نحن فيه، إننى اكتسبت فى كل موقع على أرض المغرب الشقيق العديد من الأصدقاء، وأحسب أنهم أيضا أضافوا إلى أجندتهم صديقا جديدا سيلقاهم فى القاهرة بحب دافئ يعبر فيه عن مكنون عاطفته الجياشة تجاههم.

وحين تتباعد المسافات والأزمنة بينى وبين مصر ويضفى عليها الشوق طولا واسعا لا يراه ولا يشعر به إلا المحبون، اليوم يغدو شهرا والشهر يغدو عاما، ويحدث الشوق إحداثه الصارخ وقلقه العارم فى قلب المحب، وحين يرنو إلى موعد اللقاء يبدو، وكأنه باحث عن الارتواء، ولكن بكل الصدق أقولها: لم أشعر ببعد تلك المسافات، ولم يضف شوقى إلى مصر وحنينى إليها أى طول، حيث شعرت بأننى فى بلدى، وبين أهلى أتمتع بجمالها ودفء مشاعر أهلها الطيبة الحنون.

إننـى لـن أقـول وداعـا أيهـا البلـد الـزاخـر بعـطـر الحـب. فـاذا كـانـت الأمـواج تتلاطـم حـزنـا علـى الفـراق، فـإن عـبـق الـعـطـر يـفـوح مـن سـيـل الـدمـوع!! فإلـى أهلـى وأصـدقـائـى وأحـبـائـى المـغـاربـة، الـذيـن عـرفـتـهـم عـن قـرب وتـعـامـلـت مـعـهـم بـصـدق، لـن أقـول وداعـا.. ولـكـن إلـى المـلـتـقـى![1]

1 - نشرت بجريدة العلم المغربية 2004

أولا : مغربيات

رسائل قصيرة نشرت أو أرسلت للنشر فى باب بريد الأهرام

الرباط والزيارة الأولى[1]

أكتب إليكم من الرباط العاصمة السياسية والإدارية للمغرب الشقيق، وذلك بعد أيام قليلة من وصولى إليها لتسلم مهام منصبى الجديد كمستشار ثقافى لدى السفارة المصرية بالمغرب بعد رحلة مستقرة هبطت فيها الطائرة المصرية بأرض مطار الدار البيضاء، أو كازا بلانكا، وبعدها انتقلت بالسيارة إلى مدينة الرباط، حيث الفندق، الذى سأنزل فيه، ولا أعرف لحسن الحظ أو لسوئه أن موعد وصولى إلى الرباط جاء بعد انتهاء المباراة المصيرية بين مصر والمغرب، والتى انتهت بنهاية حزينة للمصريين ونهاية سعيدة للمغاربة، وجاء التعبير عن سعادتهم واضحا جليا فى شوارع الرباط وميادينها، حيث احمرت الشوارع بأعلام المغرب الشقيق، وصارت كما يقول الصحفيون فى مصر الشوارع حمراء حمراء والمغاربة يرقصون فرحين بقرب وصولهم لنهائى كأس العالم فى كرة القدم. أقول هل كان ذلك فألا حسنا فى استقبالى أم ماذا.

على أى حال، ومن خلال مكوثى بالرباط تلك الأيام اكتشفت، وهذا ليس بجديد أن المغاربة ذوى روح عالية، ويتمتعون بمشاعر جميلة تجاه

---

1 -الأهرام 4 أغسطس 2001

المصريين، وتجاه مصر سواء كان ذلك على المستوى الرسمى أو على المستوى الشعبي، وهذا ليس بغريب على المغرب الشقيق، ولا يشعر المصرى بأنه غادر مصر حينما يكون فى المغرب، وهى حقيقة أتمنى أن نستطيع أن ننمى خواصها وعناصرها.

أما عن الرباط المدينة، فهى مدينة عريقة تطل على المحيط الأطلسى امتزجت فيها الحضارة العربية القديمة بالحضارة الأوروبية، خاصة الفرنسية والإسبانية، فصارت بحق لوحة فنية بديعة عن الحضارة العربية تقف أمام صورة مبانيها وشوارعها وزقاقها مبهورا بذلك الإبداع الحضارى.

وسميت الرباط باسمها الحالي، كما يروى تاريخها، الذى يرجع إلى القرن السادس الهجري، حينما كانت الجيوش الإسلامية تجتمع قبل مسيرها إلى الأندلس أو إلى غيرها من المدن الأخرى، وجعلت رباطا للقوات البرية والبحرية، التى كانت تقوم بغزو الأندلس.

حبت الطبيعة الرباط موقعا جميلا ومتميزا، فهى تطل على ساحل المحيط الأطلسي، ويمر بها نهر من أعظم أنهار المغرب، وهو نهر «أبو رقراق». كما حباها الله بنسيم عليل وسماء صافية ومناظر خلابة رائعة.

ولأول مرة يزور المرء الرباط يخالجه إحساس جارف، فيراها، وكأنها مدينة الأشجار والأزهار لما فيها من حدائق غناء فسيحة تكسوها الخضرة فى كل مكان، وكما نجد فى القاهرة القديمة أبوابا تاريخية

كباب زويلة وباب الفتوح وغيرها، فالرباط يطلق عليها مدينة الأبواب العظيمة، فهذا باب الرواح، وذلك باب العلو، وهناك باب شالة، وهذه الأبواب تشهـــد بتاريخ المغرب العريق، ومدن المغرب كلها تقريبا، والرباط منها، تتميز بوجود مدينة كبيرة قديمة تجد فيها الشوارع الضيقة والدور المتراصة والمآذن الأندلسية المربعة والروح المغربية الظاهرة فى الملابس والأزياء، وفى الجانب الآخر مدينة حديثة أوروبية تجد فيها الشوارع العريضة، التى اصطف على جانبيها النخيل والأشجار والبنايات الضخمة، كما تتميز مبانيها بارتفاعات متوسطة لا تخنق الهواء، حيث لا توجد أبدا ناطحات سحاب.

هذه أولى انطباعاتى فى الأيام القليلة، التى بدأت بها رحلتي، أو قل مهمتى الرسمية، والتى أسعى فيها للتحليق بالعلاقات الثقافية والعلمية بين مصر والمغرب إلى آفاق عالية، وأتمنى أن تكون تلك الرسالة هى بداية رسائل سأتابع إرسالها إلى أصدقاء بريد الأهرام.

مسجد الحسن الثاني[1]

أكتب إليكم رسالتى الثانية من الدار البيضاء، العاصمة الاقتصادية الأولى بالمغرب، حيث قمت بزيارة لواحد من أروع مساجد العالم ألا وهو مسجد الحسن الثاني، ويعتبر المسجد جوهرة عقد المساجد المغربية، التى أقيمت على مدى قرون وقرون، حيث تنطلق أنواره فى الأفق كقلعة إسلامية تعانق السماء والأرض والبحر، وقد أراد الملك الراحل الحسن الثانى أن يكون هذا المسجد متفردا، فأمر ببنائه على الماء، وأن يكون المصلى فيه والداعى والذاكر والشاكر والراكع والساجد محمولا عن الأرض، وأينما ينظر يجد سماء ربه وبحر ربه، كما أن جزءا من تكاليف بنائه جاءت من كافة الشعب المغربى.

أنشئ المسجد بثلثى مساحته على سطح الماء، وهو ما يعتبر تحديا هندسيا وتقنيا عاليا، كما جاء ارتفاع مئذنة المسجد يفوق كل المعالم الدينية فى العالم، وبالرغم من كونها مربعة الشكل كشأن مآذن أو صوامع الغرب الإسلامي، فقد جاءت واجهاتها غير متماثلة مع واجهات المسجد، حيث تم التركيز على الزوايا أكثر من الواجهات، حتى تشير إحدى زواياها إلى القبلة.

1 - نشرت فى بريد الأهرام فى 4 أغسطس 2001

ويستمد بناء مسجد الحسن الثانى جذوره من التقاليد المغربية فى بناء المساجد، حيث تميز بصفاء هندسته المعمارية ودقة وكمال زخارفه الفنية، ولذا يمكن القول إن هذا المسجد يربط الحاضر بالماضي، ويطل على المستقبل، بالذات مستقبل الدار البيضاء الروحى والمعماري، حيث تلتقى طرق الدين والدنيا فى مكان واحد.

وتبلغ القدرة الاستيعابية لقاعة الصلاة بمسجد الحسن الثانى حوالى 25,000 مصل، بالإضافة للفناء، الذى يصلى فيه حوالى 80,000 مصل، وعمل على إنشائه وبنائه حوالى 11,000 مهندس وتقنى وعامل تقليدي، بالاضافة إلى 80,000 آخرين للمساعدة، ويحكى أنه اكتشف أثناء العمل فى بناء هذا المسجد العملاق نوع من الرخام فى إحدى بقاع مدينة أغادير، وتم استخدام 25,000 طن منه للزخرفة وتكسيه مساحة إجمالية قدرها 25,000 متر مربع، وعن قاعات الوضوء، فتتميز باتساعها حتى يتمكن المتوضئ من عملية الطهارة فى جو روحي، ومن مرافق المسجد الأخرى توجد مدرسة فى الواجهة الشرقية، التى تم إنشاؤها كمكان للمعرفة وتلقين العلوم الإسلامية، بالإضافة إلى متحف يعبر عن مسيرة المغرب عبر القرون أدمج بجانبه مكتبة كبرى تحتوى على أهم الوثائق والمخطوطات الإسلامية.

وهكذا يمكن القول بأن مسجد الحسن الثانى المشيد على الماء فى أقصى غرب العالم العربى الإسلامى هو جوهرة متميزة فى المعمار وفن الزخرفة المغربية، ويتفرد عن كل أبنية العالم بضخامته

ومقوماته. فهو إبداع لكل الدلائل الروحية والثقافية السياسية والتاريخية وهندسته المعمارية. وكان الموقع العبقرى لهذا المسجد، الذى يداعب مياه المحيط الأطلسي، ويصل العالم العربى الإسلامى بالغرب، وينتصب كمنارة تنشر أشعة الحضارة الإسلامية على العالم كما كانت فى الماضي، هو تعبير ورسالة للتأكيد على أن اليد العربية الإسلامية هى يد ممدودة لإسلام متسامح تجاه الغرب، وستظل كذلك.

هذه هى مشاعري، التى كونتها عند زيارتى الأولى لهذا المسجد البديع، أرجو أن تكون قد عبرت ببساطة عما رأيته بالفعل.

أنفاس التاريخ[1]

تركت مدينة فاس، وأنا أتنفس التاريخ، لم أصدق نفسي، وأنا أتجول فى المدينة القديمة، التى بنيت عام 192 هجرية فى عهد الأدارسة، فما زالت محتفظة بالجو التاريخى للعصور الوسطى، وعلى مدى 6 ساعات مشيتها فى وبين طرقاتها أو قل أزقتها الضيقة الصاعدة والنازلة والمسقوفة بالأخشاب والبوص، والتى ما زالت البغال حتى اليوم هى وسيلة نقل الحاجات والبضائع بين حوانيتها، وإذا دخلتها من باب يصعب عليك أن تتعرف عليه مرة أخرى، وكأننى أرى القاهرة الفاطمية فى بدء بنائها، وكم كان ذكاء المغاربة فى الحفاظ على ذلك الطابع التاريخي، فلم تلمسها يد مخرب للتحديث، حتى أصبحت مكانا مهما يكتظ بالسياح يقفون، وهم مندهشون ولا يصدقوا أنهم عادوا إلى تاريخ العصور الوسطى.

إن لمدينة فاس المغربية فى قلوب العرب والمسلمين مكانة عظيمة، فهى كما قال عنها عميد الأدب العربى الدكتور طه حسين كانت موئل الحضارة العربية والعلم العربى والتراث العربى كله، وهى

1 - 13 أكتوبر 2001

قلعة من قلاع العروبة الحصينة. والحقيقة أنه لا يذكرها أحد إلا اشتاق لزيارتها ولا تذكر فى أى حديث إلا ذكر معها جامعة القرويين ومدارسها. التى تعتبر أقدم الجامعات الإسلامية إن لم تكن أقدم جامعات الأرض كلها.

فى رسالتى الثالثة. التى أكتبها إليكم من المغرب أتحدث فيها عن مدينة فاس العاصمة العلمية ذات التقاليد العريقة. لؤلؤة العالم العربي. المدينة التى ظلت لفترات طويلة عاصمة لحكم عدد كبير من ملوك المغرب. بها جامع القرويين. والذى بنى ليكون جامعة بمعنى الكلمة. وهو أقدم من جامعتى أوكسفورد والسربون. حيث بنى فى بداية القرن الثالث الهجري. ولعب دورا ملحوظا فى الحياة السياسية بالمغرب. تمثل أهم جانب من هذا الدور فى (البيعة). التى كان يقدمها علماء جامعة فاس إلى السلطان لدى توليه العرش. وهذه البيعة هى التى كانت تكفل الشرعية لصاحب العرش الجديد. وبالقرب من جامع القرويين تمتد أسواق فاس العريقة وتتجمع فيها الحرف التقليدية. التى ما زالت محتفظة بطابعها القديم. فهناك حرف الجلد والنحاس والحياكة وغيرها. حيث قسمت الأسواق على حسب الحرفة. وهى تشبه إلى حد بعيد منطقة خان الخليلى بالقاهرة. وسوق الخيط بالإسكندرية.

وعندما تتجول فى شوارع. وجنبات مدينة فاس ستجد الحياة بها زاخرة غنية متنوعة المظاهر والذوق الرفيع. لا يوجد حد للمتعة الروحية والحسية فيها. فغنى قصورها وجمال متاحفها وزخرف

مبانيها يجعلك تعشقها، مما يجعلها مدينة لا نظير لها، وعندما تجوب حواريها وأزقتها تسمع حفيف أشجارها كأنه يذكرك بتاريخها العتيق، ومن المفارقات التى تثير الإنسان حينما يكون فى هذه المدينة أنه يراها عند بزوغ الفجر وكأن تلالها أضيئت بضوء النهار، وعند الغروب، فإن حمرة الشفق تغطى سقوفها وقبابها فى منظر بديع مثير للأشجان، وفى فاس تجد كل الفصول، ففيها الشتاء يلبس حلة بيضاء، والربيع بخضرته، والصيف بصفاء سمائه وزرقتها.

هذه هى فاس المدينة ذات الأحاسيس المتعددة، والتى تحمل بالفعل عبق التاريخ ومن يزورها يحس أنه يتنفس فعلا هواء العصور الوسطى، أتمنى ومشروع القاهرة الفاطمية يخطو فى تنفيذه تلك الخطوات المحسوبة وتحت الرعاية الكاملة والاهتمام المباشر لأولى الأمر فى مصر أن يشعر السائح عندما يزورها أن التاريخ عاد مرة أخرى ليطل بأمجاده وعظمته ويتنفس فيها عبق تاريخها العريق.

زيت الحياة[1]

فى رسالتى الرابعة، التى أرسلها إليكم من المغرب، أحدث أصدقائى الأعزاء فى بريد الأهرام عن تلك الشجرة المعمرة العجيبة، التى ينتج من عصر ثمارها الزيت السحري، فهناك بالمناطق الجنوبية من المغرب بالقرب من أغادير والصويره، تنتشر شجرة عجيبة معمرة يطلق عليها شجرة أرجان أو Argane Tree ترمى ثمارا خضراء تتحول إلى اللون البنى وتشبه إلى حد كبير حبات البندق، ولكن أكثر استطالة، وعند إزالة قشرتها ذات الملمس القطنى تكون على شكل حبة اللوز المقشر بعد عصرها ينتج منها زيت عجيب وسحرى هو زيت أرجان، الذى أصبحت له شهرة عالمية بسبب فوائده العلاجية والتجميلية العديدة، ولا يخلو بيت مغربى منه.

ويبلغ تاريخ شجرة ارجان حوالى 80 مليون سنة، ويقال إنها تعود لذلك التاريخ، الذى كانت فيه سواحل المغرب متصلة بجزر الكناري، وتنتشر هذه الشجرة على حوالى 820,000 هكتار من المناطق الجنوبية للمغرب، أوراقها وثمارها وخشبها يتم استغلالها بشكل

---

1 - 30 أكتوبر 2001

اقتصادى ويطلق عليها عدد من الأسماء الشعبية منها « شجرة الحديد»، أو « شجرة زيتون المغرب» أو «شجرة الحياة».

أما عن ذلك الزيت السحري، الذى يطلق عليه زيت ارجان نفسه، فله مذاق مقبول، غنى فى نسبة الأحماض الدهنية الأساسية مثل حمضى الاوليك واللانوليك، والحمض الأخير يساعد على تنظيم عمل الهرمونات المسئولة عن نفاذية الأغشية الجدارية. أما عن الفوائد الصحية المهمة لزيت ارجان، فهى تتراوح بين علاج حب الشباب والحصبة والجدرى المائي، كما يستخدم فى حماية الإنسان من ارتفاع نسبة الكوليسترول، وأمراض القلب، وكذلك فى علاج الطّرش العضلى وأوجاع الأذنِ، كما يساعد على تخفيض أخطارِ النوبة القلبيةِ، وتخفيف الآلام الرّوماتزمية واحتمال استخدامه كعلاجٍ تقليديِ للعقمِ والحمل الكاذب. كما أنه يساعد على حسن أداء الجهاز التنفسي، كما يستخدم فى ترطيب الشعر الناعم والجاف. وهناك دراسات حديثة تقول بإمكانية استخدام هذا الزيت السحرى فى علاج مرض السرطان. كما يستخدم زيت أرجان فى عمل العديد من الأطباق المغربية، وكذلك عدد من مستحضرات التجميل تنتشر اليوم بأمريكا وأوروبا كواحدة من أهم المستحضرات، التى تنتج من تلك الشجرة العجيبة.

هذه قصة الشجرة الرائعة، شجرة أرجان أو شجرة الحياة، والتى تنتشر بجنوب المغرب، وما زالت الدراسات على زيتها تحتاج المزيد من الأبحاث، لعل هذا يصبح مشروعا عربيا عربيا، ومن يريد معلومات أكثر يمكنه زيارة موقعها على الإنترنت بعنوان www.arganoil.com.

تطوان.. مدينة الحب والسلام[1]

مدينة تعشقها من أول زيارة، فهى المدينة الدافئة بأرضها المنبسطة فى عرض الجبل، والتى تطل على وادى مارتين ونهره العظيم، تبدو فى سكون الليل، وهى صاخبة كأنها مدينة الأحلام والملائكة، هى مدينة تطوان المغربية، والتى تقع فى أقصى شمال المغرب تطل على البحر الأبيض المتوسط،، وتذكرك لياليها بليالى الأندلس القديمة، وتعتبر محطة الحضارة، التى أتى بها الأوائل، خاصة الموسيقى الأندلسية، كما أنها اعتبرت البوتقة، التى انصهرت فيها الحضارات المختلفة، وصبغت باللون الأندلسي، ولكن فى صورة تطوانية بحتة وذوق فريد.

بعد طول انقطاع ابعث برسالتى الخامسة من مدينة تطوان الجميلة بعد زيارتى الثالثة لها، حيث ضمتنى إليها بحنين لم أعهده فى زياراتى المختلفة للمدن المغربية، وذهبت إليها هذه المرة بشكل رسمى لحضور الملتقى الوطنى الأول للأشخاص المعاقين حركيا وبصريا، والذى تم فيه تكريم الفنان والموسيقار الكبير عمار الشريعى ضمن خمس شخصيات مغربية متميزة فى الفن والشعر وتسلمت عنه التمثال التذكار، وكان ذلك فى قاعة اسبانيول بوسط المدينة.

---

1 - 10 يونيو 2002

وهى نفس القاعة، التى ألقى فيها عميد الأدب العربى الدكتور طه حسين منذ 44 عاما محاضرته الشهيرة عن مشاكل الأدب العربي وذلك أثناء زيارته إلى المغرب.

تتميز تطوان بشوارعها الجميلة، التى لبست حُلة إسبانية، وها هى تحولت ساعة الغروب، أو بين الغروب والعشاء إلى متنزه للكبار حيث تمنع فى تلك الساعة العربات من المرور وهى عادة أندلسية قديمة.

والأهالى فى تطوان تعرفهم من وجوههم ويتشابهون فى عاداتهم وروحهم المعنوية مع الشعب المصري، وينفعلون مع الروح والتقاليد المصرية وإصرارهم على التعلم بروح عالية فريدة.

هذه تطوان، التى اعتبرها المؤرخون ابنة غرناطة وفاس، كما أصبحت مهجرا لأرقى مدينة عربية عرفها التاريخ وحصنا منيعا من حصون الإسلام صدت غارات الإسبان والبرتغال والإنجليز ببسالة وظلت نبعا للنهضة، وخرج من أرضها الأبطال المجاهدون.

مولاى يعقوب.. ومياهه الكبريتية

كم هو رائع أن يكون لبلد من البلدان مصدر لثروة طبيعية ويستغلها أفضل استغلال، كما فعل الأشقاء المغاربة عندما حولوا بطن الجبل، والمسمى بمنطقة مولاى يعقوب إلى أهم موقع استشفائى طبى بمياه كبريتية ساخنة لا يتحملها الجسم إلا بعد فترة. وأنشأوا فيها مركزا طبيا على أعلى مستوى، بنيت حوله بيوت الضيافة لاستقبال الناس فى إجازة نهاية الأسبوع، أى السبت والأحد فى المغرب، واستغلوا المكان والماء أفضل استغلال، وتحول جوف الجبل إلى منطقة سياحية استشفائية بمشروع أشبه بمن وجد الدجاجة، التى تبيض ذهبا، فأنشأوا وحدة صحية للتداوى من أمراض الروماتيزم، وحمامات.

ففى إجازة نهاية الأسبوع الماضى ساقتنى الظروف لرحلة بديعة مع أحد أصدقائى من مصر إلى مدينة فاس العاصمة العلمية للمغرب وكنت قد سمعت عن مولاى يعقوب والعين الكبريتية الدافقة، التى خرجت وسط الجبل، وبالقرب من طبيعة أخاذة تحيطها الهضاب من كل ناحية، وهى تبعد بمسافة تقدر بعشرين كيلومتر عن مدينة فاس، فكانت صدفة خير من ألف موعد.

ومياه مولاى يعقوب هى مياه كبريتية تستخرج من عمق يقدر بـ1500 متر وبحرارة تبلغ 54 درجة مئوية، ومحملة بمحاليل أملاح الكبريت، خاصة كلورات الصوديوم والكالسيوم والمغنيسيوم، وهى مياه صالحة لعلاج أصناف الأمراض الجلدية والأمراض التنفسية (أمراض الأنف والأذن والحنجرة). فكانت صدفة خير من ألف موعد.

مكناس.. فرساى المغربية

ساقتنى قدماى إلى تلك المدينة الجميلة مدينة مكناس، أو فرساى المغربية، عندما شارك المركز فى إقامة أسبوع ثقافى مع جمعية الأهداف النبيلة للتربية والثقافة بأحد الأحياء الشعبية بمنطقة حى السلام بمكناس الإسماعيلية، وهى جمعية تخوض غمار العمل الأهلى، وتقوم بجهود ذاتية لخدمة البيئة والحى فى مجالات محاربة الأمية ومشروعات الخياطة والصناعات التقليدية وغيرها من أنشطة تلبى الحاجات الأساسية للتنمية الاجتماعية التربوية والثقافية.

اما عن مكناس، فهى تعد من كبريات المدن المغربية، ومن العواصم الملكية ذات الماضى المجيد، وتقع قرب جبل زرهون فى موقع جميل تحيط به السهول الخصبة، والبساتين الفيحاء وغابات الزيتون، التى تشتهر بجودة الجو وجفافه وعذوبة الماء.

ومدينة مكناس ككل مدينة مغربية فيها الأسوار والقصور والحدائق والدور الفخمة والمساجد العديدة والحصون والأبراج، وبها جنان «أكدال»، الذى يضم مجموعة كبرى من المآثر الإسماعيلية، « نسبة إلى المولى إسماعيل»، ومنها قصر الدار البيضاء، الذى أصبح اليوم مدرسة

عسكرية يتخرج فيها كل سنة عدد مهم من ضباط الجيش الملكي.

وشيدت مدينة مكناس فى عهد المولى إسماعيل، حيث طبعها بطابع عبقريته، وتقع فى نطاق مثلث مركب من أسوار وحصون يبلغ طولها 40 كيلومتر، وفيها ضريحه المتواضع. ومكناس تختلف عن أناقة الرباط، وسحر مراكش الفاتن، ورقة فاس بمتانة شكلها، وبناياتها العتيقة الضخمة.

وتتمثل هذه العظمة، إن جاز لى هذا التعبير فى باب المنصور الذى يبعث فى النفس التقدير الكبير، وكذا فى «الهرى»، الذى أعده السلطان لإيداع زاد الجنود، ويخامرك نفس الشعور أمام الحوض الكبير، وهو بركة تبلغ مساحتها أربعة هكتارات كانت تستعمل لسقى البساتين المجاورة.

وتلقب مكناس بمدينة الرياض، كمدينة الرباط، بيد أن بساتين مكناس داخلية تحفها جدران عالية كجنة السواني، وجنة السلطانات، وحديقة التجربة، كذلك البستان العمومى الواقع بين المدينة القديمة والمدينة الجديدة على ضفة وادى بوفكران الوعرة، وتشاهد هناك معظم أنواع الأعشاب والوحوش الموجودة فى المغرب.

وفى مكناس التطريز المخالف فى نمطه للتطريز المعروف فى الرباط وسلا، وفيها مصنوعات خشبية مصبوغة، وتظهر الفنون المكناسية بوضوح فى «دار الجامعي»، التى هى متحف للفنون المغربية تأخذ بلبك فى مصاريع أبواب مدرسة أبى عنان الرائعة.

زهر الآس فى معرفة بيوتات فاس[1]

يقال إن العلم نشأ فى مكة، وتربى فى المدينة، وطحن بمصر وغربل بفاس، فى العام الماضى نشرت لى رسالة فى البريد بعنوان «أنفاس التاريخ» تحدثت فيها عن انطباعاتى الأولى فى زيارتى لمدينة فاس المغربية، وأن مدينة فاس هى أول مدينة أسسها المسلمون بالمغرب الأقصى لكى تكون منارة لنشر الإسلام ولغته العربية، وظلت مركزا للعلم والدين، وملاذا للمسلمين فى هذه المنطقة، ومنذ أيام وقعت تحت يدى موسوعة مهمة تتحدث عن مدينة فاس وأهل فاس بعنوان: «زهر الآس فى معرفة بيوتات فاس»، حققها الأستاذ على بن محمد المنتصر الكتاني، حيث لفت نظري، واسترعى انتباهى عدة صفحات يبدو للوهلة الأولى طرافتها وخفة دمها، ولكن الحقيقة أنها تبين إلى أى حد كان الأوائل مستعدين لكل ما يساعد الناس، الذين لا يملكون، ودعمهم فى مواجهة الحياة الصعبة، هذه الصفحات تحكى عن أوقاف فاس، التى بلغت الذروة فى الحضارة والإنسانية، والرحمة والذوق الرفيع، حيث لم تكتف تلك الأوقاف على رعاية الإنسان، ولكن تجاوزته إلى كل ذى كبد حرى من طير وحيوان، فهناك وقف للصرف

---

1 - 15 يونيو 2006

على الحمامات، التى تهدف إلى نشر الطهارة والنظافة وتعميمها على الجميع، فأكثر الناس فى ذلك الوقت لا يملك حماما فى بيته، أما الوقف، الذى خصص للمرضى، فقد كان هناك مكان يسمى «سيدى فرج» يقيم فيه المرضى المجانين، حيث يستدعى فى كل مساء جوق كامل من ذوى الأصوات الندية العذبة الغناء مزود بالآلات الموسيقية من عود وقانون ودف وأوتار فيطربون المرضى زمنا تسكن فيه نفوسهم، وتهدأ به أعصابهم، أما العرائس الفقيرات اللائى يعجزن عن مجاراة العرائس المترفات فى تجهيز أنفسهن عند الزفاف، فقد أوقفوا عليهن ما يتمتعن به خلال أيام العرس من ألبسة حريرية رفيعة، وحلى وهاج، ما لا يفرق به بين المترفة والمحتاجة، ما على العروس إلا أن تشعر دار الوقف بيوم زفافها، فتستجيب لها من غير من ولا أذى، كما كان لعرس الفقراء دور موقوفة على حفلات أعراسهم يزفون منها بكل ما يحتاج إليه العريس والعروس من كسوة وطيب وحلى ونفقات لأيام العرس كاملة.. ما رأيكم فى هذا النوع من التكافل الاجتماعى الخالص لوجه الله..!

أما عن وقف الخدم، فيحدث أنه عندما يكلفهم سادتهم بشراء شىء، فيأخذون من البيت إناء فخار أو آنية لحمل ذلك الشىء، وإذ بالآنية تنكسر فيعرضون للضرب والإيذاء، فما كان من السلف الصالح، الذى فكر فيهم، وأوقف عليهم عقارات لذلك فما على الخدم إلا ان يأتوا بالإناء المكسور أو الآنية المكسورة لدار الوقف، فيدعون الكسيرة، ويأخذون بدلها بشكلها أخرى سليمة ليسلموا

العقوبة، أما عن وقف الديون، فأوقف، أهل فاس، الميسورون ألف أوقية من الذهب وضعت فى دكان تحت إشراف أهل ثقة أمين يعطى منها لمن ثبت حاجته، وظهر اضطراره ما يكفيه منها لمدة محدودة، ثم يرده بعد زوال حاجته بدون فائدة ولا زيادة، وهناك وقف للطيور يجعل هناك دار تأوى إليه الطيور المفيدة إذا مرضت، أو كبرت لها لمعالجتها ومداواتها واتخاذها عشا إلى أن يقدر على الطير أو يموت، وهناك فى فاس حتى اليوم حارة تسمى «كدية البراطيل»، أى العصافير كانت وقفا للعناية بأنواع الطيور أما عن الوقف، الذى أقيم للتزويج، فهناك فى مدينة فاس مسجد يقال له مسجد النبارين يقيم فيه رجال مسنون صالحون تغلب عليهم الأمية، وهم حفظة أسرار، عملهم حفظ أسماء العزاب والعازبات والأرامل والأيتام، يأتى إليهم من يرغب فى التزوج أو التزويج كانوا ينصحونه ويشيروا عليه بمن يصلح له من القوائم، التى يحفظونها، ويقاربون بين ذوى النقائص بعضهم لبعض، وذوى المحاسن بعضهم لبعض دون أن يشعر واحد منهم بعيب فى قرينه أو قرينته.

بعد تلك القراءة السريعة لما كان يحدث فى مدينة فاس لا أستطيع التعليق بغير الدعاء لسلفنا الصالح بالرحمة والرضا وأن تلحقنا بهم مسلمين. « إن المتقين فى ظلال وعيون، وفواكه مما يشتهون، كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون، إنا كذلك نجزى المحسنين». صدق الله العظيم.

ثانيا : مصر فى عيون المغاربة

مقالات حول مصر والمغرب نشرت بصفحة قضايا وآراء بالأهرام والعلم المغربية

محمد الخامس.. الملك العالم[1]

فى مناسبة ذكرى غالية يعيشها، ليس فحسب الشعب المغربي، ولكن أيضا الشعب العربي، وهى ذكرى مولد الملك محمد الخامس، وكذلك بمناسبة الذكرى 49 لثورة الملك والشعب، أكتب تلك الكلمات القليلة، التى قد لا توفيه قدره العالي، ولكن للتعريف به وبجهاده ومكانته . ففى عدد 2أبريل 1956 من الهلال كتب الشيخ أحمد حسن الباقورى يقول:» إن محمد الخامس لو لم يكن ملكا لكان عالما، ولكن أبى الله إلا أن يجمع بين الملك والعلم». بالفعل لو لم يكن محمد الخامس مصلحا قديرا ومؤمنا صادقا لما ضحى من أجله فرد واحد من أمة المغرب، ولما عاش شعبه سجينا أثناء مدة نفيه، ولما أعلن الزحف المقدس من أجله.

ولد محمد الخامس فى العاشر من أغسطس عام 1909 من عائلة عريقة فى المجد والشرف. وتعتبر ولادته هى واحدة من ألمع الصفحات فى تاريخ العرش المغربى العلوى. ولد والمغرب تتنازعه المطامع، وتتكتل قوى الشر للقضاء على سيادته واستقلاله. فى تلك الظروف كان القدر يهيئ من سيمزق حبال الاستعمار ويقف فى وجه

1 - 6 أغسطس 2002

الظلم، وحين بلغ الأمير أشده أتاه الله الملك والحكمة فى 18 نوفمبر سنة 1927 ولم يكن هذا الملك ولى عهد، ولكن القدر هو الذى ساق إليه الملك ساعيا، لم يعمل فيه بفكر ولم يطلبه بقوة، ولم تكن بيعته من تدبيره (المغرب..ملكا وشعبا، عبد الكريم الفلالى1957).

تولى محمد الخامس عرش المغرب، بعد موت والده المغفور له المولى يوسف بن السلطان رحمه الله (1880 1927)، ومن ذلك اليوم بدأت صفحة جديدة من تاريخ المغرب، الذى تولى عرشه أمير لم يتجاوز عمره الثامنة عشر، حفظ القرآن فى سن مبكرة وتعلم أصول الدين، وبعض الدراسات الحديثة، على يد جمهرة من الأساتذة، جلبهم والده لتعليمه وأخوته، حيث كان أكثرهم نبوغا واستقامة ومكارم أخلاق، وهو الأثر الذى مكّن حبه وتقديره من قلوب كل رجال الحاشية، فأصبحت أخلاقه العالية حديثهم وحديث الناس فى ندواتهم واجتماعاتهم الخاصة والعامة، وكبرت هذه الصفات كلما كبر الأمير إلى أن بلغ من المكانة فيهم ما بلغ.

لم يشغل الملك اليافع بمباهج الملك عن طلب العلم، حيث قضى أكثر من اثنى عشرة سنة طالب علم يجلس على الدرس، وهو ملك متوج مع أفراد وموظفى قصره ليتلقى العلم على يد جهابذة الفكر المغربى وعلمائه، وعلى رأسهم الإمام المصلح الكبير محمد بن العربى العلوي، الذى ورث تراث الإمامين «جمال الدين الأفغاني»، و «محمد عبده».

فى ذلك الوقت، ومنذ فرض الحماية على المغرب عام 1912 قامت فرنسا بكل المحاولات لمحو الذاتية المغربية ومسخها سياسيا واجتماعيا واقتصاديا، بل ودينيا بكل وسائل الترغيب تارة، وأشد أنواع الترهيب تارة أخرى، ولولا مكانة محمد الخامس، والتفاف القلوب من حوله، لما باء الاستعمار بالفشل، ولما منى بتلك الكارثة.

فى العشرين من شهر أغسطس 1953 شهد المغرب وأهله حدثا رهيبا زلزل كيانه، ولم يعرف فى تاريخه الطويل حدثا أشد استفزازا وأكثر إيلاما منه، حيث فوجئ المغاربة بخطف مليكهم وأفراد أسرته ورمز كفاحهم على يد الفرنسيين، ويحسب المغاربة تلك الأيام بدقة شديدة بأنها استمرت بأهوالها وبآلامها نحو سنتين، وشهرين، وتسعة عشر يوما وأربع عشرة ساعة، وخمس عشرة دقيقة حتى ساعة عودته يحمل للمغرب غار النصر والثبات والوفاء.

عاش الشعب المغربى فترة يقف أمامها المؤرخون كثيرا، وقفة تستدعى التفكير الطويل، حيث نظمت الجماعات الفدائية، والفرق التحريرية، وكان نتيجة كفاحها وجهادها عودة الروح وتحرير البلاد، وحفظ كرامة الأمة فى عرشها، ثم الانطلاق لبناء مجتمع أفضل وحياة أسعد.

لم يكن « محمد الخامس» يرمز إلى الحرية والتحرير فى المغرب العربى فحسب، وإنما تعدى ذلك إلى حيث وجد الاستعمار ومظاهره فى كل أنحاء العالم، وكانت الصحافة العربية والعالمية، والإذاعة، لها أكبر الأثر فى نشره.

تعرض « محمد الخامس» لأخس مؤامرة عرفها تاريخ المغرب القديم والحديث، بعد أن حاصروه واضطهدوه وأسرته بقصد إثنائه عن عزمه فى الدفاع عن حق شعبه فى الاستقلال والحرية، ولما لم يتحقق هدفهم الخبيث تدخلوا بينه وبين شعبه، وقامت الدنيا وقعدت لصموده وثباته فى الدفاع عن أمته، ودينه، ووطنه، مما جعل العرب جميعا يعتبرون هذا العمل هو عدوانا ضدهم، فقامت الأمة العربية والإسلامية قومة رجل واحد لصد هذا العدوان، وكانت مصر فى الطليعة مما حدا بشومان، وزير خارجية فرنسا آنذاك أن يقول: إن الثورة علينا فى مصر، وليست فى المغرب، فقد قامت مصر كلها بجميع هيئاتها، وأحزابها، وجامعاتها، وكلياتها فى تجاوب بديع مع شعور الشعب المراكشى وأحاسيسه، فكانت غضبته الشديدة لغضبه، ذلك ما كان يقوله لسان حال الشعب المصري، وترتفع به أصوات الشباب، فهذه قصيدة للدكتور أحمد زكى أبو شادى يقول فيها:

يا مالكا، لا عن وراثة شامخ ... بجدوده، حين الجدود فخار

بل عن محبة شعبه وخياره ... والشعب حق له الذى يختار

الملك ملك الشعب حين زعيمه ... ملك هو المأثور لا الجبار

متوهج بدم الكفاح وإن يكن ... سلما، وفى سلم الكفاح النار

وفى 29 يوليو عام 1958 نشرت جريدة الجمهورية مقالا بقلم الدكتور طه حسين بعنوان «أرض البطولة» حكى فيه تفاصيل رحلة تاريخية قام بها للمغرب أيام حكم الملك محمد الخامس بدأت 24 من يونيو عام 1958 ولمدة أسبوعين، وكرمه الملك بوسام الكفاءة الفكرية، وهو أعلى وسام مغربى خصص لذوى الكفاءة من العلماء والأدباء، ويقلد لأول مرة بعد الاستقلال، ويعتبر الدكتور طه حسين أول من قلد هذا الوسام، حيث خاطبه جلالته قائلا: «إننا نرحب فى شخصكم بعالم من أعلام الفكر العربى فى العصر الحاضر والمغرب متشرف بزيارتكم، التى كان يتمناها منذ أمد طويل لمشاهدة ما يبذله من جهود فى سبيل البناء والانبعاث». وأجاب عليه العميد قائلا:«إنى متأثرا جدا يا صاحب الجلالة بهذه المقابلة، التى أنعمتم على بها، ولى الشرف العظيم بالمثول بين يدى جلالتكم. أنتم الذين قدتم معركة التحرير فى المغرب وعانيتم كثيرا من التضحيات والمشاق فى سبيل إسعاد الشعب المغربي، والكل يعترف بالفضل العظيم، الذى طوقتم به جيد العروبة بكفاحكم واستبسالكم إلى جانب الشعب المغربى الأبي». ويستمر العميد فى مقالته، وهو يتحدث عن الملك محمد الخامس، (طيب الله ثراه)، ويعطيه حقه من التكريم، قائلا:« لم يكتسب عظمته من الملك، وإنما اكتسب عظمته من نفسه، من إبائه للضيم وصبره على المكروه واستبساله فى مقاومة العدو واحتماله أذيته لا لشيء إلا أن يكون ملكا كريما لوطن كريم، بذل هذا الجهد كله واحتمل هذا المكروه كله، وهو مؤمن

بأنه لم يصنع شيئا ذا خطر، وإنما أدى أيسر ما يجب على المواطن المخلص للوطن الحبيب، ولا أكاد أذكر لجلالته بعض ذلك حتى يحول الحديث فى يسر وسماح كأنه لا يحب أن يثنى عليه أحد لأنه أدى إلى وطنه ما يجب عليه».

هذه هى كلماتى القليلة عن الملك العالم ذى التقاليد العربية الأصيلة المتمثلة فى الشهامة والكرم والرجولة لكى يتذكره جيل القرن الواحد والعشرين.

الجامعات العربية والعولمة

«بين الجامعة المصرية والجامعة المغربية»[1]

بات النظام العلمى العالمى اليوم يتميز بتزايد دور العلم والتكنولوجيا فى أمور الحياة اليومية، وكذلك تعاظم أهميته المستقبلية، مما أدى إلى إعطاء التعاون العلمى دورا مهما وحيويا فى إقامة علاقات دولية وعالمية، سواء بين الدول أو الأفراد، وفى هذا السياق قد يكون من المفيد أن نركز فى هذا المقال على خصائص العلاقات بين الدول اليوم والمكانة التى تشغلها العلاقات العلمية والثقافية فيها، وكذلك محاولة متواضعة لرسم استراتيجية مستقبلية لهذه العلاقات بالنسبة للجامعة المصرية مع مثيلاتها من الجامعات العربية، وكمثال الجامعة المغربية.

إن التقدم الذى نراه فى عالمنا المعاصر فى الثورة المعلوماتية والاتصالات أدى إلى أن يكون العالم قرية كونية واحدة، فضلا عن شغف الأفراد بالتعرف على ثقافات وحضارات المجتمعات الأخرى والإفادة مما تقدمه من خبرات وأفكار جعل من الضرورى وجود تبادل

---

1 - 23يناير 2003

ثقافى وفنى وتعليمى بين المجتمعات المختلفة، ومن هنا تعتبر عمليات التبادل الثقافى بين الدول المختلفة من أهم الأسس، التى يحتاجها أحدث نظام عالمى يقوم على الفهم المتبادل والحوار البناء، وبالتالى فإنه من المفيد أن تكون للثقافة والتعليم سوق مشتركة، تعمل على تنظيم التبادل العالمى للسلع التعليمية والثقافية، وعلى الرغم من أن التبادل الثقافى والعلمى فى صوره المختلفة يعتمد بدرجة كبيرة على الأفراد، إلا أن المؤسسات التعليمية، خاصة الجامعات تلعب دورا مهما فى تنمية العلاقات العلمية والثقافية بين المجتمعات المختلفة، كما يقع على عاتقها تنظيم جهود الأفراد من العاملين فيها والتنسيق بينهم بما يعطى لعملية التبادل الثقافى حجمها وقوتها.

وفى ظل الظروف، التى تعيشها أمتنا، هذه الآونة، نتيجة التحديات الحضارية، التى فرضها التقدم العلمى الهائل، والذى يسود العالم اليوم، ولكى نخرج من هذا المنحنى، فإن علينا كدول عربية أن نعد عدتنا لغد مشرق لا يستطيع العيش فيه إلا القوى، والقوة هنا تشمل كل مجالات التقدم العلمى والتقنى والعسكرى والثقافي، وبات من المحتم على الدول العربية أن تقترب أكثر، فأسباب تقاربنا أكثر من الأسباب التى تفرقنا.

إننا فى عصر فكر وخلق وإبداع، عصر متسم بالتطور السريع، فيه جديد اليوم قديم الغد، الحياة للفكر والعقل والعلم فى تآزر وتكامل ووحدة اتجاه حتى يستطيع مواجهة التحديات، التى تعترض طريقه ويلحق بقطار التقدم العلمى والتكنولوجى والظفر بكل ثمين من

حقائق العلم وخفاياه. وفى رأيى فإن النهوض بالعلم يعتمد على الطاقة البشرية العربية القادرة بعددها وكفايتها على توجيهه وتطويره، وجعله منطلقا إلى ذروة علمية وفنية تحقق للعالم العربى المركز القوي، القادر على إسماع كلمته، واحترام إرادته وحفظ كرامته، ولا يكون ذلك إلا إذا تم الاعتماد على الخبرة العلمية العربية، وعلى القوة الذاتية العربية وعلى الاستفادة من الإمكانيات، التى تقدمها الأعداد المتزايدة من العلميين العرب.

وبالرغم من التعاون الظاهر بين الدول العربية كل على حدة فى مجال تبادل الخبرات العلمية، إلا أنه مما قد يحد من زيادة فعالية هذا التعاون عدم أخذ الإطار العربى الشامل فى الاعتبار عند وضع خطط ومناهج إعداد العلميين فى كل بلد عربي، ومن ثم فإن هناك حاجة ملحة لإعادة النظر فى التوفيق بين هذه الخطط والمناهج لتأخذ فى الاعتبار الواقع المحلى لكل بلد عربى والواقع العربى بصورته الشاملة. وكما ذكرت فإنه لا مناص من أن تحاول الدول العربية اللحاق بسرعة متزايدة بأحدث ما فى العلم، ويكون الاعتماد على القوة الذاتية لها مجتمعة والاستفادة من جميع الإمكانيات المتاحة فى العالم العربي. إن تكامل الخبرات العلمية العربية يتطلب وضع خطة للتنسيق والتعاون بين البلاد العربية مما يتيح فرصا أفضل لتوفير الإمكانات اللازمة، والتى تتطلب جهودا كبيرة وتكاليف باهظة مما قد لا يتاح توفيره لكل بلد على حدة، إما للظروف أو لنقص الأساتذة أو نقص الخبرة.

إن المجتمع العربى فى حاجة إلى الإيمان بالعلم كوسيلة مهمة فى

تحقيق أهدافه وحل مشاكله. فانتشار الوعى بإمكانات العلم يدفع ويساند التطور العلمى المنشود. وقد يكون إعطاء اهتمام أكبر بتدريس تاريخ العلوم فى المراحل الأساسية والجامعية. وكذلك عقد الندوات والمحاضرات العامة بغرض تثقيف الجماهير علميا، إحدى الوسائل المفيدة لتوفير هذا المناخ العلمي، كما أن مجتمعنا العربى فى حاجة إلى دعم الاتجاهات العلمية وتخليص تراثنا الثقافى والعلمى من بعض الرواسب، التى لا تمت إلى ثقافتنا العربية الأصيلة بصلة، وبالتالى فإنها تعوق تقدمنا العلمى.

وهنا أتحدث عن بلدين تتميز علاقتهما بأنها علاقات مثالية ومتميزة على جميع الأصعدة ومختلف المجالات، أعنى مصر والمغرب. وأحسب أن لديهما قدرا عاليا من التآخى الثقافي، والفكري، والروحي، والعاطفي، وكمثال أتكلم هنا عن الدور المتعاظم الذى يمكن ان تلعبه الجامعة المصرية مع الجامعة المغربية فى إطار التقارب بينهما ومن خلال التنفيذ الفعلى لبروتوكول التعاون العلمى الموقع بين البلدين، ففى نفس الوقت الذى يشهد فيه التعليم العالى بمصر محاولات جادة لتطويره وتهيئة أفضل الظروف والإمكانات للانطلاق إلى مستقبل واعد، هناك حركة كبرى تعيشها الجامعات المغربية اليوم من أجل تطوير أدائها متتبعة قانونا جديدا صدر مؤخرا لتنظيم الجامعة المغربية، ومن خلال كتاب جديد صدر عن منشورات جامعة محمد الخامس-اكدال- التى تعتبر الجامعة الأم، والتى تفرعت منها الجامعات الأربعة عشر المتواجدة الآن فى أهم المدن المغربية، بعنوان:. «العولمة والجامعة المغربية المتجددة».

ومؤلفه شخصية علمية رفيعة المستوى وهو الأستاذ الدكتور حفيظ بوطالب، رئيس جامعة محمد الخامس-أكدال ومعروف فى المغرب بأنشطته المتنوعة العلمية والثقافية، وهو أستاذ الفيزياء بكلية العلوم فى نفس الجامعة. أنقل إحدى فقرات كتابه، التى يقول فيها: إنه إذا كانت قضايا التعليم العالى والبحث أصبحت تحتل مكانة استراتيجية فى عصرنا الراهن، فإنها أصبحت مصيرية بالنسبة للعديد من الدول النامية لضمان حقها فى الوجود فى العشرينيات المقبلة، ففى مواجهة ثورة تكنولوجيا الاتصال وشروط العمل، وتعدد وتنوع المسارات المهنية، وضروريات التكوين المستمر وقلب مفاهيم المعارف وطرق التعليم، وفى مواجهة التحولات فى العلاقات بين الدولة والمقاولة والمجتمع، يجب أن يعيد التعليم العالي، وباستعجال، النظر فى أهدافه، وأن يبسط تنظيمه. وإن هذه الإصلاحات هى التى ستحدد تأهيل المغاربة، وبالتالى ستحدد مستوى معيشة المغرب»، ويؤكد فى فقرة أخرى أنه لأول مرة فى تاريخ المغرب، يطرح قانون يعنى بقضايا التعليم العالى ككل، من حيث هو تعليم جامعى ومؤسسات عليا غير تابعة للجامعة ومؤسسات للتعليم العالى الخصوصي. إن أهمية هذا الطرح الشمولى تكمن، على الخصوص فى تدارك التفاوت الحاصل بين مؤسسات تكوين الأطر العليا غير التابعة للجامعة والمؤسسات الجامعية من حيث الهيكلة، فنحن نجد المؤسسات الجامعية خطت خطوات مهمة جدا من حيث الهيكلة، سواء على مستوى وحدات البحث والتدريس، أو على مستوى الشعب أو المؤسسات الجامعية».

وهنا يبدو ان المرحلة، التى يعيش فيها مجتمع التعليم العالى فى المغرب الشقيق من تطوير ذاتى يعتمد على الخبرة المغربية، لا بد أن يكون هناك تطوير مهم للعلاقة بين الجامعة المصرية والمغربية فى الأداء والتعاون والتفعيل المستمر لبروتوكول التعاون فى التعليم والبحث العلمي، وكان لا بد أن تكون هناك وسائل لتجهيز المناخ العلمى المناسب، لهذا التطوير وتوفير أدوات عمل جيدة تساعد على هذا التطوير، حيث قام المركز الثقافى المصرى بالرباط بدور مهم فى هذا الشأن من خلال توجيه الدعوة لكل المؤسسات العلمية بالمشاركة فى المؤتمرات العلمية، التى ستقام فى مصر فى الأعوام القادمة، والتى كان للدكتور عبد الحى عبيد، أمين المجلس الأعلى للجامعات، فضل كبير فى تزويدنا بقائمة المؤتمرات العلمية، التى ستعقد فى رحاب الجامعات المصرية للعاملين 2004/2003، كما تجرى الآن محاولة جادة للحصول على قائمة بالمؤتمرات العلمية، التى سيتم عقدها بالمغرب فى العاملين 2003، 2004 حيث يتم إرسالها للجامعات المصرية، وفى نفس الوقت، ولكون جامعة القاهرة أقدم الجامعات العربية فى المنطقة، فقد تفضل رئيسها الدكتور نجيب الهلالى جوهر بتوجيه الدعوة لعدد من رؤساء الجامعات المغربية لزيارة الجامعة واستكشاف آفاق التعاون بين تلك الجامعات والجامعة الأم، بالإضافة إلى أنه تمت دعوة الجامعات المصرية الحكومية والخاصة منها للمشاركة فى معرض لمجموعة الطالب المغربى من أجل التعريف بالتعليم والتكوين وسبل تقوية التبادل الثقافى والعلمى

بين البلدين، وهذه أول مرة تتم فيها دعوة مصر للحضور فى مثل هذه التظاهرات، والتى كانت تقتصر على الجامعات المغربية فقط.

الفرصة سانحة لجعل التعاون العلمى والثقافى للبلدين فى أعلى مستوى فى تآزر وتكامل ووحدة اتجاه، وبالتالى نستطيع مواجهة التحديات، التى تعترض طريقنا، ونلحق بقطار التقدم العلمى والتكنولوجي.

العالم الإسلامى فى عصر العولمة[1]

انطلقت حركة العولمة بأهدافها الأساسية والقوى الرئيسية الدافعة لها، انطلاقة اقتصادية فى جوهرها، إلا أن امتداداتها الاجتماعية والسياسية والثقافية، وانعكاساتها بالتالى على نظم تنمية الموارد البشرية، لا تقل أهمية عن مضامينها الاقتصادية، إن لم يكن فى المدى القريب ففى المديين المتوسط والبعيد.

وتشكل تنمية الموارد البشرية فى المجتمعات بصفة عامة، وفى المجتمعات النامية بصفة خاصة، إحدى الأولويات الرئيسية فى الجهود الرامية لتحقيق التنمية البشرية ومواجهة التحديات الكثيرة، التى تواجهها هذه المجتمعات، وهى التحديات، التى تعمقت، وشغلت أبعادا جديدة فى ضوء حركة العولمة والتوجهات والتطورات العالمية.

ولقد اعتنى المفكرون من شتى المشارب، سواء من العالم الاسلامي، أو من مختلف أنحاء العالم، بالتأصيل والتعقيد والتنظير للعولمة كنظام عالمى آخذ فى الغزو والاكتساح، وهو بهذا الاعتبار حقيقة من حقائق هذه المرحلة من التاريخ، ويأتى د. عبد العزيز التويجري، المدير العام لمنظمة الايسيسكو، واحدا من ضمن هؤلاء، الذين

1 - 22 ديسمبر 2004

شغلوا ودرسوا ظاهرة العولمة بتعمق وذلك منذ ظهور المصطلح وبدء تداوله، وذلك فى إطار اهتماماته بالقضايا الدولية، ذات الطابع الفكرى والثقافى والعلمى والتربوي، التى تشغل حيزا كبيرا من اهتمامات النخبة المثقفة والصفوة المشتغلة بالعلم والفكر وكتب عنها العديد من البحوث والدراسات، وفى أحدث كتبه، التى صدرت العام2004 عن دار الشروق بعنوان العالم الإسلامى فى عصر العولمة يتحدث عن مختلف الجوانب المرتبطة بالعولمة، مبينا فيه هوية ومستقبل العالم الإسلامي.

يناقش هذا الكتاب من خلال أربعة عشر دراسة علمية لمختلف الجوانب المرتبطة بالعولمة، وارتباطها بقضايا الحوار والهوية والواقع الحالى للعالم الاسلامي، وما يتهدده من مخاطر كما يتطرق إلى مستقبل العالم الإسلامي، وكيف يمكنه مواجهة التحديات الحضارية، كما يحدد خصائص الحضارة الإسلامية والخطاب الاسلامى تجاه العالم اليوم مع التأكيد على دور مهم يجب أن تقوم به الجاليات والمؤسسات الإسلامية فى إبراز الصورة الحقيقية للإسلام، وينهى كتابه بدراسة عن رؤية منظمة الايسيسكو إلى إصلاح الأمة فى العصر الحديث.

ويطرح الكاتب رؤيته فى أن الفكر الإسلامى منذ فجر اليقظة والانبعاث فى آواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، وإلى اليوم، ساده الجنوح إلى الرفض المطلق للفكر الغربى والإعراض عن الأخذ به والاستفادة منه والتكيف معه، وأن المفكرين والمصلحين

وأهل العلم وذوى الرأى توجسوا خيفة من المذاهب والمدارس الفكرية والاتجاهات والتيارات الثقافية، ودائما ما كانوا يأخذون منها مواقف تتسم بالشك والريبة وعدم الاكتراث بها والتقليل منها، مما نتج عنه أن أصبحت تلك المواقف ظاهرة عامة يصطبغ بها الفكر الإسلامي، وانطبق هذا الموقف الفكرى على العديد من الافكار والنظريات والدعوات، ومنها العولمة.

ولأن العالم الإسلامى يقع فى قلب الصراع العالمى المحتدم، مما يجعله مستهدفا من النواحى كافة، ومعرضا لمخاطر من جميع الأطراف، التى تتصارع فى الساحة الدولية، فقد ترتب على هذا تفاقم التحديات، التى تواجهه بصورة تؤثر بشكل عميق فى الحياة العامة، وتنعكس آثارها السلبية على العملية التنموية برمتها، وحدد الكاتب أهمها، وتتمثل فى التحديات الثقافية، والتحديات الاقتصادية، والتحديات الاجتماعية، والتحديات السياسية، وأخيرا التحديات التنموية، ويرى د. التويجرى أن الاستغراق فى تحليل أبعاد هذه التحديات والبحث عن السبل المؤدية إلى التعامل معها، يطول ويتسع مجاله، ويخلص إلى أن الرؤية الواقعية إلى طبيعة هذا العصر تؤكد حقيقة مهمة هى أن بناء القاعدة العلمية فى المجتمعات الحديثة، هى مفتاح التعامل مع تحديات هذا العصر حيث إن بناء الإنسان هو الأصل فى بناء الحضارة، ولأن المجتمع القوى القادر على الدفاع عن حقوقه ومصالحه، هو الذى تقوم فيه نهضة تربوية علمية وثقافية شاملة.

وعن العولمة الثقافية ومخاطرها ووسائل التعايش معها يرى الكاتب أن المقومات الثقافية والقيم الحضارية، التى تشكل رصيدنا التاريخي، لن تغنى ولن تنفع بالقدر المطلوب والمؤثر فى مواجهة العولمة الثقافية، مادامت أوضاع العالم الإسلامى على ما هى عليه، فى المستوى الذى لا يستجيب لطموح الأمة. فالشعوب الضعيفة اقتصاديا والمتخلفة تنمويا، لا تملك أن تقاوم الضغوط الثقافية أو تصمد أمام الإغراءات القوية لتحافظ على نصاعة هوياتها وطهارة خصوصياتها. ويرى أنه لكى ينتقل العالم الإسلامى من مرحلة الضعف والتخلف إلى مرحلة القوة والتقدم فى إطار القيم الإسلامية فإن النهوض بالمجتمعات الإسلامية من جميع النواحى مع التركيز القوى على التنمية الاقتصادية والاجتماعية فى موازاة مع العمل من أجل تقوية الاستقرار وترسيخ قواعده على جميع المستويات هو خط الدفاع الأول على جبهة مقاومة آثار العولمة الثقافية.

وتبدو الرؤية إلى المستقبل للكاتب واضحة فى أهمية أن تنطلق من فهم الواقع، وتحليله، وتفكيك عناصره لمعرفة العوامل، التى تتحكم فى اتجاهاته ومساراته. ويرى أن التحدى الحضارى لا يواجه إلا بتحد حضارى مواز له ومتكافئ معه. ويتساءل: هل العالم الإسلامى فى المقام، الذى يهيئ له الرد على هذا التحدى الحضارى بتحد مماثل له؟ وهل هو فى الوضع، الذى يسمح له بامتلاك شروط النهوض الحضارى لمد إشعاع الحضارة الإسلامية فى عالم اليوم، وفى المستقبل، ويسرع بالرد على تلك الأسئلة بشروط ثلاثة يراها أشد إلحاحا وأعمق تأثيرا

لتغيير واقع العالم الإسلامي، وصياغة مستقبله ويلخصها فى تحديث المناهج التعليمية، وتطوير النظم التربوية، دعم البحث العلمى فى جميع حقول المعرفة، وأخيرا تجديد أساليب الحياة العامة.

إن العالم الإسلامى لا يملك أن يمنع العولمة من الانتشار، لأنها ظاهرة واقعية تفرض نفسها بحكم قوة النفوذ السياسى والضغط الاقتصادى والتغلغل الإعلامى والمعلوماتي، التى يمارسها النظام العالمى الجديد، ولكن العالم الإسلامى يستطيع أن يتحكم فى الآثار السلبية لهذه العولمة، إذا بذل جهودا مضاعفة للخروج من مرحلة التخلف إلى مرحلة التقدم فى المجالات كلها، وليس فحسب فى مجال واحد، للترابط المتين بين عناصر التنمية الشاملة ومكوناتها.

إن التعامل مع ظاهرة العولمة لا بد وأن يقوم على أساس القوة الاقتصادية والاستقرار السياسي، والسلم الاجتماعي، والتقدم فى مجالات الحياة كلها، وهذا ما يتطلب، فى المقام الأول إصلاح الأوضاع فى العالم الإسلامى فى هذه المجالات جميعها، وترسيخ قواعد العمل الإسلامى المشترك، على مستوياته المتعددة، من أجل الدفع بالتعاون بين المجموعة الإسلامية نحو آفاق أرحب تطلعا إلى مستقبل أكثر إشراقا.

والقضية فى عمقها مرتبطة بمدى قوة الإرادة الإسلامية، وتماسك جبهة التضامن الإسلامي، وتضافر جهود المسلمين جميعا، فى سبيل بناء النهضة الحضارية للعالم الإسلامي، بالعلم، وبالفهم.

دور المثقفين العرب فى الإصلاح العربي[1]

إن الإصلاح الثقافى هو الخطوة الأساسية نحو الإصلاحات الأخرى من منطلق أن الاتجاه نحو التقدم والحداثه وطبيعة هويتنا فى عالم تتسارع عولمته بصورة فائقة يتطلب نظرة نقديه ثاقبة، وتقويما دقيقا للاتجاهات الماضية والمستقبلية، ومن ناحية أخرى، فإن جميع الإصلاحات يستحيل صياغتها أو تطبيقها بدون تحول جذرى فى التوجه الثقافى للأفراد والمجتمعات على السواء، هذا هو السياق، الذى طرح على مائدة المناقشات فى مؤتمر مكتبه الإسكندرية، والذى شمل عدة أفكار جرى مناقشتها، من أهمها، تجديد الخطاب الثقافى فى العالم العربي، وتحرير أطر الوعى الثقافى والإبداعى من العقبات، التى تعوق حرية حركتهما، وتحرير وسائل الإعلام من سيطرة السلطة كضمانة لمراقبة الشفافية المطلوبة فى الأداء المدنى والحكومي، لتقوم بدورها فى إشاعة ثقافة الديمقراطية، ونشر سبل التربية السياسية الحرة دون عوائق، والاستناد إلى العلم، وجعله مكونا أساسيا من مكونات الثقافة، تبقى القناعة بأن تحقيق هذا كله لن يتم إلا بتحديث المؤسسات الثقافية وصياغة أسس جديدة

---

1 -الأهرام 6 مايو2004

للنشاط الثقافي والبحث عن آليات وسبل جديدة للانتاج والتبادل الثقافي، كما يجب أن يواكب كل ذلك فتح حوار ثقافي جديد، يقوم على المساواة والاحترام المتبادل والتسامح بين المثقفين للتغلب على العنف المترسخ في الخطاب الثقافي.

وبعد أسبوع فقط من انعقاد المؤتمر الذي نظمته مكتبة الإسكندرية بعنوان: الإصلاح العربي، كانت مبادرة المركز الثقافي المصري بالرباط في دعوة أحد الرموز الثقافية العامة في المغرب الشقيق ليكون ضيفا على اللقاء الثامن من الصالون الثقافي المصري، وهو الدكتور عباس الجراري، مستشار جلالة الملك، والذي يعتبر واحدا ممن قدموا للمكتبة العربية العديد من الدراسات والمؤلفات في الدراسات المغربية، التراث الشعبي، الأدب العربي الإسلامي، الدراسات الأندلسية، وفي قضايا الفكر والثقافة، والفكر الإسلامي، وآخر إصداراته كان كتابه "القيم والدولة في الإسلام.. رؤية عصرية"، والذي صدر منذ عدة أسابيع.

لقد كان موضوع الصالون هو دور المثقفين العرب في الإصلاح العربي، ولأن هذا الدور من الأهمية بمكان لكونه يمثل المحور الثالث المهم في حركة الأمة، حيث جاء حديث ضيف اللقاء د. الجراري، الذي بدأه بالإعراب عن سعادته في كل مرة تتاح له فرصة الاتصال بأخوته المصريين، قائلا: إن مصر في دمي وفي خاطري وفي دم كل عربي وخاطر كل عربي، ثم بدأ في صلب الموضوع، مذكرا بأن الموضوع، الذي تم اقتراحه عليه هو موضوع دقيق ومهم، ولكنه صعب وشائك، ويكفي لإبراز صعوبته أنه يعتبر الآن في طليعة قضايا الساعة ولعله

قضية الساعة، فلقد باتت إشكالية دور المثقفين العرب فى الإصلاح العربى مؤرقة للنخبة العربية على اعتبار أن مفهوم الإصلاح مختلف الدلالات، رغم أن إثارة النقاش حوله تعود إلى قرنين من الزمان.

استرسل الدكتور عباس الجرارى فى محاضرته بإثارة نقطة حساسة أخرى ترتكز على ضرورة إيجاد رؤية واضحة لمشروع مجتمعى قادر على تبنى نموذج حداثى محدد ومواكب لتطورات العولمة وتحدياتها. هذه التحديات تنقسم، حسب الدكتور الجراري، إلى قسمين تحد داخلى وخارجي.

يتمثل الاول فى تطلع الشعوب العربية كافة إلى إصلاح أحوالها السياسية والاقتصادية والسوسيو ثقافية، أما التحدى الثانى فيرتكز على رغبة الغرب فى فرض إصلاح مستنسخ على الأمة العربية، وهذا ما لا يجب الخضوع له لأن الإصلاح الحقيقى ينبغى أن ينبثق من الذات العربية كثمرة لحركة المجتمع ككل.

كما ذكر الدكتور الجرارى وجوب ارتكاز كل دولة على ثلاثة أقطاب سياسية ألا وهى أولا الجهاز المنفذ والمحرك للدولة، بمعنى أخر القادة والمسئولون، ثانيا المجتمع، الذى يكون الدولة بما فيه المجتمع المدنى وأخيرا النخبة المثقفة، مضيفا أن اللبنة الأساسية لهذه الأقطاب الثلاثة هم المثقفون مما دفعه لطرح سؤال مباشرة من هم المثقفون؟ وهل من دور لهؤلاء المثقفين للإصلاح لينتقل الاستفسار عن المدلول الجوهرى لكلمة المثقفين، حيث وصفها بالغموض، ولكنه لم يتردد

فى إعطائها بعض المرادفات كالنخبة العلماء المبدعين. فهم كل من يتوافر فيهم الوعى والمعرفة والتكوين الفكرى فى مصداقية. فالمثقف قد يكون، على حد قول عباس الجراري، إعلاميا، طبيبا، مهندسا، شاعرا، أو كاتبا.

تميزت نهاية مداخلة الدكتور الجرارى بمجموعة من الاستنتاجات والتعليمات فيما يخص تقريب مفهوم الإصلاح، الذى فى نظره يجب أن يرتكز على التمازج والتفاعل الإيجابى للأقطاب سابقة الذكر لوضع آليات الإصلاح قبل الإجراء، وذلك للانطلاق على أسس سليمة وصلبة قبل الولوج إلى تطبيق الإصلاح المجتمعى للبلدان العربية. كما أقر مختتما خطابه، «نحن لا نلقى اللوم على المثقفين، لكن ينبغى أن تعتمد عليهم فى التخطيط ووضع التصورات الملائمة لتحقيق الإصلاح المنشود».

مصر والعرب والخيار النووي! [1]

أخيرا جدا دعا وزراء الخارجية العرب فى آخر اجتماع لهم إلى التوسع فى الاستخدامات النووية السلمية فى كل المجالات، وحددوا الإجراءات التنفيذية، وطلبوا من الهيئة العربية للطاقة النووية تنفيذ استراتيجية عربية خاصة بامتلاك التقنيات النووية السلمية حتى عام2020.

لقد سعدت بهذا القرار مما دعانى إلى أن أعود بالذاكرة إلى المقال، الذى نشر لى بجريدة (الأهرام) فى تلك الصفحة يوم31 مايو1995، أى منذ أحد عشر عاما تقريبا بعنوان: «حتى لا تضيع مائة سنة أخرى»، تحدثت فيه عن الدعوة التى نادى بها علماء أجلاء من الرعيل الأول أمثال د. على مصطفى مشرفة، والدكتور عبد الحليم منتصر بأنه على مصر أن تعير المسألة النووية كامل رعايتها، وأن تدخلها فى حساباتها، مع وضع الخطط الإيجابية، التى تحدد لنا ما نحن فاعلون إذا ما جد الجد وتفاقم الأمر، وتساءلت بعد أن تم إقرار المد النهائى للمعاهدة الدولية لمنع الانتشار النووي، إنه بناء على حق كفلته المعاهدة الدولية لكل الأعضاء، الذين قاموا بالتوقيع أن يطوروا

---

1 - 16 سبتمبر2006

برامجهم النووية للاستعمال السلمي، تساءلت حينها ألا آن الآوان أن تعيد مصر مرة أخرى التفكير فى إعادة البرنامج النووى السلمى إلى حيز الاهتمام؟

وعلى مدى الأيام الماضية خرجت على صفحات الصحف المصرية، وبأقلام كتاب مصريين شرفاء تساؤلات حول إمكانية لجوء مصر إلى الخيار النووى السلمي، وعن ماهية الآثار المترتبة على ذلك وانعكاساته على وضعية مصر الدولية والإقليمية، فإسرائيل مازالت تواصل سياساتها الرامية إلى العملقة العسكرية. وباتت اليوم قوتها تتفوق على مجموع قوات الدول العربية وانفردت وحدها بوجود مخزون نووى يقدر بنحو200 قنبلة نووية، كما قامت بزيادة إنفاقها العسكري، كما أشار إلى ذلك واحد من تقارير المعهد الدولى للدراسات الاستراتيجية حول منطقة الشرق الأوسط وشمال إفريقيا، كما أن وجود جهود إيرانية وتركية لامتلاك السلاح النووى يفرض تساؤلا ملحا يفرض نفسه على الضمير الوطنى ألا وهو: هل أصبح من المحتم على مصر قائدة العرب امتلاك السلاح النووى على اعتبار أن جميع مبادراتها لإخلاء المنطقة والعالم من الأسلحة النووية ومختلف أسلحة الدمار الشامل لم تحظ إلا بتأييد دبلوماسى دولي، لايخرج عن كونه مجرد دعم أدبى لا يقترن بأى قوة قادرة على تجسيده على أرض الواقع؟

إن اتجاه مصر والدول العربية إلى الخيار النووى لهو أمر تحتمه الظروف، التى تعيشها منطقتنا اليوم، حيث تصدق أحداث اليوم على ما كنت أقوله إنه إذا جد الجد وحدث ما لم يكن فى الحسبان أن تصبح منطقتنا على حافة الحروب، ونجد أنفسنا بلا طعم ولا رائحة ولا مذاق ليس لدينا ما نرهب به أحدا، ويبدو الأمر كأن مصر كممثلة للعرب، التى كانت وظلت على مدى السنين الملاذ الحصين لكل منطقتها، لا تملك أى ورقة تناور بها، والآخرون يلتف حولهم العالم كله ليخطب ودهم ويغبط عليهم الهدايا والامتيازات حتى يكفوا عن تخصيب الوقود الفعال، فهل يمكن أن نأخذ العبرة ونبدأ مرة أخرى بجدية فى تطوير برنامج نووى سلمى يلتف حوله كل العرب ويصبح مشروعنا القومي، بالرغم من الكلفة العالية، القيود التى من الممكن أن تفرض علينا.

إن إعادة التقدير العربى لما يدور اليوم أمر فى غاية الأهمية، فالتطورات ذات الطابع الاقتصادى التكنولوجى لا تقل أهمية عن التطورات ذات الطابع العسكري، ولم يعد هناك مبرر لاستمرار تجميد مشروعات التطوير النووى السلمي، لأن الكثير من العرب أولا فى حاجة ماسة لامتلاك بدائل الطاقة فى المناطق النائية، فليس كل العرب لديهم البترول، إضافة إلى أن ذلك سيكون أداة سياسية قوية لدعم مكانة العرب، ولتكن ورقة للتفاوض حول ترتيب الأوضاع النووية فيها على نحو يضمن تأمينها إزاء احتمالات لا أحد يعلمها إلا الله. إننا فى حاجة اليوم، قبل أى شيء آخر، إلى أن نعيد للعرب هيبتهم

التى تكاد تفقد، وحتى نستطيع بدورنا أن نؤثر فى الأحداث، ويحسب لكلماتنا كل الحسابات، أدعو مرة أخرى للاهتمام بهذا التوجه، وألا نعود مرة أخرى إلى الدوائر المفرغة، التى أضاعت علينا فرصا كثيرة. منحنا موقعنا وعبقريته الشىء الكثير. إننى أدعو اليوم كل العرب أن يقوموا قومة واحدة لنعيد مرة أخرى المكانة والهيبة للعرب بعد أن فقدنا الكثير منها.

قمة الخرطوم.. والفجوة العلمية بين إفريقيا والعالم[1]

قطعت إفريقيا شوطا كبيرا فى مجال العمل المشترك، وغدت مثالا جيدا بين الأمم فى العمل الإقليمي، حيث استطاعت أن تضع تقاليد وآليات لتسوية النزاعات، وكذلك للتنمية، ومواجهة الكوارث والأمراض، وهناك تفاعل حقيقى بين دولها على الصعيد السياسي، خاصة فيما يتعلق باللقاءات المنتظمة على مستوى القمة.

أو على مستوى الشعوب، لارتباطه بالتنمية ارتباطا وثيقا، ويؤثر تأثيرا قويا فى حياة المجتمع، ثانيها أن معالجة مشكلات التعليم، وهى كثيرة ومعقدة، وبعضها متوارث منذ عقود، هى المدخل الرئيسى لتصحيح الأوضاع العامة، وتقويم المسار، وترشيد العمل العام، الحكومى والشعبى على حد سواء، فلا إصلاح إلا بإصلاح التعليم، ولا تطور إلا بتطويره، ولا تنمية حقيقية، إلا بتنمية التعليم على نحو شامل، ثالثها أن بناء قواعد المستقبل، لا بد وأن يقوم على القاعدة الأساسية، وهى التعليم، وإلا خسرنا رهان المستقبل، مما يضاعف

---

1 - 23 يناير 2006

من حدة الأزمة الحضارية الراهنة، والتى لا سبيل إلى الخروج منها، إلا بإحداث تطوير عميق وشامل ومتكامل للمنظومة التعليمية فى كلياتها، وفى جميع مستوياتها، وبمختلف عناصرها، اذن فالتعليم هو حجر الأساس فى عملية تطوير الفكر، والنهوض بالمجتمع وذلك من خلال الارتقاء بالإنسان عقلا ووجدانا، فلا مستقبل لإفريقيا ما لم يرتق التعليم ويتطور، ويزدهر، حتى يواكب متغيرات العصر فى جميع الحقول، ويتطلب هذا إصلاح أوضاع شعوبها إصلاحا حقيقيا، لا إصلاحا وهميا، يمتد تأثيره إلى أبعد الحدود، وتستفيد منه المجتمعات الإفريقية قاطبة.

إننا فى حقيقة الأمر لن نستطيع التحدث عن مستقبل التعليم فى إفريقيا بدون نظرة تحليلية فى إطار أوسع هو أفق التنمية المستديمة، وعلى سبيل المقارنة، إذا اعتبرنا ما حدث فى قارة آسيا، وتلك القفزة الهائلة، التى بهرت العالم، فإنها فى رأى الكثيرين تعود إلى الإدارة المتكاملة لاستراتيجية ومنهاج العملية التعليمية، والذى تم التخطيط له بإتقان أخذا فى الاعتبار عدة عناصر منها: الاهتمام بتكوين الكوادر ذات الكفاءة العالية، ودعم الابتكارات فى كافة المجالات العلمية بما يخدم التنمية الشاملة والمستديمة واحتياجات المجتمع، والتشجيع على تطبيق نتائج البحث العلمى والاستفادة منها فى مواجهة المشكلات، ودعم الإنتاج القومى والتقدم وتطوير المنتج وتقليل نفقات إنتاجه، ونقل التكنولوجيا المتطورة بما يتماشى مع الاحتياجات الفعلية للمجتمع، وبما يؤدى إلى إمكانية تطبيقها.

ونطل على تقرير للبنك الدولى يرى فيه أنه لتضييق الفجوة العلمية الواسعة بين إفريقيا والعالم يتوجب عليها أن تقوم بتأمين التعليم الأساسى الشامل وتوصيله للفئات المحرومة مع توفير فرص التعليم المستمر، ودعم التعليم العالى التكنولوجي، ومن ثم تحصيل المعرفة من المتاح فى العالم وتطويعها لخلق معرفة محلية من خلال البحث والتطوير مع الاستفادة من المعلومات الحديثة وتقنية الاتصالات. فالتعليم دون انفتاح على الابتكار والمعرفة لن يؤدى إلى تنمية اقتصادية حقيقية، كما أن سنوات التعلم لن تترجم إلى معدلات مرتفعة من النمو الاقتصادى فى حالة انخفاض نوعية التعليم وعدم توظيف نواتجه بشكل جيد، وهنا نتذكر تلك الكلمات الخالدة لواحد من الزعماء المشهورين فى القرن العشرين جواهر لال نهرو أول رئيس وزراء للهند، بعد الاستقلال حينما قال: إن العلم وحده قادر على حل مشكلات الجوع والفقر والمرض والجهل والخرافات والعادات والتقاليد البالية، والثروات الهائلة الآيلة إلى النضوب، وهل هناك من يجرؤ على تجاهل العلم!!!.

أما عن الثقافة فى إفريقيا قارة الشمس والقمر ومرفأ النجوم الزاهرة، هذه الأرض الطيبة، التى أنجبت الزمن وأعطت للدنيا عمرها، وعلى أرضها يمر نهر النيل الخالد، الذى كان ولا يزال يحكى على مسامع الدهر حكايات العشاق ومواويل الأشواق، إفريقيا ذلك الإنسان الواقف بكبرياء الجمال الصامد أمام رياح الزمن الظالم.. صوت يهتف للحرية، وينشد للانعتاق ويرفض الذل والهوان، فإنه منذ العصور القديمة

وحتى الآن شهدت أجزاء القارة الإفريقية المزيد من التبادل الثقافى بين سكانها، حيث تدفق طلاب العلم والمعرفة وباستمرار على مراكز العلم، ولاسيما فى الشمال لتلقى العلم والمعرفة، ثم عادوا لبلادهم لنشر ما تعلموه بين مواطنيهم، إذن فالسمات المشتركة بين سكان القارة الإفريقية كثيرة ومتعددة تشمل مختلف المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، وهى مجالات يجب التشجيع على تطويرها حتى تشكل الركائز الداعمة للاتحاد الإفريقي، الذى يعد بحق خطوة جريئة ومهمة لإخراج القارة الإفريقية من حدودها القزمية إلى آفاق المستقبل المشرق، وهذا يتطلب فتح الباب على مصراعيه للتكامل الاقتصادى على أساس علمي، يخدم مصالح جميع الأطراف، عند ذلك تكون كل الدول الإفريقية بمنزلة عمق استراتيجى يدعم كل منها الآخر وعند الانتهاء من هذه المرحلة يمكن لدول إفريقيا أن تقف وأن تواجه أى تكتلات عالمية تضر بمصالحها، وهذا التكامل الإفريقي، فى هذا الإطار، مرشح لأن يكون أقوى تكتلات العالم.

إننا مطالبون بوقفة تأمل فى كل الجهود، التى بذلت من أجل إصلاح التعليم وتطويره والاهتمام بعوامل ربط الثقافة فى بلداننا الإفريقية، بما يحقق أهدافنا، ويفتح لنا الآفاق نحو المستقبل، الذى ننشده لإفريقيا، وليس لدينا أدنى شك فى أن اهتمامنا بتطوير التعليم وتجويده، وتقوية مؤسساته المختلفة، والاهتمام بالتبادل

الثقافى بين بلدان القارة السمراء لا يعني، بأى حال من الأحوال، إننا نقوم بذلك استجابة لضغط خارجى أو إرضاء لجهة معينة. وإنما تلبية لنداء داخلي، صادر من مجتمعاتنا، ونابع من ظروفنا وهادف إلى ما فيه الخير والفلاح لقارتنا.

الوعى المجتمعى بأهمية العلوم[1]

فى عيد العلم الماضى أعلن الرئيس حسنى مبارك عن بدء عقد العلوم والتكنولوجيا المصري2007 ـ2016، وكان من ثمرات هذه التوجهات الجديدة أن تم صدور قرارين، الأول يقضى بأن ينشأ بمجلس الوزراء مجلس يسمى المجلس الأعلى للعلوم والتكنولوجيا، والقرار الثانى يقضى بإنشاء صندوق للعلوم والتنمية التكنولوجية، منذ أيام قليلة أطلقت وزارة التعليم العالى والدولة للبحث العلمي، بالتعاون مع مركز تحديث الصناعة، مبادرة ربط الصناعة المصرية بمنظومة التعليم العالى وشباب الجامعات، وفى رأيى أن هذه الخطوة لها من الأهمية ما يجعل الخطوات، التى تنتهجها وزارة التعليم العالى والدولة للبحث العلمى من أجل تجهيز قواعد علمية رصينة قد نكون تأخرنا فى تجهيزها بعض الوقت أمرا يجب أن نشجعه وأن نسعى إلى تنميته، وياليت تلك المبادرة تغطى أيضا بقية كليات العلوم والزراعة والطب والصيدلة، بحيث تنمى الإحساس بأننا بدأنا الخطوة الأولى الصحيحة فى دعم التعاون العلمى والتطبيقي، وجعل الصناعة وأدواتها جزءا لا يتجزأ من نظام التعليم العالي،

---

1 - 14 نوفمبر 2007

فالعلم والتكنولوجيا هما مفتاح النمو الاقتصادى والضامن الأكبر لتعزيز القدرة التنافسية الوطنية. وإن كنت لا أريد أن أخفى سعادتى الكاملة ببداية واحد من البرامج الجديدة بكلية العلوم جامعة القاهرة، وهو برنامج البترول والجيولوجيا، الذى ستقوم بتمويل جزء كبير منه عدة شركات بترولية.

إن التنمية الاقتصادية لأى بلد تتوقف أساسا على قاعدته العلمية والتكنولوجية واستغلالها فى القطاعات الرئيسة كالزراعة والنقل والصناعة والتربية والصحة والبيئة.. وعلى هذا نشأ التقسيم بين البلدان النامية بالاعتماد أساسا على مستواها العلمى والتكنولوجي، على أنه بات من المحقق أيضا أن البلدان النامية تستطيع أن تحقق نموها الاقتصادى وتعززه، إذا ما توافرت الإرادة السياسية والعناصر العلمية والتكنولوجية اللازمة.

إن مصر تمتلك كل مقومات النجاح فى مجال البحث العلمى والتكنولوجيا والتميز فيه، وما تمر به الآن ما هو إلا مرحلة مرت بها كل الأمم، فعودة مصر لمصادر قوتها الأصلية النابعة من جهود علمائها، وهم ثروة نادرة لا تقدر بثمن، ولا تتوافر لدى الكثير من الدول المجاورة، والنظرة بايجابية إلى تجارب التطوير والحداثة الناجحة فى بلدان لها مثل ظروفنا كالهند وباكستان وماليزيا والبرازيل، وهى دول تضع أقدامها الآن على بداية طريق التقدم العلمى والتكنولوجيا إن لم تكن قطعت فيه أشواطا، فالعلم مع التكنولوجيا هما مستقبل مصر، وهما قد صنعا الانتصارات لكل دولة عبر التاريخ، ومن هنا لا بد

أن تدير الوزارة وكوادرها حوارا مجتمعيا يرفع مستوى الإدراك لقضية العلم والتكنولوجيا إلى مستوى عال ليضع المجتمع موارده وراء هذه القضية ويدعمها. فهو أى ذلك الحوار مسئولية الوزارة، وكذلك مسئولية الإعلام، ومسئولية الجامعات ومراكز البحوث.

قدمت كوريا الجنوبية مع المملكة المتحدة صيغة جديدة للتعاون بين الصناعة والتعليم العالى والجامعات والمجتمع، وهو ما يتعلق بما يسمى حدائق العلوم، أو ما اصطلح على تسميتهsciencesparks وهى واحدة من أفضل مناطق التواصل والتفاعل بين العلم والتكنولوجيا مع التنمية الاقتصادية. فمن جهة، فإن تيسير العلاقة بين العلم والجامعات ومراكز البحوث يساعد على تسريع وتيرة التنمية الاقتصادية، ومن ناحية أخرى، فإنه يعزز أنشطة البحث المستهدف، فقد أثبتت حدائق العلوم، التى بدأت فى الانتشار فى العديد من الدول النامية والصغيرة أنها الوسيلة الناجحة لربط الصناعة بالجامعات، وأدعو من هذا المكان أن تتكاتف الجهود فى مصر التى تملك ذخيرة من الشباب يعملون فى الصناعة ويتخرجون فى الجامعات لإنشاء تلك المناطق، التى ستصبح مناطق جذب حقيقية فى المستقبل.

ندوة العلوم والإسلام[1]

التراث العلمى الإسلامى جزء لا يتجزأ من ذاكرة الأمة الإسلامية، وإحياؤه ضرورة لتأصيل العلوم المعاصرة وتصحيح تاريخ العلوم، وإنصاف الدور الإسلامى فى مسيرة الحضارة الإنسانية. من أجل هذا الغرض وفى إطار الاحتفالات الثقافية، التى تقيمها دولة الكويت الشقيقة بمناسبة اختيارها عاصمة للثقافة العربية هذا العام، وبدعوة كريمة من المنظمة الإسلامية للعلوم الطبية، التى يرأسها معالى الدكتور عبدالرحمن العوضي، وزير الصحة الكويتى السابق، وعلى مدى ثلاثة أيام عقدت ندوة عالمية بعنوان: (العلوم فى الإسلام) فى الفترة من23-25 يناير2001 برعاية النائب الأول لرئيس مجلس الوزراء ووزير الخارجية الشيخ صباح الأحمد الصباح وحضرها أكثر من خمسين عالما يمثلون الدول الإسلامية والعربية، وعن مصر شارك عدد من العلماء على رأسهم فضيلة الدكتور فريد واصل، مفتى الجمهورية، وكل من الأساتذة الدكاترة: إبراهيم بدران، حامد طاهر أحمد فؤاد باشا، عبدالصبور مرزوق، على حبيش، محمد يونس حجاج، مصطفى الشكعة، وكاتب المقال.

---

1 - 4 فبراير 2001

وتهدف الندوة إلى الاهتمام بالعلوم الإسلامية كعلوم شرعية حض عليها الدين الإسلامي، وكيف عن طريق دراستها يمكن أن تحدث النهضة العلمية الإسلامية للخروج من المأزق، الذى وجدنا أنفسنا فيه كعالم إسلامي، فى بعد الشقة والمسافة بيننا وبين الغرب المتطور والمتقدم، ومواكبة التطورات الرهيبة، التى تحدث فى عالم اليوم.

وتضمنت الندوة خمسة محاور هي: مفهوم العلوم فى الإسلام، ومكانة العلوم والعلماء فى الإسلام، ومفهوم الحرية العلمية فى البحث من منظور علمي، وريادة الحضارة الإسلامية فى العلوم الكونية من طب وصيدلة وفلك ورياضة، والمحور الأخير بعنوان: نحو حضارة إسلامية مستقبلية أساسها الدين والعلم.

هذا واعتبر العلماء المشاركون فى الندوة أن العلم، الذى أشادت به مصادر الشريعة وبأهله، لا سيما ما جاء فى الكتاب والسنة ليس مقصورا على العلم الشرعي، بل هو شامل لكل العلوم من شرعية وكونية وطبيعية لأنها علوم شريفة، وتختلف رتب شرفها باختلاف رتب متعلقاتها، ودعا العلماء إلى الربط بين دراسة أى فرع من فروع المعرفة، وفى أى اختصاص، وبين ترسيخ القيم الدينية والأخلاقية بما يضمن توجيه العلم على بصيرة إلى ما ينفع الناس.

وفى أوضح توصيات تصدر عن ندوة ما، تم التأكيد على أن تعلم المسلمين العلوم الكونية والطبيعية يعد من فروض الكفاية بحيث

لا يسقط الوجوب عن مجموع المسلمين إلا بتعلم بعضهم هذه العلوم تعلما يكفى حاجة المسلمين إليها وبحيث يأثمون جميعا بترك تعلمها أو تعلم ما لا تحصل الكفاية به منها، ويدخل فى ذلك تمويل متطلباتها.

وشددت الندوة على وجوب الاستفادة من معطيات العلوم الكونية والطبيعية فى التوصل إلى الحكم الشرعي، وذلك بالإكثار من الندوات واللقاءات والحلقات والمؤتمرات، التى تثمر مزيدا من الفهم المتبادل، وتيسر التوصل إلى اجتهادات قائمة على أساس متين من الشرع والسنن الكونية مع الأخذ بمبدأ التيسير فى النظر والإفتاء اتباعا لمنهج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أنه لم يخير بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثما، ورأت الندوة أن التوحيد يقتضى وحدة المعرفة والحقيقة، وينفى التنافر بين العلم الدنيوى والأخروي.

كما أوصى المجتمعون بأهمية تدريس مدخل إلى العلوم الشرعية فى كليات العلوم الكونية وتدريس مدخل العلوم الكونية فى كليات العلوم الشرعية مع حسن إعداد هذين المدخلين بما يكفل سهولة الفهم وحسن الاستفادة، كما دعت الندوة إلى الربط بين دراسة أى فرع من فروع المعرفة وفى أى اختصاص وبين ترسيخ القيم الدينية والاخلاقية بما يضمن توجيه العلم على بصيرة إلى ما ينفع الناس، وأيضا تمت التوصية بتدريس منهج تاريخ العلوم عند المسلمين ومساهمات علماء الحضارة العربية والإسلامية ودراسة منهج العلماء المسلمين فى بحوثهم العلمية الدنيوية، واستلهام هذا

المنهج فى البحث العلمى بعد تكييفه بما يوائم والزمان والمكان.

وحضت الندوة على توفير السبل اللازمة لضمان بقاء العقول العلمية المسلمة فى أوطانها وإلى تهيئة المناخ فى البلاد الإسلامية لاستقطاب العقول المهاجرة وتوظيف خبراتها وطاقاتها فى تطوير الواقع العلمى فى البلدان الإسلامية، وإزالة جميع العوائق، التى تحول دون ذلك.

وفى توجه واضح لجذب العلماء المسلمين خارج البلاد الإسلامية أوصت الندوة بالتوصل مع علماء الأقليات المسلمة فى الغرب لربطهم بأمتهم والاستفادة من إخراج التراث العلمى المخطوط، وتخصيص ما يلزم لتحقيقه والاستفادة من تجاربهم وخبراتهم عن طريق تفعيل آليات تطبيق استرتيجية تطوير العلوم التكنولوجية فى البلدان الإسلامية، التى وضعتها المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة وصادق عليها مؤتمر القمة الإسلامية التاسع.

وفى سبيل الأخذ بالتقنيات الحديثة فقد طالبت الندوة بالعمل على إعداد قاعدة بيانات علمية عن جميع العلماء فى البلدان الاسلامية والعلماء المسلمين فى جميع أنحاء العالم تركز بصورة خاصة على التعريف بمؤهلاتهم وتخصصاتهم ونتاجهم العلمي.

ودعت الندوة إلى العمل على ربط الدراسات العلمية والتخصصية بما يتصل بها من الدلائل المثيرة إليها أو الحوافز الحاملة عليها فى القرآن الكريم وربط سائر الدراسات، التى تتناول الشريعة الإسلامية بما يدعمها ويؤيدها من الحقائق العلمية الكونية.

وحثت الندوة علماء المسلمين ببذل الجهود للجلاء عن بعض مفاهيم الإسلام الأساسية مثل تبعات استخلاف الإنسان على الأرض ودور العقل ومكانته، التى بينتها الشريعة والاستدلال على الخالق بما خلق ومعانى تسخيره ما فى السموات والأرض للإنسان وفق نواميسه ومقاصده ودور ذلك كله فى حث العلماء المسلمين على إجراء البحوث العلمية، التى تجيب عن كثير من التساؤلات، التى وجه إلى طلب الإجابة عنها القرآن الكريم.

وأخيرا فقد ناشدت الندوة البلدان الإسلامية أن توجه برامج التعليم ووسائل الإعلام والتثقيف بحيث تغرس فى مواطنيها، ولا سيما أجيالها الناشئة، ما حث عليه الإسلام من طلب العلم النافع بكل أنواعه ووجوب الكشف عن سنن الله فى خلقه، وهو ما يعبر عنه الآن البحث العلمي، وأن على البلدان الإسلامية أن تهتم اهتماما بالغا بقضايا التنمية البشرية باعتبارها المدخل الأساسى للتطور والتقدم، وأن تعمل على تكوين كتلة بشرية قادرة على إحداث التغيير العلمى المنشود وإرساء قواعد التميز فى البحث العلمي، ولا سيما فى علوم الصدارة، وفى مقدمتها الإلكترونيات الدقيقة والمعلومات والاتصالات والهندسة الوراثية، وعلوم الفضاء.

نحو توعية علمية ترمم العقل العربي[1]

نحن فى مواجهة جيل جديد من التكنولوجيات الحديثة، كلها تبشر بحضارة علمية جديدة لا ندرى عنها شيئا،. فقد فاتتنا كشوفات عصر طاقة البخار ولم تنر عقولنا قوة الكهرباء، وتحولت الطاقة النووية من قوة مؤازرة إلى قوة رادعة لنا، خاصة أن إسرائيل عدونا الرئيسى هى التى تمتلكها، ومر علينا عصر الترانزستور ونحن منشغلون بألعابه الترفيهية، ولم يبق لنا ونحن فى المحطة الأخيرة إلا أن نتمسك بآخر أهداب الثورات العلمية، التى تهز عالمنا المعاصر وأعنى بها ثورة المعلومات والهندسة الوراثية والطاقة البديلة. إن علينا أن نبادر بالمعرفة وبالفهم، فالإنسان عدو لما يجهله. ونحن لم ندر ظهورنا للتفكير العلمى فقط، ولكننا استعضنا عنه بمنظومة خرافات وبدع كفيلة بإهدار كل ما أنجزناه من تقدم، وعلى حد تعبير العالم المصرى الدكتور أحمد زويل، الحاصل على جائزة نوبل فى الكيمياء، إن نشر الثقافة والتوعية العلمية هو السبيل الوحيد لترميم العقل العربى وإطلاق حريته فى التفكير والإبداع، وهى السبيل أيضا إلى إطلاق النهضة العلمية، التى مازلنا نتطلع إليها، ولم نيأس بعد من الوصول إليها.

---

1 - 15يسمبر2009

ويقصد بالإعلام العلمى أنه الإعلام العلمى الجماهيري، الذى يشمل الكتب العلمية والتكنولوجية المبسطة، والصفحات العلمية بالصحف والمجلات، والبرامج الإذاعية والتليفزيونية، والوسائط المتعددة من أقراص مدمجة أو أفلام تسجيلية، وأخيرا مواقع الإنترنت، التى تجمع كل ذلك، إذ لا يكاد يبزغ فجر أو تشرق شمس حتى يتوصل العلماء فى كل أصقاع الدنيا إلى العديد من الاختراعات المبتكرة المتفردة، تدفع بحياة الناس اليومية إلى دروب جديدة فى عالم المستقبل، وتضع آفاقا رائعة للزمن الآتى ومجتمع الغد. وهنا يلعب الإعلام العلمى دور اللاعب الرئيسى فى تقريب العلم للجماهير بأسلوب مبسط ومشوق، والتعريف بكل ماهو حديث متطور فى المجالات العلمية والتقنية، وذلك من خلال وسائل الإعلام المختلفة المقروءة منها والمسموعة والمرئية.، فرسالة الإعلام العلمى رسالة هادفة لأنها تتصل بالإنسان وفكره وعقله وحياته، ولو نظرنا بعين ناقدة للإعلام العربي، فإننا سنجد عدم اهتمام القائمين بهذا الإعلام بالمعلومات العلمية، ودليل ذلك مايلي: لا يزيد عدد الصحف، التى تصدر صفحة متخصصة، أو بابا يوميا أو أسبوعيا للحديث عن العلوم والتكنولوجيا على(20) جريدة، أما البقية فهى للأسف مغيبة ولا يعد العلم أو أى من فروعه من أولويات اهتمامها. وفى تحليل مستوى الصفحات العلمية لمعظم الصحف وجد أنها تتسم بالسطحية وعدم التوثيق مما يصرف عنها القارئ لإحساسه بأنها تفتقر للمادة العلمية، وفى أحيان أخرى يكون عرضها ثقيلا

فلا يجذب، وعلى الجانب الآخر فإن الإصدارات الخفيفة المتخصصة قليلة ولا تغطى إلا نسبة بسيطة من الموضوعات العلمية الحديثة. ودور الجامعات فى هذا الجانب غائب بدرجة كبيرة، كما أن حضور وزارات الإعلام والثقافة فى هذا الشأن حضور ضعيف، ومن وجهة نظر عادلة، فإن رسالة الإعلام العلمى رسالة هادفة لأنها تتصل بالإنسان وفكره وعقله وحياته، كما أنها أداة تنوير له تجعله يقف مع الحقائق العلمية يوما بيوم وساعة بساعة، لذلك فإنها مطلوبة على جميع المستويات، المرئى والمسموع والمقروء منها، ولعله من المناسب أن تتبنى وزارات أو هيئات الإعلام والثقافة إقامة ورشات عمل ودورات تكوينية متخصصة لبحث موضوع الإعلام العلمى والثقافة العلمية للتوصل لخطة إعلامية علمية يمكن تطبيقها، كما أن على وزارات التعليم العالى أن تدرس أسباب الإخفاق فى الجامعات الجهة التى تمتلك الكوادر العلمية المتخصصة فى توصيل الرسالة العلمية للمجتمع، حيث إن أحد أركان المهام الأساسية للجامعات خدمة المجتمع وبيئته بالإضافة للتعليم والبحث العلمي، (وهذا ما حدث فى مصر عندما شرعت مؤخرا أكاديمية البحث العلمى والتكنولوجيا فى تكوين كيان خاص بها، ولكن للأسف تمت الاختيارات بشكل شخصى لم تراع فيها المصلحة العامة!).

وفى ضوء أهمية الإعلام العلمى فمن الواجب الآن بلورة استراتيجيات وطنية على مستوى كل الدول العربية لتعزيز العلوم والتقنية عبر نشر الثقافة العلمية، كما ونوعا، الاهتمام بإعداد واستقطاب وتحفيز

الكفاءات والمواهب فى مجال تبسيط العلوم ونشر الفكر العلمى من بين أصحاب التخصصات العلمية والتقنية، التأكيد على ضرورة التواصل والتفاعل بين أصحاب التخصصات العلمية من ناحية.

وبين رجال الفكر والثقافة والإعلام والتخصصات الأدبية والإنسانية من ناحية أخري، دعوة أقسام الإعلام فى الجامعات العربية إلى الاهتمام بالدراسات والبحوث والمناهج فيما يخص الإعلام العلمي، والسعى إلى تشخيص واقع الإعلام العلمي، وتحديد معوقاته، واستكشاف طرق تفعيله وتطويره، دعوة المؤسسات الإعلامية ووسائل الإعلام المرئية والمقروءة والمسموعة إلى تخصيص الإمكانات والموارد والبرامج والإصدارات فى مجال الإعلام العلمي، الذى يهتم ببث الحماس والتفاعل مع القضايا العلمية والتطورات التقنية وذلك كجزء جوهرى من دورها الحيوى فى تنمية وعى المجتمع ومشاركاتها المشكورة فى مجالات الرقى الفكرى والثقافى والتنموي، دعوة المؤسسات الإعلامية ووسائل الإعلام المرئية والمقروءة والمسموعة إلى إعداد الكوادر البشرية فى مجال التحرير العلمى وتقنياته المتخصصة.

إن القضايا العلمية الملحة والمستجدات والاختراعات الحديثة فرضت نفسها وبقوة على مراسم حياتنا، بل وعلى أجندة أحاديثنا اليومية، ومن هنا فإن الصحافة العربية العلمية والإعلام العربى العلمى

على وجه العموم مطالب بتفعيل دوره فى إثراء جوانب المعرفة لدى المواطن، والذى هو مطالب أيضا بإعطاء العلم وتطبيقاته مزيدا من الاهتمام، ولن يتحقق هذا إلا عن طريق تحسين الأداء شكلا ومضمونا، فالاهتمام بالتنوير العلمي، وتغذية روافد الثقافة العلمية ليس اختيارا بقدر ما هو طريق حتمى ينبغى المضى فيه تفرضه المتغيرات العالمية ومفرداتها الذائعة من عولمة وعسكره وغيرها، وإلا فمصيرنا سيكون مزيدا من الضحالة والتسطح العلمى والفكري.

دور الأهرام فى دعم الجامعة المصرية[1]

وجامعة القاهرة تستعد هذه الأيام للاحتفال بمرور مائة عام على إنشائها، لا بد أن نتذكر التاريخ الحى الباقى لهذه الجامعة العريقة الفتية، بالعودة إلى ما كتبته جريدة الأهرام الغراء فى ذلك الوقت من أوائل القرن العشرين، والتى أفردت صفحات وصفحات لكى تدافع عن الجامعة وتساعدها على البقاء فى ظل ظروف مالية وسياسية صعبة، حيث مرت وقتها الجامعة بضائقة مالية.

يحكى إستاذنا الدكتور يونان لبيب رزق فى ديوانه القيم، الذى أعده من واقع يوميات صحيفة الأهرام، ديوان الحياة المعاصرة: معلوم أن الجامعة المصرية عندما ظهرت إلى الوجود يوم21 ديسمبر عام1908 أنها نشأت أهلية بمبادرة مجموعة من المصريين الشرفاء، وإن اختلفوا فى مواقعهم الاجتماعية وانتماءاتهم السياسية إلا أنهم اتفقوا على أن وجود هذه المؤسسة أصبح يشكل ضرورة مجتمعية وثقافية لهذا الوطن، ومعلوم أيضا أن تلك الجامعة الأهلية، مع أنها بدأت بداية واعدة، إلا أنها تعثرت كثيرا خلال فترة الحرب العالمية الأولي، حتى أنه علت وقتئذ أصوات بوجوب إغلاقها(1915 ـ1917)، الأمر

1 - 17 يوليو 2007

الذى دعا البعض، وعلى رأسها الأهرام إلى الدفاع باستماتة عن بقاء المؤسسة الوليدة، التى لم تكن بلغت عشر سنوات وقتئذ.

ففي19 أكتوبر عام1915 نشرت مقالا بعنوان:" حول الجامعة المصرية ضجة فى الفضاء لا نعرف مهبها أعربت فيه عن دهشتها من أصحاب تلك الأصوات. واستعرضت أهم الأسباب وراء ما يواجه مشروع الجامعة من مشاكل،. قالت: أنشئت فى القاهرة هذه الجامعة، وكان من الواجب أن تكون فى كل عاصمة من عواصم هذا القطر جامعة مثلها، فلم يدرك الكثيرون مهمتها، فظن بعضهم أنها ستحمل العلم بأكياس إلى الدور والمنازل، فتوزعه حتى تملأ به كل بيت، وظن آخرون أننا بها سنستغنى عن المدارس الأخرى العالية، وازدراها سواهم لأن شهاداتها لا توصل الطالب إلى كرسى الاستخدام، ووعد الكثيرون بأن يعطوها ويمنحوها، ولم يفعلوا بل عادوا عن وعدهم، وتخيل فريق العضوية فيها كمنصب الحكم!

وفى محاولة من صحيفة الأهرام لتشخيص الضائقة، التى كانت تعانى منها الجامعة فى ذلك الوقت، والتى راجت معها الشائعات بأنها فى طريقها للإغلاق، وهى الشائعات، التى صنعتها حملة صحفية منظمة نادى القائمون بها بالويل على أموال الجامعة، التى ضيعت، وإرساليتها، التى أعيدت.. قدمت الأهرام، فى مقال طويل، أهم أسباب تلك الضائقة، وبدا وكأن معظمها خارج عن إرادة الجامعة، فإيراد الجامعة، الذى بدا، وكأنه تناقص كثيرا بعد قيام الحرب، كان الموضوع الأول، الذى تناولته الأهرام، فقد تنوعت مصادر

هذا الإيراد بشكل ملحوظ، إعانة الأوقاف، وقدرها خمسة آلاف جنيه سنويا، الاشتراكات، إيجار الأطيان الموقوفة على الجامعة، وأخيرا فائدة الأموال، التى تم الاكتتاب بها، والتى أودعت فى البنك الألمانى الشرقي، وتلاحظ الأهرام أن رأس المال لا يزيد تقريبا لكون حركة الاكتتابات بطيئة، بالرغم من المساعى لحض الناس على مساعدة الجامعة، والأخذ بيدها.

ومن الموضوعات، التى كانت محل نقاش بعثة الجامعة، إلى أوروبا، فقد همت الجامعة نتيجة قصور مواردها باستدعاء بعثة ألمانيا وفرنسا وإبقاء بعثة إنجلترا مع تخفيض مرتبات أعضائها، غير أنها تداركت الأمر بعد قليل بسبب حسن مساعى مجلس الإدارة، ومع ذلك فإن استمرار الأزمة المالية اضطر الجامعة فى نهاية الأمر إلى أن تستدعى من لم يتمم دروسه من أعضاء الإرسالية، وكان الباقى منهم ثلاثة فى إنجلترا وسبعة بفرنسا، فعادت إرسالية إنجلترا، وعاد من فرنسا اثنان بعد أن بقى بها خمسة يتممون دروسهم على نفقتهم، والمعلوم أن طه حسين كان واحدا من الاثنين اللذين عادا من فرنسا عام1915، وراحت بعثته الأولى، وكانت فى مونبلييه، ضحية لأزمة الجامعة، وكان عليه أن ينتظر عبور تلك الأزمة ليعود إلى باريس بعد الحرب، ويصبح عميد الأدب العربى فى المستقبل!

لم تكن هيئة تحرير الأهرام وحدها فى ميدان الدفاع عن الجامعة، فقد دعمها فى ذلك عدد من القراء خصصت لهم الصحيفة مساحات واسعة منها، مما يشكل دعما قويا للجامعة للخروج من

عثرتها وإلى أن يكون القول الفصل فى صالح استمرارها لا إلغائها، وكان الجميع بذلك متوافقين مع دورة عجلة التاريخ.

وشارك قراء من الأهرام بكتابة مقالات تدافع عن الجامعة، وبقائها، منهم ابن سينا، أحد الأدباء المفكرين، فؤاد أبو السعود، ولاحظ أن بعضهم آثر التوقيع بالحروف الأولى من اسمه وآثر آخرون أن يسبغوا على أنفسهم بعض الأوصاف، ووقع آخرون باسم مستعار. الوحيد، الذى وقع باسمه كان فؤاد أبو السعود، أحد هؤلاء حاول تفسير أزمة الجامعة بأنها من الواجب أن تبدأ صغيرة، ثم تتدرج، وتنمو النمو الطبيعي، ولكنها حاولت فى يوم مولدها أن تكون كبيرة جدا غير حاسبة لتراخى الأيدى من حولها حسابا، وغير متعظة بطرقنا وأساليبنا نحن الشرقيين بأن نندفع فى بداءة كل أمر حتى يظن الناس أننا بالغو السماء طولا، ثم نهبط إلى ما دون الحضيض وهنا وتهاونا وضعفا!

وقارئ أخر وقع باسم ابن سينا قاد هجمة مضادة ضد أصحاب دعوة إغلاق الجامعة، ففى اكثر من مقال له تحت عنوان:" الانتقاد لا الانتقام" هاجم بقسوة أصحاب هذه الدعوة.

القارئ الذى وقع بالحروف الأولى من اسمه" م.ي"، طالب الأمة المصرية بأن تبرهن على أنها أمة حية مشتاقه للعلم، وتختفظ بأثر من مآثرها العلمية، وتنفخ فيه روح الحياة، وتهب هبة واحدة فى مساعدة هذا المشروع الجليل، الذى هو غرس أياديها وثماره لها، فلتعد

الصحف المصرية على صفحاتها قائمات الاكتتاب وليتبار فى ذلك الفقير قبل الغنى والصغير قبل الكبير.

الأستاذ فؤاد أبو السعود عقد مقارنة بين ما تتلقاه الجامعة المصرية وبين ما تتلقاه الجامعات فى الأمم الراقية من عناية من شعوبها، والتى لا تدخر وسعا فى مساعدتها، فيوقف عليها من المال والعقار والهدايا العلمية والمرتبات الشهرية والسنوية ما يكفى لسد حاجتها ويزيد ويحفظ كيانها، ويعتب على المصريين أنهم بعد كل الدعم، الذى قدموه للجامعة يعودون عن وعدهم ويتفرقون شذر مذر منتحلين لذلك أعذارا ما أنزل الله بها من سلطان!

وتشير الكتابات العلمية إلى أن الجامعة ظلت تعانى المتاعب خلال سنوات الحرب الصعبة، خاصة أن رئاستها انعقدت لحسين رشدى باشا، رئيس النظار، الذى كان مشغولا بمهام منصبه، غير أنها تشير أيضا إلى أن عددا من المصريين، الذين دخلوا مجلس إدارتها خلال تلك الفترة على رأسهم سعد زغلول وأحمد لطفى السيد نجحوا فى صلب طولها إلى أن اعتلى الامير فؤاد، رئيس الجامعة حتى عام1913 عرش مصر عام1917، ولم يكن بالإمكان أن يتخلى عن مشروعه القديم فعادت الحياة إلى عروقه، وكان وراء تحويل هذا المشروع لمؤسسة حكومية عام1925، ومن ثم لم يكن غريبا أن تتسمى الجامعة باسمه عقب وفاته.

واتفق القراء جميعا، مع اختلاف توجهاتهم، على أنه ليس ثمة

سبيل لإنقاذ الجامعة. سوى استنفار قوى الأمة للتبرع لإنقاذها.

هذه صفحات نادرة لجريدة وفية لوطنها قدمت للجامعة المصرية فى بدايتها التشجيع والدفاع عن وجودها، وما زالت صفحاتها حتى اليوم تفردها لمسألة الجامعة والتعليم، ليس لجامعة القاهرة فقط، ولكن لسائر الجامعات المصرية، ويكفى شرفا تلك الأبواب الثابتة، التى جعلتها نافذة لمشاكل التعليم العالى فى مصر والمواجهات القوية والصريحة، التى تقودها من أجل بعث روح جديدة للتعليم فى مصر.

نحو جامعة جديدة! [1]

فى عدد6 مايو1925 من جريدة الأهرام كتب العالم المصرى الدكتور على مصطفى مشرفة بمناسبة افتتاح الجامعة المصرية الحكومية يقول:" وها نحن على أبواب افتتاح جامعة بين ظهرانينا، جامعة نريد أن تكون فخرا للشرق بأسره، ومحطا لرجال ناهلى العلم من أبنائه.. جامعة ستحمى فى مصر الروح العلمية الصحيحة... جامعة سيرتفع شأنها فى بضع سنين.. جامعة سنتباهى بها بين الجامعات بمبتكرات رجالها، وتخدم العلم بأبحاث المنتمين إليها، وها ذا الشرق كله يستصرخنا واسم مصر يتطلب جهادنا".

واليوم أرانى متحمسا للكتابة عن أمل فى جامعة مصرية جديدة، جامعة تجمع العلم والأخلاق والقدرة على إيصال الرأى والفكر واحترام رأى الآخرين وأفكارهم، وهو الذى يخلق مدارس علمية وفكرية فى ظل تقاليد لها احترامها وثباتها لكى تكون نورا على طريق الأمة، يعصمها من التخبط فى مجاهل المستقبل، جامعة تعيد للأساتذة هيبتهم بين المجتمع، وتجعلهم أكثر قدرة على العطاء والإنجاز فاحترام العلم هو احترام للعلماء والعكس صحيح، فطالب العلم طالب

---

1 - 1 سبتمبر 2009

حقيقة، ومن طلب الحقيقة أحب الحق، ومن أحب الحق كان صادقا ومن كان صادقا كان شجاعا ومن كان شجاعا كان ذا مروءة وأحب الخير وناصر العدل وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر.. هذا هو طالب العلم.

إن الذى ينقصنا اليوم فى جامعة2009 هو روح العلم وجو التفكير الحر فأساتذة الجامعة ليسوا موظفين حكوميين يعينون ويعزلون ويرأسون ويملى عليهم.. ليسوا كذلك وأبدا، ولن يكونوا، إنهم رجال مسئولون ذوو مواقع مسئولة، ومطلقو الحرية داخل حدود مهامهم يخضعون لبرلمان منهم هو مجلس جامعتهم ومجلس كليتهم ومجلس قسمهم.. يتعاونون ويتآزرون.. يتفقون ويختلفون.. وأساس معاملتهم الصداقة والاحترام المتبادل.

ولو أردنا أن تكون لدينا جامعة مصرية جديدة، فإنه لا بد أن تكون هناك جلسات مكاشفة يفتح فيها أعضاء هيئة التدريس قلوبهم لرئيس جامعتهم وعميد كليتهم، ويجب ألا يملى عليهم منصب أو رئيس من أعلى، ويجب تجاذب الآراء باقتناع متبادل بأهمية الحوار واللقاء، وسيكون هذا من أهم إنجازات القائمين على التعليم العالى فى مصر. مرة أخرى أقول أنه لو أراد أولو الأمر الذين هم منا وسيعودون شاءوا أم لم يشاءوا عاجلا أو آجلا إلى مقاعدهم كأساتذة جامعة محاسبة أنفسهم، فعليهم أن يتساءلوا: ماذا قدموا لأمتهم؟ ماذا فعلوا ليكونوا قدوة، كم قرارا اتخذوه وهم مقتنعون به، كم من الأخطاء ارتكبوها، كم من نجاحات سعوا إليها، منها ما نجح ومنها ما فشل، من هم مستشاروهم الذين ساعدوهم فى اتخاذ قراراتهم

من أجل منفعة أو مصلحة؟ ولو بدأوا الآن فى الحساب، أقصد حساب أنفسهم قبل أن يحين وقت الانصراف، فسيستمتعون بما تبقى لهم من وقت من حياتهم.

عبقرية المكان.. وعبقرية الإنسان[1]

هل انتهت عبقرية المكان، الذى ميز الله به مصر دون غيرها من البلدان؟.. هل فقدت مصر أهم ميزة لها فى عالمها، ألا وهى ميزة عبقرية المكان والموقع، التى أفاض فيها العظيم الراحل جمال حمدان فى موسوعته المهمة شخصية مصر حيث بنى فيها نظريته الشهيرة فى تحديد قيمة مصر وشخصيتها على أساس عبقرية المكان، الذى منحها سحرا على مر الزمان، وهى نظرية ثبتت أركانها بحكم وجود مصر فى مركز الدنيا وسط أوروبا وآسيا، وعلى رأس إفريقيا، ثم هل علينا فى مصر الآن أن نتجه للبحث عن بديل لعبقرية المكان ليكون هذا البديل هو عبقرية الإنسان؟.

لقد سجل الراحل الكبير سليمان حزين اعتراضه على كلمة هيردوت الشهيرة: إن مصر هبة النيل، ونادى بقوله: مصر هبة الإنسان المصرى للحضارة والتاريخ، فقد أرسى هذا المصرى العظيم دعائم الحياة والحضارة فوق ترابه الطيب، وضبط جريان النهر العظيم فوق واديه العتيد، وأقام أول مجتمع موحد وأعرق حكومة واحدة عرفتها الدنيا، إنه الإنسان المصرى مبدع الحضارة ومرسى الحكم وصانع التاريخ.

1 - 28 مايو 2009

إننى أتصور أن الهدف فى مصر الآن يجب ألا يخرج عن إطار واحد هو تقديم إنسان أفضل، فقد يأتى العائد فى هذا الاستثمار متأخرا، وقد لا يحقق كل أهدافه، لكنه فى النهاية يقدم تلك النخبة، التى يقوم عليها بناء المجتمعات فى الفكر والسلوك والرؤي، التى تشبه الأشجار العريقة، التى لا تقدم ثمارا كثيرة، لكنها تقدم النادر والمتميز منها. فالاستثمار فى البشر هو الذى قدم الكاتب والمفكر والعالم والطبيب والداعية ورجل التعليم ومواكب المهنيين، وهذه النخبة هى التى حملت مسئولية الوعى والاستنارة ليس فى مصر وحدها، لكن فى عالمنا العربى كله.

وإننى أهيب ببريد الأهرام أن يبادر بالدعوة لفتح باب الحوار حول هذه القضية المهمة، والإجابة عن السؤال، الذى يشغل بال الكثيرين من المصريين المهمومين: هل بالفعل فقدت مصر موقعها العالمي، الذى تحدث عنه الراحل جمال حمدان، والذى وصفه بعبقرية المكان والزمان؟ وهل بالفعل علينا بأنفسنا أن نبحث لمصر عن موقع جديد لها نطلق عليه لفظة العبقرية؟ كما أطلب أن نوسع دائرة الحوار حولها فى إطار أكثر نقدا، وأكثر شمولا، حتى لا نبقى فى المكان ونخرج من الزمان دونما أن نحس.

تعليق محرر بريد الأهرام:

لقد فجرنا قضية إعادة بناء الإنسان المصرى منذ أكثر من خمس سنوات. وطوال هذه المدة تنوعت الآراء وتعددت الأفكار. ولعل ربط هذه القضية بقضية عبقرية المكان، التى أشرت إليها يضيف أبعادا جديدة من الممكن أن تثرى النقاش، وتقودنا إلى رؤية أكثر وضوحا وشمولا فيما يتعلق بعبقرية الإنسان المصري. فأهلا بكل الآراء والاتجاهات ومرحبا بكل إضافة جديدة.

سليمان حزين وحديث الشجرة[1]

كان عاشقا لأرض مصر الطيبة وأبنائها الأوفياء، وسيظل دائما واحدا من أبرز رواد الفكر والثقافة فى مصر القرن العشرين، وأستاذا لأجيال متعاقبة فى هذا القرن نفتخر جميعا بأستاذيته وعلمه وريادته، إنه الراحل الدكتور سليمان حزين، شيخ الجغرافيين العرب، وأستاذ الأساتذة، وواحد من أعطوا على امتداد رحلته الطويلة، وأسهم بنشاط مكثف لدعم العلاقات الثقافية والحضارية بين مصر والدول العربية، وساهم فى إنشاء العديد من المعاهد الثقافية والجامعات منها: المركز الثقافى بلندن عام 1943 و المعهد الإسلامى بمدريد عام 1950، مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، جامعة أسيوط عام 1955 وكذلك جامعات الكويت والرياض وبنغازي، وأستعير هنا وصف الصديق العزيز د.محمد الجوادى لأستاذنا سليمان حزين، حينما قال إنه كان متميزا جدا من حيث هو نتاج، ومتميزا من حيث هو منتج، ولكنه جمع مع هذا التميز درجات عليا ورفيعة من الوجود والجد والتجويد، وأعطاه الله طول العمر فكان نموذجا لأولئك، الذين عناهم الحديث الشريف خيركم من طال عمره وحسن عمله.

---

1 - 24 مايو1909 24 ديسمبر1999

اليوم الموافق 24 ديسمبر 2003 تمر أربع سنوات على وفاة أستاذنا الدكتور سليمان حزين، بعد حياة حافلة استمرت 90 عاما، ولأنه يمثل علامة مهمة فى تاريخ التعليم والثقافة فى وطنه مصر، كما أنه قضى جل حياته فى مصر فى وجود حقيقى ولم ينقطع عن الوجود فى قلب حياتنا الثقافية والعلمية والتربوية، فكان وجوده هذا نموذجا للنفس الطويل الهادئ الذى يصعب أن يتاح للوجود ما لم يكن الوجود نفسه رياضيا فى روحه يتقبل الظل بمثل ما يتقبل اللمعان، فأننى اردت ان يقرأ معى الجميع حديث الشجرة أو الكتاب الذى وضعه الراحل عند احتفال جامعة القاهرة عام 1983 بعيدها أل 75 بعنوان: "شجرة الجامعة المصرية"، حيث حكى فيه قصة وجود الجامعة من مصر القديمة حتى اليوم، فكان بالحق حديثا اسميه قصة الشجرة، شجرة العلم، التى أورقت لمصر الحضارة والعلوم، وما زلنا ليومنا هذا نبحث عن الثمار اليانعة لتلك الشجرة العظيمة، وهى شجرة العلم.

إن هذا الحديث يحمل حصيلة ستين عاما قضاها سليمان حزين فى ظلال الشجرة، منها ما يقارب ست سنوات مشتركة مع ظلال جامعات أخرى فى بلاد الغرب، وحاول فى حديثه أن يجمع بين انتمائه لجامعته الأم وأخواتها من جامعات أرض مصر وبين ولائه لما تعلم من حياة الجامعة بمصر والخارج فى أن يكون صادقا مع نفسه ومع انتمائه الجامعي، ومع أمانة التاريخ، ويقول فى مقدمته إنه إذا كان هذا الحديث لا يمكن أن يطمع صاحبه فى أن يرقى إلى مرتبة

القصة الشاملة والمفصلة لتاريخ امتد إلى نيف وخمسين قرنا فوق أرض الكنانة — إذ إن أمر ذلك يحتاج إلى مجلدات من السرد والحكاية والتحليل والتعليق والتفسير — فإنه يطمع فى أن يكون حلّق بالقارئ فوق أثير تلك الحقبة الطويلة من التاريخ ليعطى صورة هى أقرب إلى الفيلم السريع منها إلى التصوير الثابت عند كل موقف من مواقف التاريخ ذى التفصيل، الذى يخشى أن ينتهى بنا تتبعه إلى ضياع صورة الفيلم العامة وحكايته الشاملة المتتابعة.

عاشت جامعاتنا دائما- يقول استاذنا- بأمرين لا بديل عنهما فى حياة أى جامعة تدعى هذا الاسم العظيم، ألا وهما البحث بواسطة العقل وبواسطة العلم المتجرد عن حقائق الأشياء، والبحث بواسطة الضمير وعن طريق السلوك السوى فى الحياة عن ما هو حق وطيب وجميل فى حياة الإنسان. وتمثل هذا الجمع بين البحث عن الحقيقة والبحث عن الحق فى أن جامعاتنا ربطت، منذ أيامها السحيقة تلك، بين ما أصبحنا نصطلح الآن على تسميته بالعلم والإيمان: العلم بحقائق الحياة والخليقة من حولنا بما فيها حياة الإنسان، والإيمان بالخالق، وبكل ما حلى به خليقته من القيم والمثل ومعانى الحق والخير والجمال.

وعن قصة الشجرة يقول أستاذنا: «إن فكرة الجامعة فى مصر ازدهرت فوق أرضها فى بعض العصور، وضمرت فى بعضها الآخر لتعود مرة أخرى للإبهار فى دورات متعاقبة بدأت بجامعة « أون » قرب الدلتا، والتى اعتبرت أكبر مركز عرفه الإنسان فى مصر كصيغة

يمكن أن نعتبرها شبيهة بمدرسة اليوم، حيث جمعت بين فكر الدنيا وفكر الآخرة. واستمر هذا الأسلوب من التفكير والعمل على مر العصور، حيث استغرق ذلك حوالى خمسة آلاف سنة، وهى محصلة العهد الفرعونى وما قبله، وكان أن ارتبط كل هذا بنهر النيل العظيم وفيضانه ومستوياته، وبين نظام التقويم وحساب المواسم والشهور والأيام كما ارتبط كل ذلك بالفكر الرياضى والعمل الهندسي، حيث تزاوج ذلك كله، وتمازج مع الروح وتأملها وممارسة العبادات وربط الحياة الأولى بالأخرى فى مزيج كان هو خلاصة العلم بمعناه الأولى والأشمل والأعم، بل أيضا بمعناه، الذى سار عليه الفكر الجامعى خلال قرون عديدة جمعت فيها الجامعات التقليدية بين علم الدنيا وفكر الدين.

وتأتى مرحلتها الثانية، التى ارتبطت بجامعة الإسكندرية ومكتبتها العريقة حتى دخول الإسلام لمصر حيث أضحت مركزا ومقرا للعلم والفكر والحكمة، وهناك حدث تمازج بين الفكر المصرى مع فكر البحر المتوسط، فكان أن جمعت تلك المدرسة العظيمة بين الفلسفة اليونانية، وبين تراث مصر الدينى القديم، وفى مرحلتها الثالثة، التى أتت بعد مرور أكثر من ثلاثة قرون على دخول الإسلام لأرض الكنانة، بعد أن جاءت موجة جديدة من المغرب العربي، وهى الأرض التى سبق لمصر القديمة أن اتصلت بها فكرا وثقافة، وتوجت بإنشاء الأزهر كمنارة جديدة للعلم فى بر مصر كله وكثالث الجامعات فى تاريخ مصر بعد أون مصر القديمة، والإسكندرية فى عهد الرومان.

وتأتى المرحلة الرابعة، التى شهدت بداية النهضة العلمية الحديثة،

التى تواكبت مع عصر محمد على ثم، تلى ذلك إرهاصات الجامعة الأهلية، التى أدت لقيام الجامعة المصرية، والتى مضت فى مسيرتها ونموها مشعة بنورها على الشرق كله».

وكان ختام صاحب حديث الشجرة، كما يقول نقدا للذات، قام فيه بممارسة ما تعلمه من الجامعة أن قول الحق ورعاية سيرة الشجرة اقتضى أن يأتى هذا النقد، بكل ما يحمله من صدق وصرامة، خاتمة صادقة وصريحة لهذا الحديث عرض فيها لموضوعات ثلاثة يبدو أنها تقع على هامش العمل الجامعى بمعناه التقنى الضيق، ولكنها فى الواقع لا تبعد كثيرا عن صميم هذا العمل الجامعى، أو بعبارة أدق وأصح، فإن الجامعات لا تملك أن تغفل أيا من هذه الجوانب الثلاثة، التى تداخل عمل الجامعة، رغم أننا جميعا قد لا نواليها الاهتمام الواجب بدرجات متساوية، وهذه الموضوعات هى: الثقافة العامة فى عمل الجامعات، والديمقراطية فى اتصالها بإدارة الحياة الجامعية، ثم أخيرا السياسة، وما قد تجر إليه الجامعات والجامعيين من مقتضيات فى العمل السياسى.

بالفعل كان الدكتور سليمان حزين مثالا فريدا للعالم المتكامل، الذى كرس حياته لعلمه ولوطنه، عاشقا لأرض مصر الطيبة وأبنائها الأوفياء، وسيظل دائما واحدا من أبرز رواد الفكر والثقافة فى مصر القرن العشرين، وإذا كان لى من طلب، أو قل رجاء أن تقوم جامعة القاهرة أم الجامعات فى الشرق بالتصريح بطبع هذا الكتاب فى إطار مشروع القراءة للجميع ليقرأه جموع طلابنا فى شتى الجامعات

المصرية ليشهدوا لجيل الرواد بأنهم كانوا دائما يقرنوا القول بالعمل، وإننا لندعو للذين فارقونا منهم بالرحمة والمغفرة، والذين بين ظهرانينا الآن بطول العمر ودوام الصحة، فهم تيجان مصر ومفاخرها.

سوق عربية مشتركة للثقافة والتعليم
الجامعة المصرية والجامعة المغربية كمثال

جاء الإعلان العالمى للتعليم العالى فى القرن الحادى والعشرين، الذى صدر عن اليونسكو أواخر عام 1999 لينص فى ديباجته على أن الصعوبات والتحديات الكبرى، التى سيواجهها التعليم العالى فى هذا القرن تتمثل فى توفير التمويل اللازم، وتحقيق عدالة الفرصة التعليمية، وتطوير كفاءة الهيئة التدريسية، وتنمية البحث العلمي، وتحقيق استجابة البرامج الدراسية لحاجات المجتمع الفعلية، وإقامة تعاون دولى فعال، واستثمار تقنيات الاتصال فى إنتاج المعرفة، وإدارتها ونشرها والوصول إليها والتحكم فيها، بمعنى أن التعاون العلمى صار له دورا مهما وحيويا فى إقامة علاقات دولية وعالمية سواء بين الدول أو الأفراد، وفى هذا السياق قد يكون من المفيد أن نركز فى هذا المقال على خصائص العلاقات بين الدول اليوم والمكانة، التى تشغلها العلاقات العلمية والثقافية فيها، وكذلك محاولة متواضعة لرسم استراتيجية مستقبلية لهذه العلاقات بالنسبة للجامعة المصرية مع مثيلاتها من الجامعات العربية، وكمثال الجامعة المغربية.

وإذا كنا نعتبر أن عمليات التبادل الثقافى بين الدول المختلفة هى من أهم الأسس، التى يحتاجها أحداث نظام عالمى يقوم على الفهم المتبادل والحوار البناء، فإنه من المفيد أن تكون للثقافة والتعليم سوق مشتركة، تعمل على تنظيم التبادل العالمى للسلع التعليمية والثقافية، وفى رأيى فإن المؤسسات التعليمية، خاصة الجامعات تلعب دورا مهما فى تنمية العلاقات العلمية والثقافية بين المجتمعات المختلفة، كما يقع على عاتقها تنظيم جهود الأفراد من العاملين فيها والتنسيق بينهم بما يعطى لعملية التبادل الثقافى حجمها وقوتها.

وفى ظل الظروف، التى تعيشها أمتنا هذه الآونة نتيجة التحديات الحضارية، التى فرضها التقدم العلمى الهائل، والذى يسود العالم اليوم، ولكى نخرج من هذا المنحنى، فإن علينا كدول عربية أن نعد عدتنا لغد مشرق لا يستطيع العيش فيه إلا القوى، والقوة هنا تشمل كل مجالات التقدم العلمى والتقنى والعسكرى والثقافى وبات من المحتم على الدول العربية أن تقترب أكثر، فأسباب تقاربنا أكثر من الأسباب، التى تفرقنا، وبالرغم من التعاون الظاهر بين الدول العربية كل على حدة فى مجال تبادل الخبرات العلمية، إلا أنه مما قد يحد من زيادة فعالية هذا التعاون عدم أخذ الإطار العربى الشامل فى الاعتبار عند وضع خطط ومناهج أعداد العلميين فى كل بلد عربي، ومن ثم فإن هناك حاجة ملحة لإعادة النظر فى التوفيق بين هذه الخطط والمناهج لتأخذ فى الاعتبار الواقع المحلى لكل بلد عربى والواقع العربى بصورته الشاملة، وأنه لا مناص من أن تحاول الدول العربية اللحاق

بسرعة متزايدة بأحدث ما فى العلم، ويكون الاعتماد على القوة الذاتية لها مجتمعة والاستفادة من جميع الإمكانيات المتاحة فى العالم العربي. وهذا يتطلب وضع خطة للتنسيق والتعاون بين البلاد العربية، ما يتيح فرصا أفضل لتوفير الإمكانات اللازمة، والتى تتطلب جهودا كبيرة وتكاليف باهظة، مما قد لا يتاح توفيره لكل بلد على حدة، إما للظروف أو لنقص الأساتذة أو نقص الخبرة.

وهنا أتحدث عن بلدين تتميز علاقتهما بأنها علاقات مثالية ومتميزة على جميع الأصعدة ومختلف المجالات، أعنى مصر والمغرب، وأحسب أن لديهما قدرا عاليا من التآخى الثقافي، والفكري، والروحي، والعاطفي، وكمثال أتكلم هنا عن الدور المتعاظم، الذى يمكن ان تلعبه الجامعة المصرية مع الجامعة المغربية فى إطار التقارب بينهما، ومن خلال التنفيذ الفعلى لبروتوكول التعاون العلمى الموقع بين البلدين، ففى نفس الوقت، الذى يشهد فيه التعليم العالى بمصر محاولات جادة لتطويره، وتهيئة أفضل الظروف والإمكانات للانطلاق إلى مستقبل واعد، هناك حركة كبرى تعيشها الجامعات المغربية اليوم من أجل تطوير أدائها متتبعة قانونا جديدا صدر مؤخرا لتنظيم الجامعة المغربية، ومن خلال كتاب جديد صدر عن منشورات جامعة محمد الخامس-اكدال- التى تعتبر الجامعة الأم، والتى تفرعت منها الجامعات الأربعة عشر المتواجدة الآن فى أهم المدن المغربية، بعنوان: «العولمة والجامعة المغربية المتجددة»، ومؤلفه شخصية علمية رفيعة المستوى وهو الأستاذ الدكتور حفيظ بوطالب، رئيس جامعة محمد

الخامس-أكدال، ومعروف فى المغرب بأنشطته المتنوعة العلمية والثقافية وهو أستاذ الفيزياء بكلية العلوم فى نفس الجامعة، أنقل إحدى فقرات كتابه التى يقول فيها: أنه إذا كانت قضايا التعليم العالى والبحث قد أصبحت تحتل مكانة استراتيجية فى عصرنا الراهن، فإنها أصبحت مصيرية بالنسبة للعديد من الدول النامية لضمان حقها فى الوجود فى العشرينات المقبلة، ففى مواجهة ثورة تكنولوجيا الاتصال وشروط العمل وتعدد وتنوع المسارات المهنية و ضروريات التكوين المستمر، وقلب مفاهيم المعارف وطرق التعليم وفى مواجهة التحولات فى العلاقات بين الدولة والمقاولة والمجتمع، يجب أن يعيد التعليم العالي، وباستعجال، النظر فى أهدافه وأن يبسط تنظيمه، وأن هذه الإصلاحات هى التى ستحدد تأهيل المغاربة، وبالتالى ستحدد مستوى معيشة المغرب». ويؤكد فى فقرة أخرى أنه لأول مرة فى تاريخ المغرب، يطرح قانون يعنى بقضايا التعليم العالى ككل، من حيث هو تعليم جامعي، ومؤسسات عليا غير تابعة للجامعة ومؤسسات للتعليم العالى الخصوصى. إن أهمية هذا الطرح الشمولى تكمن، على الخصوص فى تدارك التفاوت الحاصل بين مؤسسات تكوين الأطر العليا غير التابعة للجامعة والمؤسسات الجامعية من حيث الهيكلة، فنحن نجد المؤسسات الجامعية خطت خطوات مهمة جدا من حيث الهيكلة، سواء على مستوى وحدات البحث والتدريس، أو على مستوى الشعب أو المؤسسات الجامعية».

وهنا يبدو أن المرحلة، التى يعيش فيها مجتمع التعليم العالى

فى المغرب الشقيق من تطوير ذاتى يعتمد على الخبرة المغربية، لا بد أن يكون هناك تطوير مهم للعلاقة بين الجامعة المصرية والمغربية فى الأداء والتعاون والتفعيل المستمر لبروتوكول التعاون فى التعليم والبحث العلمي، وكان لا بد ان تكون هناك وسائل لتجهيز المناخ العلمى المناسب لهذا التطوير، وتوفير أدوات عمل جيدة تساعد على هذا التطوير، وفى هذا المقام لا بد أن ننوه عن الدور المهم، الذى يقوم به المركز الثقافى المصرى بالرباط، حيث اعتبر العام 2003 هو عام الاتصال القوى بين الجامعات المصرية والمغربية، فقام من جانبه بتوجيه الدعوة لكل المؤسسات العلمية المغربية للمشاركة فى المؤتمرات العلمية، التى ستعقد فى مصر فى الأعوام 2003-2004 والتى زودنا بها الأستاذ الدكتور عبد الحى عبيد، أمين المجلس الأعلى للجامعات، كما تمت مخاطبة الجانب المغربى للحصول على قائمة بالمؤتمرات العلمية، التى ستعقد بالمغرب لإرسالها للجامعات المصرية، كما تفضل الأستاذ الدكتور نجيب الهلالى جوهر، رئيس جامعة القاهرة، بتوجيه الدعوة لعدد من رؤساء الجامعات المغربية لزيارة الجامعة ألام واستكشاف آفاق التعاون، بالإضافة إلى انه تم دعوة الجامعات المصرية الحكومية والخاصة منها للمشاركة فى معرض لمجموعة الطالب المغربى من أجل التعريف بالتعليم والتكوين وسبل تقوية التبادل الثقافى والعلمى بين البلدين، وهذه أول مرة يتم فيها دعوة مصر للحضور فى مثل هذه التظاهرات، والتى كانت تقتصر على الجامعات الغربية فقط، كما أن المركز قدم مثالا حيا لتأكيد

دوره فى تدعيم العلاقة بين الجامعة المصرية والمغربية بإقامته أياما ثقافية فى رحاب عدد من الجامعات المغربية للتعريف بالتعليم فى مصر، وكذلك تعريف الطلاب بما يدور فى مصر من تطوير فى شتى المجالات. إذن الفرصة سانحة لجعل التعاون العلمي والثقافى للبلدين فى أعلى مستوى فى تآزر وتكامل ووحدة اتجاه، وبالتالى نستطيع مواجهة التحديات، التى تعترض طريقنا ونلحق بقطار التقدم العلمى والتكنولوجي.

«من عطور مصر القديمة إلى المركز الدولى لمصر فى عيون ابن بطوطة»

فى شهر واحد، وهو شهر مايو 2004 شهد المغرب حدثين مهمين قدمهما المركز الثقافى المصرى بالرباط، أولهما معرض عطور مصر القديمة، أو اكتشاف العطر، الذى أقيم على مدى شهر كامل بالتعاون مع المعهد الثقافى الفرنسى بالرباط، أما الحدث الثانى، فكانت الندوة الكبرى، التى أقيمت بمناسبة مرور 700 عام على ميلاد الرحالة المغربى ابن بطوطة، والتى قام فيها بزيارة طويلة إلى مصر تحدث عن أهم مدنها وخصائصها، فكان بحق شهرا مثيرا جمع بين مصر القديمة ومجدها العلمى، وبين مصر ودورها الدولى فى العصور الوسطى أثناء رحلة ابن بطوطة.

أما عن الحدث الأول، وهو المعرض، الذى أقيم فى رحاب المركز الثقافى المصرى فى الفترة من 4-29 مايو بالتعاون مع المعهد الفرنسى بالرباط وافتتحه السفير أشرف زعزع، سفير مصر بالمغرب، وعدد من السفراء العرب وممثلين عن السفارة الفرنسية بعنوان «عطور مصر أو اكتشاف العطور « PARFUMS D EGYPTE OU LA «DECOUVERTE DES PARFUMS

فقد تم تقديمه عبر مجموعة من الصور والبوسترات، التى تظهر دور المصريين القدماء، وفنونهم فى مجال العطور ومستحضرات التجميل والزينة، إضافة إلى مختلف الاستعمالات فى مجال العطور والصيدلة والطقوس الدينية، ويتحدث أيضا المعرض عن اهتمام المصريين قبل ميلاد المسيح بكيمياء العطور ومواد التجميل المستعملة اليوم، والتى تقوم بانتاجها كبريات دور التجميل العالمية، كما يلقى الضوء على تلك المراهم المنعشة للجلد والدهانات العلاجية والمراهم المضادة للتجاعيد وأدوات الزينة، والشعر المستعار. هذا وأدت البحوث، التى انطلقت من مركز البحث وترميم المتاحف الفرنسية ومركز لوريال بفرنسا عندما قام بتحليل المعادن والمواد الدهنية المكونة للمساحيق المحفوظة فى قسم الآثار المصرية القديمة بمتحف اللوفر، أقول أدت إلى اكتشاف أن هذه المساحيق لم تكن فقط مساحيق المعادن المختلفة، مثل كربونات وكبريتيد الرصاص، ولكن أضيف إليها مواد لينة دسمة تساعد فى صنع دهانات ومساحيق بنفس نسب المراهم الحديثة، بل وأفضل منها، مما جعل لها فضائل علاجية فى التطهير وإبادة الجراثيم، ومن المعروف أن استعمال تلك المواد المعطرة من قبل المصريين القدماء جاء كعلامة على التدين وقربان للآلهة.

واتجهت البيوت العالمية للتجميل فى هذا العصر لاستخدام نوع من الطين تتوافر فيه العناصر الطبيعية والمعدنية سهلة الامتصاص لعمل أقنعة للبشرة لتقويتها، والمحافظة على نضارتها

وليونتها وصفائها، كما كانت المرأة المصرية تستخدم قناع عسل النحل ومطحون الحلبة والأعشاس، وعندما أدركت أن بشرتها تحتاج لرعاية واهتمام أكبر استخدمت الكثير من الزيوت النباتية لترطيبها وتغذيتها كزيت (البابونج)، الذى بدأت بيوت التجميل فى استخدامه الآن كعنصر أساسى للعديد من أقنعة البشرة المغذية، والتى ليس لها آثار جانبية، كما استخدمت المرأة الفرعونية زيت الخروع وزيت زهرة اللوتس، وهما يستخدمان حالياً على نطاق واسع للعناية بالبشرة الدهنية، أما زيت الحلبة، الذى أثبتت التجارب فاعليته فى مقاومة التجعيد والقضاء على النمش، فقد استخدمته الملكة ((كليوباترا)) للعناية ببشرتها، والحفاظ على شبابها.

أما الحدث الثانى، الذى شهدته مدينة الرباط على أرض المركز الثقافى المصرى، فهو تلك الندوة المهمة بعنوان «مصر فى عيون ابن بطوطة» بمناسبة مرور 700 عام على ميلاد الرحالة المغربى الكبير ابن بطوطة، والتى نظمها المركز يوم الخميس 20 مايو بدعم من منظمة الايسيسكو ووزارة الثقافة المصرية، ودعى إليها من مصر د.حسين نصار أستاذ الادب العربى بكلية آداب القاهرة، والحائز على جائزة فيصل فى الآداب هذا العام، ومن المغرب كلا من الأساتذة د.عبد الهادى التازى، ود.محمد بن شريفة، عضوا أكاديمية المملكة المغربية، وحضرها السفير المصرى أشرف زعزع، وعدد من السفراء العرب المعتمدين لدى المملكة، كما حضرها الدكتور عباس الجيرارى، مستشار جلالة الملك محمد السادس، وفى أمسية ثقافية بدأت

بعرض قدمه كاتب المقال لمدة عشر دقائق على جهاز عرض المعلومات حكى فيها تفاصيل رحلة ابن بطوطة إلى مصر أفرد فيه العديد من الصور لما رآه ابن بطوطة خلال رحلته إلى مصر.

ثم كانت البداية بمداخلة د.حسين نصار، الذى اعتبر من جهته، أن الرحلة كانت أمرا طبيعيا عند العرب، الذين عرفوا الرحلات البرية، «الجزيرة العربية»، والبحرية «البحرين وعمان»، وكذا الرحلات الدينية والاقتصادية والعلمية والإدارية، ولعوامل شخصية أو حتى خيالية مما جعل الأدب العربى من أغنى الآداب بفن الرحلة، كما اعتبر د. حسين نصار أن من أهم أسباب تيسير الرحلات الشعور بالأخوة وحث الإسلام على السفر للحج وطلب الرزق وتخفيفه الأعباء الدينية على المسافر ويسر الزواج خلال السفر وانتشار اللغة العربية، ومما لفت نظره فى رحلة ابن بطوطة تأكيده على ضبط أسماء الأماكن والأعلام من أمراء وأعيان وعمائر المدن ومساحتها وموقعها وإنتاجها وطيورها وحيواناتها ومقابرها ومآثرها، مشيرا إلى شك الباحثين والمحققين، حاليا فى ثناء رحلة ابن بطوطة على كل مدينة كبيرة يصفها، إذ اعتبروا أنها قد تكون من وضع ابن جزي، الذى كتب ما أملاه عليه الرحالة المغربي، كما أشار إلى أن ابن بطوطة ربما لم يشاهد الأهرام بتاتا، وأن وصفها فى »الرحلة» قد يكون من وضع ابن جزى لأنه وصف غير دقيق.

وفى مداخلة بعنوان «مصر القاهرة فى عيون الرحالين المغاربة»، أكد الأستاذ محمد بن شريفة، من جانبه، أن عددا كبيرا من

الرحالين المغاربة من أمثال ابن رشيد السبتي، والقاسم السبتي، والبلوي، والناصري، والعياشى اهتموا أساسا لدى حلولهم بأرض مصر بلقاء العلماء، وانبهروا بفخامة القاهرة وكثرة ساكنيها وتعدد عجائبها، وأضاف بن شريفة أن هؤلاء الرحالين توقفوا أيضا عند المارستانات، والقرافات «مدينة الموتى»، كما أسماها المستشرق ماسينيون، والتى اعتبرها الرحالة ابن جبير إحدى عجائب الدنيا، كما توقفوا عند الزوايا، الخوانق، التى يأوى إليها الحجيج وأبناء السبيل وطلاب العلم، والتى يهتم بها الأمراء والأعيان بالحرص على إطعام وكسوة وراحة مريدى كل طائفة من الطوائف، التى تشكلها. وأشار إلى حديث الرحالة المغاربة عن أماكن التنزه فى الأعياد لدى المصريين ومضغ قصب السكر والحلويات، وغيرها مما لم يكن مألوفا فى بلادهم، منتقدين على الخصوص نظام الجمارك، الذى كان متبعا بالإسكندرية، الذى كان يعرضهم للتفتيش «حالة ابن جبير مثلا«.. كما تحدث د. بن شريفة عن وصف الرحالة المغربى القديم أبو حامد لمسلات عين شمس، التى تعود للحقبة الفرعونية من تاريخ مصر، والتى تحظى حاليا إلى جانب أهرام الجيزة وسقارة ومنارة الإسكندرية باهتمام أوفر مما عداها. كما تحدث عن وصف الحسن الوزان الفاسى الدقيق فى كتابه «وصف مصر» للمكارين الذين يعيشون من كراء الحمير المدربة على أن تمشى هونا، والمخصصة لركوب الأعيان، مشيرا إلى أن وصف الرحالة ابن سعيد المغربي، القرن السابع الهجرى لمشاهداته بمصر تراوح بين الإعجاب والنقد.

وأخيرا كانت مداخلة الدكتور عبد الهادى التازى بعنوان «المركز الدولى لمصر من خلال رحلة ابن بطوطة»، حيث تحدث قائلا: إن الرحالة المغربى ابن بطوطة لم يكن مجرد رحالة يجوب الأرض، ولكنه كان بمثابة سفير متنقل لبلاده، يعرف بها، ويحمل إليها ما جد من تطورات فى الجهات الأخرى، خاصة فى دولة المماليك بمصر التى كانت حليفا قويا للمملكة المغربية، مشيرا إلى التشابه القوى بين التاريخ القديم لمصر وبلاد المغرب، وقال التازي: إن ابن بطوطة استعرض مظاهر الدولة الكبرى فى مصر والتى كانت تتجلى فى مؤسساتها الحضارية والعمرانية، وفى تنظيماتها السياسية المحكمة، وفى توفيرها الأمن الوطنى والغذائى والثقافى أيضا على مدى مساحة واسعة عريضة، وأضاف: أن هذه المظاهر كانت تتجلى أيضا فى الجانب السياسى، الذى كان يظهر بصفة واضحة فى البعثات الديبلوماسية، التى كانت ترسلها مصر إلى الجهات الأخرى أو تتقبلها من الجهات النائية، حيث ازدهر ما أسماه بالأدب الإدارى للدولة. وفى هذا الصدد، ذكر د. التازى أمر الرسائل، التى كانت مصر تتبادلها مع الأمم الأخرى، خاصة مع المغرب، مما توجد نصوصه فى المصادر الأساسية، وأشار إليه ابن بطوطة فى معرض حديثه عن مقاومة الدولة المصرية للتحديات، التى تهددها من قبل التتر على نحو ما كان المغرب يقوم به من كفاح ضد حركات التوسع، التى ظهرت ضده من لدن مملكة قشتالة، كما تحدث الباحث عن وسائل الاتصال السريع، التى كانت متوافرة فى مصر انطلاقا من الحمام الزاجل، الذى كان يحتاج إليه فى بعض

الظروف الصعبة، وانتهاء بالبريد، الذى يعتمد على السير مذكرا بأهمية سرعة النبأ فى بناء الدول عبر التاريخ باعتبار أن الدولة هى الاتصال، والاتصال هو الدولة، مشيرا إلى رواق المغاربة بالأزهر الشريف، الذى اعتبره مركزا ثقافيا للمغرب فى مصر، وأشار التازى إلى أن ابن بطوطة لم يقتصر فى حديثه حول مصر على ما كان يراه هو بهذا البلد، ولكن على أصداء مصر فى الجهات، التى كان يزورها مقدما ملك مصر على أنه أحد الأقطاب السبعة، الذين كانوا يحكمون عالم الأمس إلى جانب ملوك المغرب والعراق والهند والصين وخوارزم وتركستان، ودعا المحاضر إلى وجوب الاستفادة من رحلة ابن بطوطة لكتابة تاريخ العرب مبرزا حاجة الرحلة الماسة إلى فيلم من مستوى رفيع يليق بعظمة الرحلة وصاحبها، الذى أصبح تراثا عالميا يحظى بالتقدير والإكبار من الجميع مشيرا إلى مصداقية ابن بطوطة فيما كان يرويه، إذ أن الحقيقة تكشف يوما عن يوم أنه كان قمة فيما يسجله من أحداث، خاصة ما يتعلق بالتاريخ الدولى لدار الإسلام فى العصر الوسيط.

الفيلسوف المغربى طه عبد الرحمن

وحوار حول ما يجب أن تكون عليه الترجمة العربية

سعيا نحو تحقيق الاتصال والحوار بين الثقافات عبر المراكز الثقافية المختلفة، وإيمانا منا بالدور الفعال، الذى يقوم به المركز الثقافى المصرى بالمغرب نحو نشر الثقافة ورقى الفكر وتنمية القيم الإنسانية والروحية، فقد شهد المركز يوم الجمعة الماضى فى إطار الصالون الثقافى، الذى ينظمه بصفة غير دورية ويدعو فيه رموز الثقافة والفكر والسياسة فى كل من مصر والمغرب لحديث من القلب لرواده ومثقفى المغرب الشقيق، حيث كان اللقاء السادس مع المفكر المغربى الدكتور طه عبد الرحمن، أستاذ الفلسفة فى جامعة محمد الخامس بالرباط، فى حوار حول الترجمة ودورها فى تحديث الفكر العربى، وقدم كاتب المقال عرضا على جهاز عرض المعلومات تضمن تعريف بالصالون وضيوفه، ثم تعريف عن ضيف الصالون، وإنتاجه وما قدمه للفلسفة والمنطق من جديد.

وبدأ الفيلسوف المغربى حديثه بتوجيه التحية للمركز الثقافى، وأشاد بفضله على الباحثين المغاربة، وأنه ساعد على مر السنين منذ

إنشائه عام 1957 على بناء جسور العلاقات المصرية المغربية على أرسخ القواعد.

ثم استأذن الحضور للحديث فى موضوع ما فتئ يشغل المثقفين على اختلاف توجهاتهم، ألا وهو الترجمة ودورها فى تحديث الفكر العربى، ومقاربة هذه الصيغة من زاويتين، إحداهما تاريخية تتعلق بالواقع الفعلى للترجمة فى البلاد العربية، والتى انطلقت فى مصر بفضل مدرسة الألسن، التى انشأها محمد على باشا باقتراح من رائد الترجمة الحديثة رفاعة الطهطاوى، والزاوية الثانية هى زاوية فلسفية تتعلق بما يجب أن تكون عليه الترجمة فى البلاد العربية لا بما هى عليه فى الواقع، وأن ذلك يقتضى الاشتغال بنقد المفاهيم والمسلمات الجوهرية، التى قامت عليها التجربة الحديثة فى هذه الترجمة، وما هى التصورات الجديده لدور الترجمة فى النهوض بالفكر العربى، وحدد د. طه عبد الرحمن أطوارا ثلاثة فى نقده لتلك التجربة، وهى نقد مسلماتها، ونقد مفهوم التحديث، ثم نقد مفهوم الترجمة.

أما عن نقده لمسلمات التجربة، فيقول د. طه عبد الرحمن أن نقد التجربة العربية الحديثة فى الترجمة يبنى على ثلاث مسلمات أولها المماثلة بين تجربتين عربيتين فى الترجمة، معتبرا إياها غير ذات أساس لكون التجربة الأولى، والتى تمت فى إبان النهضة الإسلامية، والتى قامت على أكتاف العباسيين هى فعلا اختياريا من موقع قوة ناجم عن رغبة تحقق الذات، حيث قامت، وترجمت نصوصا لحضارة غابرة

تخيرتها بما لا يناقض الروح، التى تشبعت بها الروح العربية، أما التجربة الثانية، التى نحن بصددها اليوم، فاعتبرها فعلا اضطراريا انفعاليا يسيطر عليه شعور حاد بالتخلف وتنقل نصوص حضارة قائمة بيدها أسباب صنع التاريخ الإنسانى تتهافت عليها دونما مراعاة لما يضر الروح العربية من عدمه.

أما ثانية هذه المسلمات، حسب قوله، هى اعتباره أن تعدد المترجمين فيه ضياع للجهد ووجه بطلانها أولا أن الترجمة لا تستنفد الأصل ولا تكافئه، بل أن المترجم قد يترجم النص أكثر من مرة، وثانيا أن الترجمات تتغير حسب الحاجات والأزمان، وثالثا أن المترجمين ليسوا صنفا واحدا، بل يصدرون عن تصورات مختلفة للترجمة، ويتبعون فيها طرقا مختلفة.

أما ثالثها فهى مسلمة الترجمة الواحدة للمترجم الواحد، التى تقرر أن لا فائدة فى تكرار المترجم لنفس الكتاب، وأن التنقيح لا يعد ترجمة أخرى، وهى معترض عليها لكون الترجمات تختلف باختلاف فئات المتلقين، وأن الترجمات تختلف باختلاف مستويات تكوين المتلقى الواحد، وأن كل مترجم لديه بالقوة أكثر من ترجمة ممكنة للنص الواحد.

وفيما يتعلق بنقد الحداثة قال طه عبد الرحمن: إن هذا المفهوم يأتى بمعنى التجديد، والحال أن العربي، الذى يشتغل بتجديد فكره لا يجددها من عنده ولا بالوجه، الذى يريد، وبيان ذلك أولا أن عملية التجديد هذه

ينبغى أن تتم بواسطة الأفكار التى يقتبسها من إبداعات الثقافات الأخرى اعتبارا لكونها سببا فى تقدم وتحضر أهلها وحداثتهم، وثانيا أن هذه الأفكار المقتبسة تصبح بين يديه نماذج مخصوصة عليه أن يحتذى حذوها فى تجديد الفكر العربى لينال نصيبا من الحداثة لاحقا بعصره، وبهذا يكون هذا التجديد خارجيا، ويبدو أقرب إلى الوهمى منه إلى الحقيقى لورود مجموعة من الشبه عليه أجملها د. طه عبد الرحمن، فى الخلط بين ما يستحق، وفى ضعف الاستدلال على الاقتباس والمماثلة الساذجة بين أطوار المجتمعات العربية والمقتبس منها حتى ينتهى إلى أن يحدد له المقتبس عنه الجديد، الذى ينبغى اقتباسه، ويبدأ فى اقتباس كل شيء، وهنا يتخلى عن تراثه لتراث غيره وينتج عنه أن تتميع الهوية.

وعند حديثه عن الهوية، فقد قسمها إلى ثلاثة أقسام: « الصلبة»، التى تنظر إلى الذات بعين الذات، وإلى الغير بعين الذات، و « اللينة »، التى تنظر إلى الذات بعين الغير، وإلى الغير بعين الذات، واخيرا «المائعة »، التى تنظر إلى الذات بعين الغير، وإلى الغير بعين الغير ويخلص إلى أن من يقتبس فكر غيره ويداوم على هذا الاقتباس لا حظ له إلا من هذا النوع الثالث من الهوية، وأن أى أخذ ليس معه عطاء لا يكون إلا تقليدا وأن التشبه، الذى ليس معه إبداع لا يكون إلا محاكاة، وحينها لا يكون تجديد الفكر العربى حقيقيا وإنما وهميا.

ويخلص الفيلسوف المغربى د.طه عبد الرحمن إلى نتيجة مفادها أن الاقتباس من خارج الفكر العربى لا يجدى فى تجديده، ولما كانت

الترجمة النموذج الأمثل للاقتباس الخارجي كانت أولى ألا تجدى في هذا التجديد، مؤكدا أن هذه النتيجة يؤيدها على غرابتها كون التجربة العربية الثانية في الترجمة، التي تتواصل منذ القرن التاسع عشر لم تثمر تجديدا بالرغم من اختلاف المفكرين العرب بين من يعزو ذلك إلى كثرة الترجمة ويرجع إلى إغفالهما معا للركن الأساسي في الترجمة، وهو الطريقة المتبعة فيها، بحيث إذا كانت الطريقة المتبعة فيها فاسدة، فإنه مهما أكثرنا من الترجمة أو طولنا زمنها، فلن نحصل القدرة على الإبداع، أما إذا كانت الطريقة صالحة، فالقليل من المترجمات والقصير من زمن الترجمة قد يزود بالقدرة على الإبداع.

واستطرد د.طه بقوله إنه إذا لم تنفع الترجمة في تجديد الفكر العربي، فليس مرد ذلك قلتها أو كثرتها، وإنما لأن الطريقة، التي اتبعت فيها، وما تزال تتبع هي غير قادرة على أن تورث المترجمين القدرة على الإبداع والعطاء، ولن تفعل إذا لم تستطع أن ترتقي بالنقل الخارجي إلى رتبة الإنشاء الداخلي.

ومن أجل تحقيق النجاح في تجربة الترجمة الحديثة، فأكد أنه لا ترجمة بدون أن يكون هناك هدف محدد ينبغي أن يضاهي الهدف، الذي يتوخاه المؤلف من تأليفه، موضحا أن الترجمة على ثلاثة ضروب: ترجمة البنى المنطقية ولا تترجم إلا ما يختص به النص وتترجم الحجج والأدلة وتدرب المتلقي العربي على الإبداع باستئناسه بطرق استدلال الآخرين والتوسل بنفس الوسائل لإنتاج ما يضاهي ما أنتجوه، والثانية: هي الترجمة الدلالية التي تترجم البنى المعنوية

المستخدمة لأداء البنى المنطقية، وتقوم على الاجتهاد فى نقل كل المعانى (المعنى فى العربية يحيل على المدلول والقيمة فى آن)، متمسكا بالحرفية الدلالية، ومطلعها المتلقى على ما يختص به المؤلف من خصوصية دلالية وقيمية، وبالتالى يستطيع الاستقلال عنه، والترجمة التركيبية، التى تترجم البنى النحوية، التى توسلت بها البنى الدلالية.

وأطلق د. طه عبد الرحمن على هذه العملية أنها استكشاف للبنى المنطقية والدلالية والتركيبية، التى أنتج بها النص الأصلى ليستأنس بها المتلقى العربى ويتدرب على الإتيان بمثلها. ومن ثم دعوته إلى « الترجمة الاستكشافية» كمدخل للإبداع والابتكار والتجديد مقابل « الترجمة الاستنساخية» القائمة على عقدة العجز أمام الآخر والتى تحول دون تحديث الفكر العربي، وأكد أن هذا الضرب من الترجمة يقلب الآية، ويصبح المقام الأول للدليل، ثم للمعنى، ثم للتراكيب لأنه لا مجال للإبداع إلا بتحصيل الأدلة.

ولم ينته الصالون إلى هذا الحد، بل تبعته مناقشات طويلة أثرت الأمسية الثقافية، وشهدت أكثر من عشر مشاركات جادة من نخبة من أساتذة الترجمة، واللغة فى الجامعات المغربية.

وثيقة إنشاء الهيئة الإسلامية للأخلاقيات في مجال العلوم والتكنولوجيا

أثار موضوع أخلاقيات البحث العلمى الكثير من الجدل فى الآونة الأخيرة على النطاق العالمى وكذلك المحلي، والمتابع للمؤتمرات المتخصصة، التى عقدت خلال السنوات العشر الأخيرة، وكذلك اللجان، التى تبحث فى نفس الموضوع على المستوى العالمى يجد أن كثيرا من الموضوعات المثارة تمثل رؤية عامه للموضوع تخص دول العالم أجمع، ففى ظل الثورة العلمية والتكنولوجية، التى تجتاح العالم اليوم، وهذا التطور الهائل فى مجال المعلومات والاتصال، والتطور الحادث فى مجموعة علوم الرياضيات والإلكترونات والجينات والهندسة الوراثية، أقول إن التفوق الحضارى والاقتصادي، بل والعسكرى لم يعد يقاس بالمعايير التقليدية القديمة، بل لقد نشأت معادلة جديدة للتقدم تعتمد فى الأساس على طبيعة وأخلاقيات القوى البشرية، ومدى تقدمها وقدرتها على استيعاب واستخدام مفردات الثورة العلمية والتكنولوجية والتعامل مع هذه الأخلاقيات والضوابط الواردة، ولن نبالغ بأن هذا الإجماع من المتخصصين فى

قضايا التنمية على أن أخلاقيات القوى البشرية هى أهم عامل فى التنمية الشاملة، وهى المؤشر الفاصل بين التقدم والتخلف فى عالم اليوم، فالأخلاقيات هى التى ستدفع عجلة العلم والتكنولوجيا إلى خير الإنسانية، وتدفع عجلة الدين إلى سبيل الهدى والرشاد، ولكى لا ينحرف الناس عن الدين فتهتز قيم الأخلاق وتتقوض صروح الحضارة.

وأدى الجهد، الذى بذل دوليا خلال الفترة السابقة إلى إلقاء الضوء على كثير من المجالات العلمية والتكنولوجية، التى يجب ان يتنبه العالم إلى المخاطر التى قد تنجم عن سوء استخدامها، ومن تلك المجالات الطاقة الذرية والهندسة الوراثية، ونقل الأعضاء وثوره المعلومات والاتصالات وسوء توزيع المياه العذبة والتدهور البيئى والتلوث بجميع أشكاله وغير ذلك من المجالات، التى يمكن أن تمثل تهديدا لأمن وحقوق الدول والفقيرة منها على وجه الخصوص، مما سيكون له أكبر الأثر على الأجيال القادمة.

وفى تطور بالغ الأهمية دعت المنظمة الإسلامية للتربية والثقافة والعلوم (الايسيسكو) لعقد الاجتماع الأول للجنة الخبراء لدراسة مشروع وثيقة إنشاء الهيئة الإسلامية للأخلاقيات فى مجال العلوم والتكنولوجيا فى الفترة من 14 15 يوليو 2003 فى الرباط عاصمة المملكة المغربية، وافتتحه الدكتور عبد العزيز التويجرى، مدير الايسيسكو، ووزراء التعليم العالى والأوقاف والبحث العلمى بالمغرب، كما حضره السفير أشرف زعزع، سفير مصر بالمغرب وكاتب المقال، وضم الاجتماع خبراء يمثلون خمسة عشر دولة من الدول الأعضاء

فى المنظمة، ومثل مصر الأستاذ الدكتور إبراهيم بدران، وزير الصحة، ورئيس جامعة القاهرة، ورئيس أكاديمية البحث العلمى والتكنولوجيا الأسبق، الذى انتخب بإجماع الحضور رئيسا للاجتماع تقديرا لخبراته الواسعة فى هذا المجال.

وجاء فى كتاب الدعوة للاجتماع، الذى أصدرته منظمة الايسيسكو إنه نظرا إلى التقدم الهائل والسريع، الذى حدث، ويحدث فى مختلف العلوم، والطابع العالمي، الذى أخذته البحوث العلمية فى السنين الأخيرة والإمكانات المالية الضخمة، التى تستثمر فى مجالات البحوث والمصالح المشتركة للعلماء، والمؤسسات المالية والعلمية فى الاستثمار الأمثل لهذا التقدم العلمي، فأصبح لزاما أن يكون هناك منظر أخلاقى وضوابط قانونية تنظم وتحكم مثل هذا التقدم، ونظرا لاختلاف القوانين فى مختلف البلاد أصبح هناك حاجة ماسة لمفهوم عالمى للضوابط والأخلاقيات، التى تنظم مثل هذه الأمور فى البلاد المختلفة بغض النظر عن الخلفية الثقافية أو الاجتماعية أو الدينية لهذه البلاد، وكان أن أنشئ فى العالم الغربى العديد من المؤسسات الأخلاقية، التى تنظم البحوث والممارسات فى العالم الغربي، وعدد قليل منها فى العالم الإسلامي، ولأن مصادر الشريعة الإسلامية الأولى، وهى القرآن الكريم والسنة النبوية المؤكدة نصت وشجعت، بل وأمرت منذ أكثر من ألف عام على اتباع القواعد الأخلاقية الأربعة، وهى احترام حرية الفرد والعدالة، وعمل الخير وعدم فعل الشر فقد كانت هناك محاولات عديدة فى بعض البلاد الإسلامية لعقد المؤتمرات

الدولية، التى تناقش المشاكل الأخلاقية، خصوصا فى العلوم الطبية والبحوث والإخصاب الطبى المساعد وخلافه، كما كان هناك حوار جاد فى بعض البلاد الإسلامية لإنشاء لجان الأخلاقيات لمناقشة المشاكل الشائكة أخلاقيا ومراجعة البحوث الطبية من النواحى الأخلاقية قبل إقرارها.

وعلى مدى يومين من المناقشات المفيدة والعميقة، خرج المجتمعون بمجموعة من التوصيات منها:

- التأكيد على الحاجة إلى إنشاء هيئة إسلامية للأخلاقيات فى مجال العلوم والتكنولوجيا.
- إبراز الأهمية، التى يكتسبها توحيد الرؤى بالدول الأعضاء فى منظمة المؤتمر الإسلامى بشأن مختلف القضايا فى مجالات العلوم والتكنولوجيا من منظور الشريعة الإسلامية.
- دعوة الهيئات العلمية والمنظمات غير الحكومية ومعاهد البحث والعلماء على الصعيد الدولى وعلماء المسلمين إلى وضع ميثاق سلوك مشترك يضمن انسجام التطورات العلمية مع القيم الإسلامية.
- دعوة الهيئات العليا المعنية فى الدول الأعضاء إلى دعم إنشاء الهيئة الإسلامية للأخلاقيات فى مجال العلوم والتكنولوجيا.
- دعوة الدول الأعضاء إلى تعزيز دور الهيئات القائمة العاملة فى مجال أخلاقيات العلوم والتكنولوجيا.
- التوصية بإنشاء مجموعات متخصصة فى أخلاقيات العلوم فى عدة مجالات مهمة كالبيئة والطب وتكنولوجيا المعلومات

والطاقات المتجددة.

- التأكيد على دعم التعاون والتنسيق مع المنظمات الإقليمية والدولية العاملة فى مجال أخلاقيات العلوم والتكنولوجيا.
- حث المؤسسات التعليمية على إدماج الأخلاقيات فى مجال العلوم باعتبارها جزءا لا يتجزأ من برامج التربية والتكوين.
- نشر آراء الهيئة الإسلامية لأخلاقيات العلوم والتكنولوجيا على نطاق واسع.
- الإشادة بمساهمة الدول الأعضاء المتمثلة فى تقديم مقترحات لإغناء الوثيقة والمشاركة فى إعداد صيغتها النهائية، وتعيين ممثليها فى الهيئة الإسلامية للأخلاقيات فى مجال العلوم والتكنولوجيا، ودعوة بقية الدول الأعضاء إلى المبادرة بتعيين ممثليها فى أقرب الآجال.
- التنويه بمبادرة المدير العام للمنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والتكنولوجيا ايسيسكو- لإنشاء الهيئة الإسلامية للأخلاقيات فى مجال العلوم والتكنولوجيا.
- واخيرا المصادقة على الصيغة النهائية لمشروع وثيقة إنشاء الهيئة الإسلامية للأخلاقيات فى مجال العلوم والتكنولوجيا والتوصية برفعها إلى المؤتمر الإسلامى الثانى لوزراء التعليم العالى والبحث العلمي.

أيام طه حسين فى المغرب[1]

فى 20 يونيو عام 1958 أعلن فى وسائل الإعلام بالمغرب، ومصر أن عميد الأدب العربى الدكتور طه حسين سيصل إلى المغرب بدعوة من وزارة الشئون الخارجية المغربية لالقاء سلسلة من المحاضرات بالمدن المغربية.

وفى يوم الثلاثاء الموافق 24 من يونيو عام 1958 وصل العميد إلى طنجة فى محطته الأولى عبر جبل طارق، وبصحبته زوجته السيدة سوزان، وكاتبه الخاص فريد شحاتة، حيث استقبله عامل، (محافظ)، طنجة فى ذلك الوقت الدكتور عبد اللطيف بن جلون، والدكتور عبد الهادى التازى.

وهكذا بدأت أيام طه حسين بالمغرب، والتى كانت كما يصفها المؤرخ والمفكر المغربى الكبير الدكتور عبد الهادى التازى فى كتابه «طه حسين فى المغرب»، أيام عرس أدبية وعلمية، حيث تصدرت الصفحات الأدبية والثقافية المغربية مقالات الترحيب بمقدم العميد، وقالت إحدى هذه الصفحات: «لقد انشرح صدر المغاربة بهذه المناسبة السعيدة، التى شاهدوا فيها الرجل، الذى لا يذكر

---

1 - بمناسبة الذكرى 28 لوفاة عميد الأدب العربى الدكتور طه حسين 13 نوفمبر 2001

التجديد إلا كان اسمه على كل لسان، إن الدكتور طه حسين شغل حيز الأدب العربى بجهاده، وأسدى إلى العرب جليل الأعمال بأفكاره وتوجيهاته النيرة، وبمؤلفاته وأبحاثه ومحاضراته العديدة»

وفى صباح يوم الخميس الموافق 26 يونيو 1958 قام العميد بمقابلة صاحب الجلالة المغفور له الملك محمد الخامس بحضور الوزير الأول المغربى أحمد بلا فريج والسفير المصرى أسعد محاسن، حيث خاطبه جلالته قائلا: «إننا نرحب فى شخصكم بعالم من أعلام الفكر العربى فى العصر الحاضر، والمغرب متشرف بزيارتكم، التى كان يتمناها منذ أمد طويل لمشاهدة ما يبذله من جهود فى سبل البناء والانبعاث»، وأجاب عليه العميد قائلا: «إننى متأثر جدا يا صاحب الجلالة بهذه المقابلة، التى أنعمتم على بها ولى الشرف العظيم بالمثول بين يدى جلالتكم.. أنتم الذين قدتم معركة التحرير فى المغرب، وعانيتم كثيرا من التضحيات والمشاق فى سبيل إسعاد الشعب المغربي، والكل يعترف بالفضل العظيم، الذى طوقتم به جيد العروبة بكفاحكم واستبسالكم إلى جانب الشعب المغربى الأبي»، ثم قام جلالته، وقلد العميد وسام الكفاءة الفكرية، وهو أعلى وسام مغربى خصص لذوى الكفاءة من العلماء والأدباء، ويقلد لأول مرة بعد الاستقلال، ويعتبر الدكتور طه حسين أول من قلد هذا الوسام.

وعلى مدى أسبوعين قضاهما العميد فى ربوع المغرب تنقل فيها من مدينة إلى أخرى مشيعا بنفس ما استقبل به من ترحاب وحب وود حميمين كعادة أهل المغرب، قام بإلقاء أربع محاضرات فى مدن

الرباط والدار البيضاء وفاس وأخيرا تطوان تراوحت مواضيعها بين الأدب العربى ومكانته بين الآداب العالمية، والأدب العربى فى مصر قديما وحديثا، ومشاكل الأدب العربى بعد الإسلام، ثم أخيرا مشاكل الأدب العربى على عمومياته.

وفى 29 يوليو عام 1958 نشرت جريدة الجمهورية مقالا بقلم الدكتور طه حسين بعنوان: «أرض البطولة» حكى فيه تفاصيل رحلته ومشاعره وانطباعاته عن تلك الرحلة التاريخية بدأه بقوله: «لم تكد السفينة تبلغ مرساها فى جبل طارق حتى رأينا أنفسنا محاطين بمجموعة كريمة من المغربيين والمصريين قد تفضلوا، فأقبلوا للقائنا وأبى عليهم كرمهم أن ينتظرونا فى المغرب، فعبروا المضيق أو الزقاق- كما كان القدماء يقولون-للقائنا فى الأرض الإسبانية، التى يحتلها الإنجليز ويستمر العميد فى مقاله «ثم يتقدم مستشارنا الثقافى لدى السفارة المصرية (الدكتور عبد العزيز الأهوانى فى ذلك الوقت) فيعرفنا على المستقبلين، ويعرفهم إلينا، منهم من يمثل وزارة الخارجية المغربية، ومنهم من يمثل وَزارة التربية والتعليم ومنهم من يمثل حاكم طنجة، ومنهم من أقبل ليحيى عهدا بأستاذه القديم، الذى عرفه فى جامعة القاهرة حين يختلف إلى دروسه فى كلية الآداب، ولست أدرى كيف اختطفنا هؤلاء السادة واختطفوا معنا أمتعتنا ونقلونا من سفينتنا الضخمة إلى سفينة صغيرة عبرت بنا المضيق إلى العدوة المغربية، حيث السيارات، التى تمضى بنا مسرعة لا تلوى على شىء حتى تبلغ بنا بيت الحاكم، وهناك أعلم

أننا ضيف على الحاكم سنقضى عنده ما بقى من النهار، وسنقضى عنده الليل أيضا، وسنغدو مع الطير لنبلغ الرباط قبل الظهر فى الغد، لأن جلالة الملك تفضل، فقرر أن يستقبلنا ظهر اليوم، الذى نبلغ فيه الرباط كأنه يلقانا فى عاصمة ملكة تكريما لبلادنا وبلده، وجرت الأمور حسب البرنامج الموضوع، وشرفنا بلقاء الملك وسمعنا من جلالته خير ما يحب المصرى أن يسمع عن وطنه وعن حكومته، وخير ما يحب كاتب متواضع مثلى أن يسمع من تحية وثناء يصدران من رجل عظيم بأدق معانى هذه الكلمة وأوسعها». ويستمر العميد فى مقالته، وهو يتحدث عن الملك محمد الخامس، (طيب الله ثراه)، ويعطيه حقه من التكريم قائلا: «لم يكتسب عظمته من الملك، وإنما اكتسب عظمته من نفسه، من إبائه للضيم وصبره على المكروه، واستبساله فى مقاومة العدو، واحتماله أذيته لا لشيء إلا أن يكون ملكا كريما لوطن كريم، بذل هذا الجهد كله، واحتمل هذا المكروه كله، وهو مؤمن بأنه لم يصنع شيئا ذا خطر، وإنما أدى أيسر ما يجب على المواطن المخلص للوطن الحبيب، ولا أكاد أذكر لجلالته بعض ذلك حتى يحول الحديث فى يسر وسماح كأنه لا يحب أن يثنى عليه أحد لأنه أدى إلى وطنه ما يجب عليه».

وفى جزء آخر من مقال العميد عن المغرب يتحدث فيه عن تنوعات فنونه وطبيعة أرضه، ويحكى عن انطباعاته، التى شعر بها فى المغرب خلال الفترة القصيرة، التى قضاها، ويرى أنه، أى المغرب، حافظ على التراث العربي، والحقيقة الواضحة اليوم أنه ما زال محافظا على

الطابع والإرث العربى الخالص حتى بعد تعدد الثقافات، التى تموج بها ساحاته اليوم، وعن حضارة المغرب يرى أنها امتزجت فيها الحضارة العربية القديمة بالحضارة الأوروبية، خاصة الفرنسية والإسبانية، فصارت بحق لوحة فنية بديعة، فيقول: «الحديث عن المغرب الأقصى شاق وعسير لأنه متشعب لا يدرى الكاتب من أن يبدأه، ولا إلى أين ينتهى به، ففنونه كثيرة وألوانه مختلفة لأن المغرب الأقصى نفسه على وحدته وائتلافه وانسجامه واتساق أموره كلها، مختلف أشد الاختلاف، إن أردت أن تتحدث عن طبيعته وجدت فيه البحر والمحيط والسهل والجبل والنهر والغابات والبحيرات، وما إلى ذلك من هذه الطبيعة الواحدة المتعددة، وإن أردت التحدث عن حضارته وجدت فيها ألوانا مختلفة من الحضارات، لونا مغربيا خاصا توارثه أهل المغرب منذ كانوا قبل أن يصل الرومان إلى بلادهم فضلا عن العرب، وقبل أن تكثر الصلات بينهم وبين الأمم المختلفة، ولونا عربيا خالصا صفوا فما أعرف بلدا حافظ على التراث العربي، رغم ما اختلف عليه من الأحداث، وما تتابع عليه من الخطوب كالمغرب الأقصى، ولونا أوربيا بعضه يصور الحضارة الفرنسية، كما هى الآن، وبعضه يصور الحضارة الإسبانية، كما هى الآن، وبعضه يصور ما تنتجه الحضارة الأمريكية المعاصرة».

أما عن المحاضرات، التى قام العميد بإلقائها فى المدن المغربية الأربعة، وهى مدن الرباط والدار البيضاء وفاس، وأخيرا تطوان، فكانت بالفعل عرسا ثقافيا أدلى العميد فيها بخلاصة أفكاره السديدة، وبدأت يوم الخميس الموافق 26 يونيو 1958 بمدينة الرباط، حيث قدم العميد

محاضرة بعنوان: «الأدب العربى ومكانته بين الآداب العالمية»، تحدث فيها عن التقدم، الذى يشهده العالم، وما وصل إليه من رقى، وأن العربى عندما ينظر إلى كل ذلك يشعر ببعد المسافة، التى تفصله عن هذا العالم، وأن ما يعزينا، ولكن لا يجب ألا ينسينا واجبنا، هو أن الأدب العربى كان فى يوم من الأيام هو الأدب العالمى أيام النهضة الإسلامية العظيمة فى العصور الوسطى، كما أن اللغة العربية بلغت من القوة ومن السعة والقدرة على الانتشار والسيطرة على العالم القديم مما جعل الأدب العربى ينظر إليه على أنه الأدب الجدير بهذا الاسم، ولم يعش منعزلا عن أمته أو عالمه، ولكنه اتصل بهما، أخذ وأعطى، أثر وتأثر، وبفضله أتيح للأوروبيين أن ينشئوا حضارتهم الجديدة. وفى معرض حديثه عن الدور، الذى لعبه المغرب الأقصى والأندلس فى هذا الشأن، أكد العميد أنه بفضل المغرب وبفضل الأندلس.استطاع الأدب العربى والعلم العربى أن يصلا إلى أعماق أوروبا، وتمت ترجمتها إلى اللاتينية فى أكبر حركة ترجمة عكسية تحدث فى تاريخ العصور الوسطى، والتى سبقتها الترجمة الأولى، التى قام بها العرب المسلمون فى مقتبل القرن الثامن والتاسع الميلادي، عندما ترجموا كتب اليونان والفرس والهند.

وفى يوم الاثنين الموافق 30 يونيو عام 1958 قدم العميد محاضرته الثانية بمدينة الدار البيضاء، وكانت بعنوان: «الأدب العربى فى مصر قديما وحديثا»، وفيها ألقى الضوء على الأدب العربى فى مصر فى العصر الحديث منذ قدوم الفرنسيين أواخر القرن الثامن عشر

والضعف، الذى كان يعانيه، ومن قبلهم العثمانيين، الذين قطعوا كل صلة بين مصر وعالمها الخارجي، وأن الأدب شهد فى عهد المماليك فى كل من مصر وسوريا نهضة عظيمة حفظت للشرق تراث الإسلام، وظهرت المعارف والموسوعات الضخمة مثل «نهاية الأرب» للنويرى، و«مسالك الأمصار» للعمرى، و«صبح الأعشى» للقلقشندى، و«لسان العرب لابن منظور».

وكان الموعد الثالث يوم الخميس الموافق الثالث من يوليو 1958 فى مدينة فاس، التى وصفها العميد بأنها كانت موئل الحضارة والعلم والتراث العربى وقلعة من قلاع الإسلام الحصينة، وكانت المحاضرة عن مشاكل الأدب العربى بعد الإسلام، وبعد أن قدم العميد تحيته إلى علماء فاس، ووصف الذين يحاضرهم، كالذى يحمل الماء إلى خضاره، ورد على الذين اتهموا الإسلام بأن ظهوره أسكت الشعراء لأنه - أى القرآن - بهرهم ببلاغته، وبيانه الرائع، بقوله: إن الشعراء استمروا بعد ظهور الإسلام، وفى أيام الخلفاء الراشدين، وفى أيام الفتح الإسلامي، وأيام عمر وعثمان- استمروا- يقولون الشعر، ولم يغيروا طريقتهم.

وأخيرا، وفى الشمال، كان الموعد مع المحاضرة الرابعة للعميد بالمغرب وكان ذلك بمدينة تطوان يوم الأحد الموافق 6 من يوليو 1958، وكانت عن مشاكل الأدب العربى فى الوقت الحاضر وركز فيها على المشاكل، التى تهم الأدب عموما، ومنها أزمة قلة القراء لانشغال الناس بأمور الحياة، ودخول أدوات جديدة للترفيه، ونقل المعلومات مثل

السينما والتليفزيون والإذاعة، وأخيرا الصحف، التى شغلتهم بقراءة أنبائها وتعليقاتها.

وكان استقبال المغاربة للعميد شيئا يفوق الوصف وظلت محبتهم له أبدا، ونشأ جيل تربى على أدب طه حسين، وقبل أن يغادر الدكتور طه حسين المغرب، وفى الثانى من يوليو 1958 ألقى الشاعر المغربى محمد الحلوى قصيدة فى تكريم العميد بدأها بالأبيات الآتية:

حق على الشعر أن يهدى عرائسه — تحية لعميد الشعر والأدب
حق على الشعر أن يهدى قلائده — لصانع الدر والإبداع والعجب

وأنهاها بالأبيات التالية:

فقل لمصر وقل للغرب إن لهم — فى المغرب الحر مجدا ناطح السحب
واحمل تحيتنا يا خير من بعثت — به التحايا وأوفى مكرم وأب
إلى العروبة من شعب ومن ملك — واسلم لنا ولخير الضاد والأدب

هكذا كانت قصة أيام الرحلة التاريخية، التى قام بها الدكتور طه حسين، عميد الأدب العربى، إلى المغرب، والحفاوة التى استقبل بها على المستوى الرسمى والشعبي، وكم كان العميد عظيما فى تمثيله لمصر وكم كان الشعب المغربى ومليكه فى استقبالهم العميد إنما يعبرون عن مكنون حبهم وتقديرهم لمصر التى دائما ستظل أبدا حامية العروبة والإسلام.

فى مواجهة تشويه حضارة الإسلام[1]

جاء فى جريدة الأهرام، الأحد الموافق30 سبتمبر2001، خبر مفاده أن الأمانة العامة لجامعة الدول العربية تبحث الدعوة إلى تشكيل هيئة من المفكرين والمثقفين العرب للتعامل مع الهجمة، التى تتعرض لها صورة العرب والمسلمين والإسلام، وأن السيد عمرو موسي، الأمين العام للجامعة العربية، سيقوم بعرض هذا الاقتراح على وزراء خارجية منظمة المؤتمر الإسلامى فى اجتماعهم المقبل بالدوحة .

وأثارت التصريحات، التى ادلى بها رئيس الوزراء الايطالى سيليفو بيرلسكوني، والتى قالها أثناء زيارته إلى برلين، والتى عبر فيها عما اعتبره تفوق نظام القيم الغربى على نظام القيم القائم فى الدول الإسلامية غبارا كثيفا على العلاقات المحترمة بين الغرب الأوروبى على وجه الخصوص والدول الإسلامية، حيث لم يكن فقط التوقيت، الذى قيلت فيه تلك التصريحات، توقيتا مناسبا فحسب، ولكن لكونها جاءت فى وقت بالغ الحساسية، كما هو معروف للجميع، حيث اختلت فيه المشاعر وتاهت الحقائق، وكما أنه جاء مغلوطا قولا وفعلا، فلم تكن

1 -الأهرام فى أكتوبر 2001

هناك حكمة سياسية، أو تقدير لطبيعة الموقف الدولى الراهن ومدى ما فيه من خطورة، حيث إن إيطاليا هى دولة رئيسية فى النظام الدولي، فالوضع الراهن يتطلب الحديث عن التعايش بين الشعوب والحضارات، وليس التفرقة بينها من حيث القيمة الحضارية، أو الإنجازات، فروح التمييز والتفرقه بين الشعوب والحضارات المختلفه باتت متداخلة فيما بينها، ويصعب الفصل بينها عضويا أو معنويا ويبدو على حد قول الأستاذ إبراهيم نافع: إن رئيس وزراء إيطاليا لم يقرأ تاريخ الحضارة الإسلامية، التى لم تزل تعيش على مقربة من بلاده، وهذه خطيئة كبرى.

فى تلك الأيام، التى تتعرض فيها الأمة العربية والإسلامية لحركة من أبشع حركات المحو يقصد بها طمس معالم الشخصية العربية والإسلامية طمسا تاما. والقضاء على مقوماتها التاريخية، وفصل العرب عن حضارة آبائهم المجيدة، وإفقادهم الثقه فى ماضيهم وزعزعة غيمانهم بقدرة آبائهم الأوائل بل الجنس، الذى ينتمون إليه ذاته، فالأمة، التى تفقد ثقتها فى قدراتها العقليه والنفسية، إنما تفقد، ولا شك، أهم مقوم من مقومات وجودها الحي، ألا وهو شخصيتها، وإن أمة تفقد شخصيتها لهى أمة منهزمة لا محالة أن الشعوب العريقة لا تموت أبدا، وإنما تكمن قدراتها تحت الظروف، التى تمر بها، إذ كانت غير مواتية ولا ملائمة لإظهار كفايتها، فإن عادت لمثل الظروف الاولى، التى انطلقت منها قدراتها، وظهرت فيها كفايتها العقلية والنفسية، فإنها حتما ستهب من رقادها وتسلك سبيل الحق والقوة والعزة مره أخرى.

لقد حمل علماء المسلمين فى العصور الوسطى العلم والتقدم والمدنية للغرب. وكان لهم دورهم المرموق بشهادة الغرب نفسه، ولم يكن دورهم البناء هذا مقتصرا على مجرد النقل والحفظ بل تعداه للابتكار والتجديد والاكتشاف والانتقال بالحضارة البشرية من درجة إلى درجة اخرى أسمى بكثير مما كانت عليه قبلهم. لقد كان اثر الحضارة الإسلامية فى الحضارة الغربية اكبر من أن يجحده قول سياسى لم تتح له فرصة قراءة التاريخ. فالإنجازات معروفه للجميع، وهى موثقة لدى المؤسسات المتخصصه فى الغرب كما فى الشرق، وأى حديث عن تفوق مطلق لطرف على الأطراف الاخرى ليس له أى أساس علمى أو منطقي، فالتطور الحادث فى الحضارة الإنسانية هو حلقات متصلة ومتداخلة. وإنكار ذلك هو من قبيل مصارعة طواحين الهواء.

إن علماء الغرب المنصفين فى كل زمان ومن كل مكان قالوا قولتهم فى الحضارة الإسلامية. فهذا جورج سارتون يقول: إن المسلمين عباقرة الشرق حققوا أعظم المآثر فى القرون الوسطي، فقد كتبت أعظم المؤلفات قيمة، وأكثرها أصالة. وأغزرها مادة فى تلك العصور باللغة العربية، التى كانت فى منتصف القرن الثامن الميلادي، حتى نهاية القرن الحادى عشر لغة العلم الارتقائيه للجنس البشري، والحق أنه كان ينبغى لأى كائن إذا اراد أن يلم بثقافة عصر وأحدث صورها أن يتعلم اللغة العربية، ولقد فعل كثيرون من غير المتكلمين بها، وهذا يؤكد القول بأن العرب كانوا أساتذة أوروبا فى جميع فروع المعرفة، وأن التاثير الذى بثه العرب فيها قد عبر عن نفسه، وبدت مظاهره

فى جميع فروع الحضارة الحديثه، ولقد تكونت فى الفترة من القرن التاسع إلى القرن الخامس عشر مجموعة من كبرى المعارف الثقافية فى التاريخ، وظهرت مصنوعات ومنتجات متنوعة واختراعات ثمينة، تشهد كلها بالنشاط الذهنى المدهش فى هذا العصر وجميع ذلك تأثرت به أوروبا. أما جون دريبر فيقول: إن المسلمين عملوا فى الوقت، الذى كانت أوروبا لا تفوق فى المعرفة، إلا قليلا على تهذيب العلوم وترقيتها، بل إنهم كانوا يبتكرون الجديد منها، إن انتصاراتهم فى الفلسفة والرياضيات والفلك والكيمياء والطب، أثبتت أنها أبقى، وأعظم من انتصاراتهم الحربية، ومن ثمة اهم منها.

وهكذا فقد اعترف عدد كبير من مؤرخى العلم بفضل المسلمين على العلم والإنسانية، وأنه لولا أعمال العلماء العرب لاضطر علماء النهضة الأوروبية إلى أن يبدأوا من حيث بدأ هؤلاء، ولتأخر سير المدنية عدة قرون، فقد ظلت الأمة الإسلامية والعربية، حاملة لواء النهضة عدة قرون، فى وقت كانت أوروبا لا تزال غارقة فى الظلام، وأهدى الفكر العلمى الإسلامى إلى الإنسانية كثيرا من مظاهر الترف والحضارة والرفاهية، كما أهداها معلمها الثانى والثالث والفارابى وابن سينا لو قدر لهذه النهضة العلمية الشاملة أن تستمر فى عنفوانها وانتشارها لكانت هذه النهضة، التى تتيه بها أوروبا فى العصر الحاضر من نصيب أمتنا العربية، وكانت تتقدم على تاريخها الحالى عدة قرون، وأن وجود ابن الهيثم والخازن والبيرونى وابن سينا، وغيرهم من العلماء المسلمين كان ضروريا لظهور جاليليو وكوبرنيكس ونيوتن، من علماء النهضة الأوروبية الحديثة.

لقد فات تماما الزمن، الذى يمكن أن يقبل فيه المسلمون والعرب أى إهانة كتلك، التى تضمنتها تصريحات رئيس الوزراء الإيطالي، كما فات أيضا ذلك الزمن، الذى يدعو فيه البعض إلى تفوق مطلق على الآخر المختلف دينا وحضارة وأسلوبا فى الحياة، كما فات ذلك الزمن، الذى كان ممكنا فيه أن نغمض العين عن أى إهانة للإسلام أو للعرب، وعلينا أن نبدأ بعمل جاد ومستمر لتوضيح حقيقه الإسلام باللغة، التى يفهمها كل شعب، وبالأسلوب، الذى يتناسب مع عقليته وثقافته، ولن يجدى أن نقنع أنفسنا باللغة العربية بما فى الإسلام من مبادئ احترام الحرية الدينية والفكرية، واحترام حقوق الإنسان، ورفض العنف واحترام حق الحياه والمساواة فى الحقوق والواجبات بين الناس جميعا دون النظر لعقائدهم ودياناتهم، وباختصار لا بد أن نخاطب العالم الآن، ودون تردد أو تأجيل، ولا نترك الساحة خاليه فى الغرب للدعاية المضادة للإسلام والمسلمين، وإلا سندفع الثمن غاليا.

ومن هنا يجب أن نضم صوتنا، وأن نؤيد تلك الدعوة، التى جاءت على لسان السيد عمرو موسى، الأمين العام لجامعة الدول العربية لتشكيل هيئة من المفكرين والمثقفين العرب للتعامل مع الهجمة، التى تتعرض لها صورة العرب والمسلمين والإسلام.

صفحة جديدة فى تاريخ
العلاقات المصرية المغربية

يجيء الإعلان عن الزيارة المرتقبة، التى سيقوم بها السيد الرئيس محمد حسنى مبارك إلى المغرب، اليوم الاثنين 28 أكتوبر 2002، فى وقته تماما فى ظل المتغيرات السريعة والمتلاحقة، التى يموج بها العالم غربه وشرقه، وفى ظل تطورات خطيرة تحيط بالمنطقة العربية وشرقنا المتوسط، ودور مصر فيها عظيم وكبير شأنها على مر العصور، أقول تجيء لتحمل الخير والأمل لشعبى البلدين الشقيقين، اللذين ربطت بينهما وشائج القربى والحضارة والأقدار، فالعلاقات المصرية المغربية تتميز بأنها علاقات مثالية ومتميزة على جميع الأصعدة ومختلف المجالات، فمصر والمغرب لديهما قدر عال من التآخى الثقافي، والفكري، والروحي، والعاطفي، فمنذ أن جاء الفتح الإسلامى لشمال إفريقيا، غدا البلدان مركزين مؤثرين من مراكز الحضارة الإسلامية، ولا يزال كلا منهما يحتفظ بموقعه، كمركز إشعاع، ونقطة جذب، بالإضافة إلى أن مصر تحت زعامة الرئيس مبارك، والمغرب تحت زعامة الملك الراحل الحسن الثاني، ما زالت مستمرة فى عهد الملك الشاب محمد

السادس، أنجزتا تجربة فريدة فى التطور الديمقراطي، وفى بناء الدولة الحديثة وإرساء المؤسسات الدستورية والقانونية، وهو ما يجعل البلدان على درجة من التكافؤ والثقة بالنفس تفتح السبيل أمام تحرك ثنائى عاقل ورصين تجاه المستقبل وتجاه العالم، كما أن البلدين قطعا شوطا هائلا على طريق التقدم الاقتصادى يستدعى انفتاح اقتصادهما أحدهما على الآخر، ويستدعى مزيدا من التجاوب والتزاوج والتكامل بين قطاعات الإنتاج، وخبرات الإدارة، ورجال الأعمال فى كل من البلدين، بالإضافة إلى تلك الوفود الثقافية والفنية والرياضية والعلمية، التى تذهب وتجيء من مصر إلى المغرب وبالعكس حاملة الود والحب والنماء للشعبين، اللذين ينمو كلا منهما نموا طبيعيا تحميه أواصر الصداقة والمحبة والماضى الحى المشترك.

ولأن الحديث عن المستقبل لا يمكن الولوج فيه بدون الغوص قليلا فى التاريخ المكتوب عن العلاقات بين البلدين، وهناك مقولة يذكرها العلماء بأنه ليس من الضرورى أن تؤدى بعض القسمات المشتركة بين بلد وآخر إلى علاقة بينهما، غير أن الموقف بالنسبة لمصر والمغرب مختلف، كما يرى ذلك المؤرخان الدكتور يونان لبيب رزق، ومحمد مزين فى كتابهما القيم «تاريخ العلاقات المصرية المغربية»، أن هذه القسمات كانت بمثابة بعض القنوات، التى تبحر فيها العلاقة بين البلدين ذهابا وجيئة وأن علاقة خاصة نشأت بين مصر والمغرب تمثلت فى ذلك التيار من العلماء والأفكار الذى استمرت تتبادله مؤسستان إسلاميتان عتيدتان هما جامع الأزهر بالقاهرة وجامع القرويين بفاس، وذلك على مر العصور حيث تعددت

وجوه الشبه بين الجامعتين الإسلاميتين العتيدتين مما أشاع وضعية البلدين الخاصة فى العالم العربى الإسلامي، كما تمتعت مصر منذ أوائل القرن التاسع عشر بوضعية خاصة فى الدولة العثمانية، وتمتعت المغرب أيضا منذ أوائل القرن السادس عشر بوضعية أكثر خصوصية من الدولة العثمانية، فقد كان المغرب البلد العربى الوحيد الذى نجح فى التصدى للدولة العثمانية والاحتفاظ بوضعية خاصة من هذه الدولة، منذ أن شملت بوجودها العالم العربى خلال القرن السادس عشر، كما كانت مصر البلد العربى الوحيد، الذى عرف حركة انفصالية ناجحة قادها محمد على ضد هذه الدولة انتهت بكسب وضعية خاصة داخل الدولة خلال القرن التاسع عشر. مما أتاح للبلدين أن يتبادلا علاقات خاصة فيما بينهما سواء كانت علاقات اقتصادية أو سياسية أو اجتماعية أو دينية بالإضافة إلى ذلك الموقع العبقرى لكل من البلدين وخصوصيته، فمصر والمغرب من الدول ذات المواقع الحاكمة، إذ بينما يتحكم المغرب فى الباب الغربى للبحر المتوسط تتحكم مصر فى بابه الشرقى الباب المؤدى إلى الشرق الأقصى مثلا فى قناة السويس، وفرض على المغرب ومصر بحكم موقعيهما الحاكمين الدخول فى علاقات معقدة مع القوى البحرية ذات المطامع الاستعمارية، التى تبدت مطامعها منذ مطلع العصور الحديثة، والتى سعت إلى الهيمنة على هذه الأبواب مضيق جبل طارق بالنسبة للمغرب، وبرزخ السويس، الذى تحول إلى قناة فى القرن التاسع عشر بالنسبة لمصر.

إذا كان ذلك حديث التاريخ، فماذا عن الحاضر والمستقبل، وفى ظل

النظام العالمى الجديد، الذى لا يعترف إلا بالقوة، ليست القوة المسلحة، أو ضخامة الجيوش وترساناتها، ولكن قوة الاقتصاد، وإذا كان ذلك هو شعار التوجه الاقتصادى للدبلوماسية المصرية وإعطاءه الأولوية فى عمل وزارة الخارجية وسفاراتها فى الخارج، فقد كان مردوده رائعا، مما ساعد فى جذب الاستثمارات وتنمية الصادرات وتنشيط السياحة والتعريف بالتطورات الإيجابية والقرارات الاقتصادية، التى اتخذتها الدولة فى هذا السبيل، واليوم وفى ظل التطورات العالمية السريعة، التى تأثرت بها كل الدول، تأتى الزيارة من أجل تفعيل العلاقات بين البلدين من خلال المشاركات الثقافية والإعلامية والاقتصادية والعلمية، ودعم ما تحقق من إنجازات خلال السنوات الماضية، والحفاظ عليها والعمل على دعم إيجابياتها ودراسة سلبياتها للتخلص منها فى مسيرة العلاقات الأبدية. إن الجانب الاقتصادى للعلاقات بين البلدين فى رأيى هو همزة الوصل والدعم لكل العلاقات التاريخية ووشائج القربى بين الشعبين الشقيقين، وكان هذا من أهم المهام التى انطلقت بها اللجنة العليا بين مصر والمغرب لتحقيقها، والتى كان لها مهمة كبرى فى وضع الإطار السياسى والقانونى للعاملين والفاعلين فى مختلف المجالات بين مصر والمغرب وإيجاد حد أدنى من الضمانات وحافز على تنشيط هذه العلاقات بوضعها على شكل عدد من الاتفاقيات والبروتوكولات، وكان المنظور المصرى المغربى أن يكون التوجه نحو توقيع بروتوكولات وليس اتفاقات، حيث إن الأول لا يتطلب إجراءات دستورية طويلة ويدخل حيز النفاذ منذ التوقيع

عليه، وهذه كان نقطة عملية لتطوير العلاقات، بالإضافة إلى تنظيم عدد من الاتفاقات، التى تتناول مختلف أوجه العلاقات بين الدولتين، وهو ما تم فى السنتين الأوليتين ودخلت جميعها حيز النفاذ، وأصدق مثال على ذلك هو إنشاء منطقة التجارة الحرة بين مصر والمغرب، والتى دخلت حيز النفاذ بعد تصديق برلمان الدولتين عليها فى أقل من عام، وسمحت آليات العمل فى جميع هذه الاتفاقيات بتطويرها وتعديلها بطريقة عملية بدون الدخول فى إجراءات روتينية، حيث كان يتم فى كل مرحلة من المراحل ومن خلال دورية انعقاد اللجنة مراجعة دقيقة من قبل اللجان التحضيرية.

لقد تم بالفعل تحقيق إنجازات ملموسة فى مجالات التجارة والزراعة والنقل والكهرباء والثقافة بين البلدين، ولكن لا يزال هناك طموحات تحتاج لمزيد من الجهد لتحقيقها، خاصة أن النظام العالمى الجديد يحتم على الجميع التنسيق والتكتل لأن القوة والقدرة على التخاطب مع المجموعات الأخرى لن تتأتى إلا بالتكتل والتنسيق. إن المتغيرات الدولية العديدة أصبحت تحتم على اقتصادياتنا العربية ضرورة الانفتاح على بعضها البعض وإزالة حواجز النسيج الاقتصادى وتكثيف تيار المجادلات من كل نوع بين البلدان العربية، ولم يعد الأمر اختيارا، وإنما ضرورة حيوية وحتمية ملحة لن يكون أمام بلداننا بدونها إلا أن تستسلم للعولمة بدلا من كونها مشاركة فيها بنصيب كامل.

وأخيرا أسمح لنفسى أن أستعير بعض كلمات للأستاذ إبراهيم نافع فى واحد من مقالاته يقول فيها: إن مصر والمغرب لديهما سياسة

عربية متشابهة تتخذ من الاعتدال منهجا ومن الاستمساك بالحقوق العربية المشروعة عقيدة ومبدأ ومن آليات العصر أسلوبا ومسلكا. فهما مع الحوار والتفاوض الذى لا يضيع معه ح.ق ومع الانفتاح الذى لا يأتى على حساب الهوية. ومع المعاصرة. التى لا تنال من الجذور والأصالة. لكل هذه الأسباب فإن البلدين مؤهلان للدفع بعلاقاتهما الثنائية نحو آفاق تجعل منها نموذجا لتطوير العلاقات العربية العربية فى مجملها.

يتبقى الحديث عن العلاقات الثقافية والعلمية والفنية والرياضية. والتى يقع عبء تطويرها وتفعيلها على عاتق المركز الثقافى المصرى بالرباط. والذى سيحتفل هذا العام 2002 بمرور 45 عاما على إنشائه. فهو أول مركز ثقافى عربى يقام بالمغرب بعيد الاستقلال عام 1956. حيث افتتح الأول فى 1957. وبعده بعام افتتح المركز الثانى بالرباط. وأقبل الشباب المغربى على هذين المركزين بحماس منقطع النظير وفى نفس العام افتتح مركز ثالث بمدينة فاس. وكانت هذه المراكز بمثابة النافذة الثقافية والعلمية والفنية لمختلف المجالات والأنشطة. التى تجرى على أرض مصر والمغرب.

والآن. وعلى مدى أعوام طويلة يواصل المركز الثقافى المصرى فى موقعه الحالي. بعد أن ضمت المراكز المصرية الأخرى إليه. يواصل أنشطته فى مختلف فروع العلم والمعرفة والفن. وفى سبيل دعم جهوده وتطويرها وتحديثها. فقد تم إنشاء موقع له على شبكة الإنترنت (www.egyptianculturalcenter.ma) ليساير التقدم التقنى

فى مجال المعلومات، ويصبح بالفعل نافذة حية لأوجه النشاط الثقافى والعلمى والفني، كما يجرى على قدم وساق تفعيل الاتفاقات العلمية، التى وقعت بين الجامعات المصرية والمغربية، والتى لم تصل بعد لحد الطموح المنتظر لشكل العلاقات بين البلدين، وهذا يتطلب انفتاحا متبادلا بين أعضاء هيئة التدريس فى البلدين، وأيضا السعى لإيجاد قاعدة تفاهم علمى ومشروعات علمية مشتركة ثنائية وثلاثية مع مؤسسات علمية بحثية من دول حوض البحر المتوسط الغنية.

والمركز الثقافى المصرى برغم ضيق المساحة إلا أنه يضم اليوم مكتبة ضخمة تعتبر من أهم المكتبات ضمن كل المراكز الثقافية، التى أنشئت بالرباط، حيث تقتنى حوالى 35,000 كتاب فى شتى المجالات الأدبية والثقافية والعلمية والسياسية، ويرتادها عدد كبير من الطلاب والباحثين المغاربة يقضون فيها وقتا طويلا من النهار للقراءة، وتصوير ما يحتاجونه من مراجع وكتب. كما أن بالمركز قاعة للمحاضرات والندوات مجهزة بتقنيات حديثة من فيديو وتليفزيون وآلة عرض للفيديو والمعلومات وتستوعب حوالى 150 من الزائرين والمتابعين لأنشطة المركز.

ولأن الثقافة هى المرآة، التى تعكس روح الشعوب، وأصالتها فقد شهد عام 2002/2001 طفرة ملحوظة فى نشاط المركز الثقافى المصرى بالرباط، واعتبرت أنشطته بحق واحدة من أحد الأعمدة الأساسية فى دعم وتطوير العلاقات المصرية المغربية، وبالتالى فقط

أعطت خلفية إيجابية للعلاقات السياسية الممتازة بين البلدين.

ولقد كان للتوجه الجديد لسياسة المركز الثقافى المصرى بالرباط بنقل أنشطته الثقافية خارج مقره بالرباط، أثر كبير فى تعريف جموع الشعب المغربى بأنشطته المتنوعة، فقد قام بالطواف فى مدن المغرب المختلفة من خلال إقامته لعدد من الأسابيع الثقافية فى مناطق التجمعات الشبابية بالجامعات المغربية، والتى أنجز منها سبعة أسابيع فى كل من الدار البيضاء والمحمدية والرباط وتطوان والقنيطرة ومكناس وخريبكة، استقبل فيها بترحيب كبير من قبل الطلاب، وأعضاء هيئات التدريس فى تلك الجامعات، وسيتم استكمال تلك الأسابيع فى هذا الموسم الثقافي.

وأخيرا أقول: إن صفحة جديدة فى تاريخ العلاقات المصرية- المغربية يجرى كتابتها اليوم ندعو الله أن يمكننا جميعا حكومة وشعبا، مسؤولين وبعثات من كتابتها بنجاح، وأن نتمكن من إنشاء مجمع ثقافى مصرى كبير فى قلب المغرب الشقيق يسهم ويترجم بحق تلك المشاعر البديعة، التى يحس بها كل مصرى يزور المغرب، وكل مغربى يزور مصر.

عبق التاريخ

فى روح العلاقات المصرية المغربية[1]

ونحن على مشارف عام جديد يأتى انعقاد اللجنة المشتركة العليا بين مصر والمغرب برئاسة الرئيس محمد حسنى مبارك وجلالة الملك محمد السادس فأل خير نتمنى أن يكون عام 2004 عام سلام وخير وأمان على الأمة العربية، وعلى الشعبين فى البلدين الشقيقين.

لقد كانت العلاقات المصرية المغربية منذ الأزل علاقات ود ومحبة وإخاء، علاقات تعاون وتفاهم ووفاء وانسجام تجمعهما الأفئدة، وتهفو أبدا إليها المشاعر والأحاسيس، وكيف لا، فقد نشأت تلك العلاقة وترعرعت فى أحضان الإسلام، الذى جمع الشعبين فى وحدة واحدة، وفى أحضان العروبة، التى توحد بفضلها القلب واللسان، فكان أن قوى فيها الخطاب وتدفق من ينابيعها البيان، وجرت فى شرايينها تلك الدماء الزكية الطاهرة لتبعث الحياة وتهب الاستمرار لتلك العلاقة الحيوية للإسلام والعروبة ووشائج القربى.

ولأن يشهد التاريخ القديم والحديث بكامل الاعتزاز والفخر بمتانة

---

1 - بمناسبة انعقاد اللجنة المشتركة العليا بين مصر والمغرب

العلاقات المصرية المغربية، التى بناها الأسلاف والأجداد على أرض صلبة راسخة الأصول، فكانت نتيجتها العملية تلك الأسفار والرحلات من المغرب إلى المشرق ومن المشرق إلى المغرب لتولد فى النفوس تلك الصداقة الحميمة التى غذاها، وما زال هذا الاحترام والتقدير والحب، الذى يكنه كل شعب لشقيقه، وإذا كانت المسافة بين القاهرة والرباط من حيث المكان بعيدة نسبيا، فإن المسافة بين العقل العربى فى العاصمتين لا بعد لها، وإنما هى تمتزج وتتفاعل فى مكان واحد يؤكد الصلة الوثيقة بين العقل العربى هنا وهناك، وفى هذا المقال أصحب القارئ العربى فى رحلة عبر التاريخ أبين فيها ذلك التواصل الثقافى الحيوى بين مصر والمغرب لعله يكون استشرافا للحاضر المضىء والمستقبل الواعد.

أما عن الموقع فيقول جمال حمدان فى وصفه لموقع مصر والمغرب: إن مصر تتجه شمالا وتتحد مع الشام، وتتجه جنوبا نحو السودان الشرقى، والمغرب يتجه شمالا، ويتحد مع الأندلس، كما يتجه جنوبا نحو صحراء شنجيط (موريتانيا) والسودان الغربى، لذا يمكن القول: إن الصلات بين مصر والمغرب قديمة ومتداخلة، ففى التاريخ القديم يحدثنا المؤرخ المغربى الدكتور عبد الهادى التازى فى أحدث بحوثه « مكتبة الإسكندرية وصداها فى المغرب» عن الصلة القوية للأحداث فى كل من المغرب ومصر فى فترة حكم الملك المغربى يوبا الثانى، الذى تزوج الأميرة المصرية كليوباترا سيلينى ابنة الإمبراطورة الشهيرة كليوباترا، وعن تلك المكتبة الضخمة التى كان يمتلكها الملك المغربى،

الذى حاول أن يستنسخ منها مكتبة شبيهة بمكتبة الإسكندرية العظيمة، حيث اقتنى كتبا مهداة من أنطونيوس إلى كليوباترا الأم.

لقد ذهب بعض الجغرافيين المغاربة، مثل ابن سعيد المغربى، (685هـ/1286 م)، إلى اعتبار مصر ضمن مجموعة البلاد المغربية، فكان أن خصها بجزء كبير فى كتابه «المغرب فى حلى المغرب»، وقد يؤيد هذا الاتصال قول ابن عذارى المراكشى أن الخليفة هشام بن عبد الملك قلد عبد الله بن الحبحاب ولاية مصر والمغرب والأندلس (د.أحمد مختار العبادى)، ولكن كان لجمهرة من المؤرخين والجغرافيين رأى اتفقوا فيه على تعريف وتحديد المغرب بأنه تلك الأراضى الإسلامية، التى تمتد غربى مصر إلى المحيط الأطلسى، وعليه فإن مدينة الإسكندرية اعتبرت الحد الفاصل بين المغرب والمشرق، وعرفت باسم باب المغرب لكونها كانت معبرا لجميع المغاربة القادمين أو العائدين سواء بالبر أو البحر بقصد الحج أو العلم أو التجارة أو الزيارة، فكان أن طبع هذا مدينة الاسكندرية طابعا مغربيا ما زلنا نراه ونلمسه فى لهجة أهلها، وأضرحة أوليائها، وأسماء أسواقها وأحيائها ومذهب أهلها المالكى، كما أن الإسكندرية حظيت بمكانة كبيرة فى نفوس المغاربة، لدرجة أنهم تشبهوا بها فى منشآتهم المعمارية، مما حدا بالمؤرخ المغربى عبد الواحد المراكشى على إطلاق اسم إسكندرية المغرب على مدينة الرباط لتشابه مبانيها وحصانتها وحسن تقسيمها، كما ذكر علماء الآثار وجه شبه آخر عن تأثيرشكل منارة الإسكندرية القديمة على شكل وتصميم عمارة الصومعة المغربية

(المأذنة). وهو الشكل، الذى يقوم على المئذنة المربعة، التى تشبه الحصن أو الصومعة، وخير مثال تلك الصوامع التوائم الثلاث، التى بنيت فى عهد الموحدين، وهم منارة جامع الكتبية بمراكش، ومنارة حسان بالرباط، وأخيرا منارة جامع إشبيلية بالأندلس والمعروفه باسم الخيرالدا، أى الدوارة (د.عبد العزيز سالم).

لقد رحل إلى مصر العديد من الرحالة المغاربة كتبوا وأسهبوا فى وصفها منهم ابن جبير البلنسى، وابن رشيد السبتى، والعبدرى الحيحى، ابن بطوطه الطنجى، والحسن بن محمد الوزان المعروف باسم ليون الإفريقى، والذى زار مصر فى الوقت، الذى استولى عليها السلطان سليم العثمانى سنة 923هـ/1517 م.

كما رحل إليها فقهاء وعلماء منهم العالم الأندلسى أبو بكر الطرطوشى، الذى توفى فى الإسكندرية عام 520هـ/1126م ومازال له مقام يقع فى شارع الباب الأخضر بمنطقة الجمرك، وكذلك الشيخ العارف بالله «أبى عبد الله محمد الشاطبى»، والذى دفن بالإسكندرية فى حى الشاطبى، وكان معاصرا للسلطان المملوكى الظاهر بيبرس فى القرن السابع هجرى، وفى العصر المملوكى زار مصر عدد كبير من العلماء المغاربة، منهم شيخ الطريقة الشاذلية الصوفية أبو الحسن الشاذلى، وتلميذه زوج ابنته أبو العباس أحمد المرسى، نسبة إلى مرسية فى شرق الأندلس، والذى خلفه فى رياسة الطريقة الشاذلية، وتوفى فى الإسكندرية عام 656هـ/1287م ومقامه المعروف هناك، وكيف لا نذكر العلامة عبد الرحمن بن خلدون،

الذى انتقل إلى القاهرة، و شغل فيها منصب قاضى قضاة المالكية عدة مرات، وتأثر بمنهجه المؤرخ المصرى تقى الدين أحمد المقريزى.

لم تكن الجاليات المغربية، التى شدت رحالها إلى مصر تسكنها بأشخاصها فقط، بل بثقافتها وعلمها وفنها وتجارتها، بل كانوا يشاركون فى الدفاع عنها، والشىء بالشىء يذكر فإن أحمد بن طولون فى القرن الثالث هجرى كان من أوائل الحكام، الذين رحبوا بالمغاربة، وأسند إلى علمائهم مناصب مهمة فى الدولة، كما فتح لهم أبواب مسجده كمأوى لهم يقيمون فيه ويدرسون، كما حدد لهم مرتبات يتعيشون بها، وكان لارتباط الجالية المغربية بجامع ابن طولون هو الذى جعل الفاطميين، حينما دخلوا مصر بجيوشهم أن يختارونه لإقامة شعائرهم، وذلك قبل بناء الجامع الأزهر.

يقول قائل: لماذا كان المغاربة أكثر ترددا على مصر ورحيلا إليها، والرد على ذلك بأن أهل المغرب الأقصى فى ذلك الوقت كانوا فى حاجة إلى التزود من الثقافة الشرقية، التى كانت تعوزهم خلال القرون الأولى من حياتهم الإسلامية حتى يقيموا بها كيان مجتمعهم، على أن الثقافة المغربية لا تلبث أن تشق طريقها للنضج والاكتمال منذ منتصف القرن الخامس الهجرى، بعد أن تمثلت العناصر الوافدة إليها من الشرق عبر مصر من ناحية، ومن الشمال من الأندلس من ناحية أخرى، ويتجلى هذا فى عهد المرابطين، ثم الموحدين، فيصبح لدى المغرب الأقصى علمائه فى شتى فروع المعرفة، وبالرغم من هذا فقد زادت زياراتهم إلى مصرابتداء من القرن السادس هجرى، حيث هاجر عدد من العلماء الراسخين فى

العلم إلى مصر واستقبلهم المصريون بكثير من التقدير والإجلال.

أما تلك الرحلات المهمة، التى سجلها المؤرخون للصوفية المغاربة، فقد تعددت بشأنها الأسباب، التى حملتهم للانتقال للديار المصرية والإقامة بها منها: القول بأن مصر كانت تضم مراكز للإشعاع الحضارى والنشاط الثقافى، ومنها ما قيل إن مصر أثناء فترة الحج كان يشع بمنازل الحجاج فيها جو من الروحانية، وقيل أيضا إن مدينة الإسكندرية، التى كانت تعد رباطا إسلاميا كبيرا من أقام به كان له أجر المجاهد، وأخيرا قيل إن مدينة الإسكندرية، والتى ظلت مدينة سنية كانت تلبى حاجات الصوفية المغاربة فتغريهم بالمقام بها، وقد ارتفع عدد الصوفية المغاربة الوافدين على مصر بين اواخر القرن السادس، وأواخر القرن السابع الهجريين، وظهر منهم الشيخ عبد الرازق الجزولى، وأصله من المصامدة واستقر بالإسكندرية ومات بها عام 592 هـ، والشيخ عبد الرحيم القنائى (عبد الرحيم القناوى)، واصله من ترغاى بإقليم سبتة، حيث انتقل إلى الحجاز ومنها إلى صعيد مصر واستقر بقنا للتدريس والإرشاد وتوفى عام 592 هـ، والشيخ أبو الحسن الشاذلى، الذى يعود نسبه إلى قبيلة غمارة بسبتة، وأيضا استقر بالإسكندرية، وتوفى عام 656 هـ وهو فى طريقه للحج، والشيخ أحمد البدوى، الذى ولد بفاس، وانتقل إلى المشرق متجولا حتى انتهى به المقام فى طنطا عاملا بالدعوة إلى الله، (د.طه عبد الرحمن).

لم تنقطع أبدا أسباب التواصل الثقافى بين مصر والمغرب، بل

كانت هناك أدوات أخرى أدت إلى استمرار هذا التواصل، منها تلك المناقشات والحاورات العلمية، التى أجراها الرحالة المغاربة، الذين أتوا إلى مصر وقصدوا مجالسها العلمية، كما كانت هناك فى نفس الوقت عمليات تبادل للأفكار والعلوم عبر أولئك الذاهبين الآيبين بين البلدين، بالإضافة إلى أن الجو الأساسى لهذا التواصل امتد إلى أعمدة من الكلمة المكتوبة، وذلك من خلال الكتب، التى تم تبادلها بين الطرفين، حيث تحمل العلماء أو الرحالة القادمون من المغرب إلى مصر مسئولية تنفيذ مهمة ضرورية، وهى شراء الكتب العلمية وحملها فى طريق العودة، حتى أنه يمكن القول: إن قدوم موكب الحجيج المغربى ’لى مصر كان مناسبة مهمة لانتعاش سوق الكتاب بها، ويبدو أن حركة نقل الكتب من مصر إلى المغرب كانت تتم على نطاق واسع حتى أن بعض العلماء المغاربة تمكنوا من اقتناء مكتبات كبيرة خلال هذه الحركة، (تاريخ العلاقات الثقافية بين مصر والمغرب، يونان لبيب رزق ومحمد مزين).

لم يقف التبادل الثقافى إلى هذا الحد، بل تعداه إلى ما قام به بعض العلماء المغاربة من إسهام فى حركة التأليف فى مصر، وقد وجدت كتب هؤلاء صدى مهما فى المغرب، ومن هؤلاء (شهاب الدين المقرى)، الذى ألف أغلب كتبه، أو أتمها فى مصر مثل كتابه (اتحاف المعزم المغربى بتكميل شرح الصغرى)، وهو فى علم الكلام، وبدأه فى المغرب وأتمه فى الإسكندرية، أو مثل كتابه المشهور(نفح الطيب)، الذى بدأه وانتهى منه فى القاهرة، أضف إلى ذلك عددا آخر من الكتب

ألفها، أو أتمها فى العاصمة المصرية، مثل كتاب (فتح المتعال فى مدح النعال)، ومثل كتاب (إضاءة الدجنة فى عقائد أهل السنة)، كما أن هناك دلائل على رواج سوق الكتاب المصرى فى المغرب ذلك أن عديدا من المغاربة، الذين عاشوا فى مصر احترفوا مهنة نسخ الكتب بخط مغربى، ذلك أن عديدا من المؤلفات، التى كتبت فى مصر أو عثر عليها فى خزائنها نسخت عن طريق علماء ونساخ مغاربة، وأخذت سبيلها إلى بلاد المغرب أو المكتبات العالمية.

وفى القرن التاسع عشر شهدت مصر تحولات مهمة فى الجهاز التعليمى الذى استحدثه محمد على (1805 – 1848)، وتوسع فيه من بعده اسماعيل (1863 - 1879)، حيث انصب اهتمام الدولة على تجديد التعليم بشكل أدى إلى إخفاق التعليم الدينى التقليدى، الذى كان سائدا من قبل وحلول مؤسسات تعليمية عصرية محله، كما بدأ فى المغرب خلال النصف الثانى من نفس القرن الانفتاح على الحضارة الغربية، والأخذ بمقوماتها واستوعب السلاطين المغاربة، وعلى رأسهم محمد الرابع(1859 - 1873)، والحسن الأول (1873 – 1894) أهمية هذا التيار الجديد وشجعوه بشتى الوسائل، مما استتبع تغير فى طبيعة العلاقات الثقافية بين البلدين، ولما كانت مصر أسبق فى بناء جهازها التعليمى منذ النصف الأول من القرن، فقد كان من الطبيعى أن تلتقى مرة أخرى وفود من البلاد الإسلامية المختلفة للدراسة فى مؤسسات هذا الجهاز وكانت المغرب فى طليعة هذه البلدان.

وفى النصف الثانى من القرن التاسع عشر وعلى عهد كلا من

سعيد وإسماعيل فى مصر، وكلا من محمد الرابع والحسن الأول بالمغرب عادت تلك العلاقات للانتعاش، وهى علاقات شجعها الحكم فى البلدين.

وهكذا سارت العلاقات الثقافية بين مصر والمغرب بثبات وهمة طلوعا ونزولا، وقدمت هذا الرصيد المشترك، الذى يتيح للشعبين والبلدين الحديث باعتزاز عن توجه ثقافى مشترك فى الماضى والحاضر والمستقبل، وهذا التماثل المتعدد الأبعاد فى الموقع والرسالة التاريخية يجعلها ثقافة متميزة بطابع ثابت هو الأصالة المتجددة.

وأختم تلك الجولة التاريخية القصيرة، والتى كانت ضرورية لمعرفة أسباب التشابه والتقارب بين شعبين يستوطنان منذ فجر التاريخ أرضهما الواقعة على منافذ ومعابر الاتصال بين آسيا وإفريقيا بالنسبة لمصر والاتصال بين إفريقيا وأوروبا بالنسبة للمغرب، وأقول إن الاشتراك فى التوجه الثقافى فى كل من مصر والمغرب تحقق بفعل مقومات ذاتية وجغرافية مكونة للهوية الوطنية تحولت إلى قيم ثابتة منها ما يعود إلى ذاتية الشعب، ومنها ما يعود إلى تجذر العقيدة الإسلامية فى نفسيته.

المقهى الثقافى من الرباط

دور الفنان العربى
فى مواجهة المتغيرات الثقافية فى عصر العولمة

شهد المركز الثقافى المصرى بالرباط يوم الخميس الماضى 8 مايو 2003 ندوة أدبية وثقافية رائعة ضمت فنانين من مصر والمغرب، وكان محورها الرئيسى هو «دور الفنان العربى فى مواجهة المتغيرات الثقافية فى عصر العولمة»، ودعى للحديث فيها من مصر الفنان الكبير يحيى الفخرانى والفنان القدير د.أحمد عبد الحليم، كما دعى من المغرب الناقد الفنى د.مصطفى المسناوى، والكاتب المسرحى عبد الكريم برشيد، ومما هو جدير بالذكر أن الفنانين الكبيرين كانا ضيفى مهرجان الرباط عاصمة الثقافة العربية للعام 2003 حيث عرضت مسرحية «الملك لير»، والتى حازت إعجاب الجميع، وحققت إقبالا جماهيريا منقطع النظير أدهش كل الفنانين المصريين، الذين لم يتوقعوا هذا الحب من الجمهور المغربى المتعطش إلى الفن المسرحي، والذى كان تأكيدا لريادة الفن المصري، وأدار الندوة كاتب المقال، الذى طرح فى البداية الهدف منها فى ضرورة الإجابة على سؤالين مهمين

هما: ما هو دور الفنان العربى فى مواجهة المتغيرات الثقافية لعصر العولمة مع حفاظه على هويته وتراثه القومي، وما هى المحاذير التى يمكن أن يتعرض لها الفن العربى المعاصر زهاء الهجمات، التى تتعرض لها الأمة العربية.

وكانت المداخلة الأولى للفنان يحيى الفخرانى، الذى بدأها بقوله: إن الدور الذى يمكن أن يقوم به الفنان العربى فى هذه الظروف هو أن يرجع لأصوله الحضارية ذات الجذور، والتى نتميز بها عن الغرب، وأنه إذا كانت هناك عولمة ستفرض علينا، فعلينا أن نأخذ أحسن ما فيها ونزيد عليها بحضارتنا، وبأصلنا، وألا يكون الفنان مستهينا بعقلية ووجدان المتفرج والمشاهد العربي، لأن الإنسان التلقائى البسيط هو أقدر الناس على الإحساس بالفن الراقي، وأنه يملك إحساس غريزى يستطيع أن يتبين إذا كان هذا فن حقيقى نابع من القلب بذل فيه مجهود أم لا، وأعطى مثالا لهذا عندما تم عرض مسرحية الملك لير فى مسرح القلعة، وحضره حوالى خمسة آلاف أو ستة آلاف متفرج كلهم من الناس العاديين، أم ترضع، أو متفرجين يأكلوا كشري، أو أطفال يتمشون فى طرقات المسرح، وتصور أن الناس لن تتحمل أحداث المسرحية العالمية، ولكن كان من أعلى العروض التى قدمها الملك لير فبعد ثلاث أو أربع دقائق وجدنا الناس دى ساكتة تماما، وتضحك فى الوقت المناسب وتفهم الإفيه السياسى وتصفق، حيث يجب أن يكون التصفيق، ثم دعا الفخرانى لعودة الفن المسرحى إلى المدرسة والجامعة، فالفن الجيد لا بد أن يتمرن عليه ويمارس، وشدد على

أن وجدان المواطن العربى يتشكل من الطفولة، وتعليم الديمقراطية يبدأ من الطفولة.

ثم تحدث الكاتب المسرحى المغربى عبد الكريم برشيد، حيث أبدى شكره وتقديره للفن والفنانين المصريين، الذين قدموا عرض مسرحية الملك لير على خشبه المسرح المغربي، وعبر عن سعادته والجمهور المغربى باستقبال أعضاء المسرح القومي، الذين يؤمنون بالفن الجميل ويؤمنون بالإبداع الجميل، وبأن الثقافة رسالة، وأن الفنان ليس ساعى البريد، ولكنه رسول يحمل رسالة إلى الناس، وليس هناك رسالة ليس فيها قيم حقيقية قيم الجمال، قيم العدل، وأنه خرج بانطباع من مشاهدته مسرحية «الملك لير» أنه بالرغم من أن شكسبير لم يكن يعرف يحيى الفخراني، ولكن بدا كأن شكسبير قد كتبها خصيصا له.

وجاء الدور على د. أحمد عبد الحليم، الذى تحدث عن رؤية الفنان المستقبلية، وأنه ينقصنا شيء مهم فى المجتمع العربى بشكل عام، وفى مصر بشكل خاص هو أن نعيش مرحلة اسمها مرحلة التكتيك، الفرق بيننا وبين الغرب أنه يجمع بين اثنتين، التكتيك والاستراتيجية، ونحن لا ننظر إلى الأمام، بل ننظر إلى أقدامنا فقط ولا ننظر إلى المستقبل، وأنه يتوجب علينا أن نشتغل على المستويين التكتيكى والاستراتيجى للمستقبل، كما أن الفن يحتاج ان يدخل فى برامج التعليم، وأن يزرع مع الثقافة فى وجدان وعقل الطفل، وطالب بالعمل على خلق كوادر مستقبلية تستطيع أن تحمل الرسالة،

وبهذا نستطيع أن نقف أمام هيمنة أنياب العولمة، التى نحن نراها ونتخوف منها.

وكان الناقد الفنى المغربى د. مصطفى المسناوى آخر المتحدثين، فقال: إنه قد حل وسيط جديد بين المبدع والمتلقى هو وسيط التليفزيون لم نكن نعرفه فى الستينيات على الخصوص والسبعينيات، وهذا حال بين المتلقى وخروجه من بيته وذهابه إلى المسرح أو إلى السينما، وصار أمام كثرة من القنوات الفضائية، فالتليفزيون يعطى الوهم بالحضور وسط الثقافة فى مجتمعات أمية القراءة والكتابة، وكانت تعيش عصر ما نسميه بالثقافة الشفوية، ثم عصر الثقافة المكتوبة، وعصر ثقافة الكتاب، ثم انتشار الجرائد وانتشار قراءة الكتب، وتساءل: أين أم كلثوم اليوم ؟ أين محمد عبد الوهاب؟ أين عبد الحليم حافظ ؟ ونجاة الصغيرة وفريد الأطرش عمالقة الفن العربى أين هم؟...لقد نجحت الفضائيات فى إبراز أنه لا توجد هناك أصوات حقيقية، بل هناك أصوات عابرة، هناك اتجاه إلى جعل الفن مختصرا فى شىء واحد هو التجارة، والفن الجميل هو فن الربح والفن غير المربح هو بالضرورة فن سيئ، وهذا ما ينبغى طبعا الوقوف ضده لأنه يمشى ضد التطور التاريخى للثقافة العربية.

مصر ودورها الثقافى العربي

فى الثلاثينيات من القرن العشرين ظهرت دعوات مصرية مبكرة لوحدة الثقافة العربية قادها العديد من المفكرين على رأسهم الكاتب الكبير توفيق الحكيم، الذى دعا إلى قيام وحدة عربية على أساس من الوحدة الثقافية، موضحا ذلك فى أن الطابع الفكرى للعرب عموما، وطريقة نظرهم إلى الاشياء والتقاليد والإحساس بالجمال الذهنى والتوجه نحو مظاهر الطبيعة المختلفة، بالإضافة إلى أسلوبهم فى التعبير عن حقائق الأشياء. كل ذلك ينم عن عقلية خاصة وعبقرية مستقله يجب أن تتم تنميتها، وظل على هذا التوجه حتى رحيله عام1987، ومن أقواله فى هذا الشأن أنه لهو يوم الحلم الجميل لنا جميعا أن يتم التكامل الاقتصادى والتناسق الثقافى والتعاون الاجتماعى بين العرب جميعا بما يحقق لهم وحدة كاملة. كما كتب الفيلسوف المصرى الكبير الدكتور زكى نجيب محمود، داعيا للوحدة الثقافية، قائلا: إن العربى عربى فى ثقافته، التى هى تعبير عن رؤيته ووجدانه قبل أن يكون عربيا لأى سبب آخر، ويلتقى العرب جميعا حول محور ثقافى واحد أساسه اللغة العربية، وما تنطوى عليه تلك اللغة من دلالات تتفرع منها، فليست اللغة مجموعة من رموز كرموز الرياضة

مثلا مجردة عارية تتفق على مدلولاتها كل شعوب الأرض، بل اللغة مشحونة بالقيم، التى تثبت فيها خلال العصور التى استخدمت فيها، ومن مجموعة تلك القيم المبثوثة فى ألفاظ اللغة العربية يتكون وجدان الأمة العربية. واستمر مؤكدا إيمانه القوى بالوحدة الثقافية العربية، حتى قبل رحيله1993 وأن وحدة الثقافة العربية موجودة، ولكنها تحتاج إلى تقوية كما أن الثقافة هى التى توحد العرب جميعا، والوحدة الثقافية العربية لم تنقطع، فما يكتب فى المغرب العربى يقرأه فى المشرق العربي(أحمد يوسف القرعي، الأهرام). واليوم تتحقق بداية الأمل فى تلك الوحدة الثقافية العربية حينما دعت السيدة سوزان مبارك فى محاضرتها بمعهد العالم العربى بباريس بمناسبة افتتاحها معرض الكتاب العربى الأوروبى السابع، وبدء المشروع العربى للقراءة للجميع ومبادرة المليون كتاب، التى تستهدف طرح مليون نسخة من الكتب المتميزة بسعر رمزي، وفى جميع الدول العربية فى آن واحد. أقول حينما دعت بأن الثقافه هى أقدر السبل على ترسيخ دعائم التواصل بين الشعوب، وأن الأمم تستمد قوتها من موروثها الثقافى والحضاري، ويقاس مستقبلها بقدر ما تمتلكه من قدرة على الإبداع والابتكار. إن دور مصر الثقافى هو أكثر أدوارها بريقا وأعمقها أثرا، حتى لو تغيرت الأحوال والظروف. وتعرض هذا الدور لتقلبات كثيره فى الخارج أو الداخل. إن مقومات هذا الدور الثقافى لا يمكن أن تعتمد على المال وحده فحسب، بل إن العنصر البشرى وحده هو أهم مقوم لهذا الدور لا يتوافر فى كل البلاد ومن

الصعب تعويضه، لذا يمكن القول إن البشر هم عماد أى استثمار ثقافي، وخير دليل على ذلك هذا الدورالثقافي، الذى لعبته مصر عبر تاريخها الطويل من خلال مؤسساتها الثقافيه والتعليمية، التى امتدت إلى أعماق التاريخ ابتداء بمكتبة الإسكندرية القديمة، مرورا بالأزهر الشريف، واستمر حتى إنشاء الجامعة المصرية، أو الجامعات العربية ورائدة المعرفة فى مواكب النخبة العربية، والتى استطاعت أن تقود وتؤثر فى كتابة تاريخ العرب الحديث، فلا يوجد مثقف كبير أو فنان مبدع، أو شاعر نبيه فى أى عاصمة عربية، إلا وشق طريقه من خلال مصر الأزهر، أو الجامعة المصرية أو المناخ الثقافى المصرى بكل تفاعلاته وتأثيره، فقد كانت جامعه الأزهر أكبر الجامعات الإسلامية والعربية فى العالم، وكان روادها من كل الأقطار العربية، وهناك عشرات الساسة، الذين درسوا بها، وتخرجوا فيها، كما لايوجد مبدع كبير أو ناقد مرموق فى أى عاصمة عربيه إلا وتتلمذ فى الجامعة المصرية على يد طه حسين، ومندور، وشوقى ضيف، ورشاد رشدي، ولويس عوض، ومحمد أنيس، وزكى نجيب محمود، والطويل، وزكريا إبراهيم، والخشاب، والساعاتي، كما لا توجد عاصمة عربية، إلا وطافت فى رحابها بكل الجلال أغنيات أم كلثوم وعبد الوهاب وعبد الحليم حافظ وليلى مراد، وألحان السنباطى والقصبجى وزكريا أحمد والموجى والطويل وبليغ حمدى وعمر خيرت والشريعي، وحلمى بكر وكلمات رامى وبيرم ومأمون الشناوي، وجاهين، والأبنودي، أما المواهب العربية فى عصرها الذهبي، فقد انطلقت من مصر مثل فريد

الأطرش وفيروز ووديع الصافى وصباح فخري، وطربت مع كلمات شوفى وحافظ ومحمود حسن إسماعيل، وناجي، وعلى محمود طه، ونزار قباني، وأبو ريشة، والشابي، وآدم، وجرداق، وحرب، والبياتي، والجواهري، ودرويش، والقاسم، وبسيسو،ورشيد، (فاروق جويدة، الأهرام).

إن هذا التفاعل الحى بين مصر وثقافتنا العربية كان يمثل قوة الدفع الحقيقيه نحو مستقبل أكثر استنارة، ووعيا وإبداعا، ولم يحاول أى طرف من الأطراف فى يوم من الأيام أن يشكك فى عمق هذه الروابط لأنها كانت تمثل زادا حقيقيا للعقل والوجدان العربي، ولأنها كانت حقائق ثابتة لا تقبل الظن أو التأويل.

إن من يريد معرفة القيمة العالمية، التى تمثلها الثقافة والفن المصريين عليه أن يذهب خارج مصر فسيجد ما يمكن أن يفخر به أى مصرى صادق يحب وطنه ويعشقه، وهنا سأتكلم عن مثال حى عاصرته على أرض المغرب الشقيق، فعلى مدى عامين، منذ أن وطأت قدماى أرض المغرب، وبحكم منصبي، فقد التقيت بالعديد من المثقفين والفنانين المصريين، الذين جاءوا، إما من خلال دعوات خاصة أو من خلال تبادل ثقافى بين البلدين، أقول إننى انبهرت بذلك الحب الكبير الذى يقابل به المثقف أو الفنان المصرى حال وصوله إلى أرض المغرب من ضيافة وترحاب وشعور بالامتنان وأعطى مثالا، فقد شهد العام الماضى وجودا عاليا للفنانين المصريين بمجيء فرقة المسرح القومى بعدد كبير من أبطال مسرحية» الناس اللى فى التالت»، حيث قدمت عرضين فى الرباط وتطوان، وكان وجود فنانين عظام أمثال

سميحة أيوب، وفاروق الفيشاوي، ورياض الخولى وعبد العزيز مخيون، وغيرهم من أبطال العرض. أقول كان مصدر سعادة وفخر لمصر وترك العرض أثرا عظيما فى نفوس كل المغاربة، وكم كانت الفرحة الغامرة فى مارس من هذا العام بحضور فرقه المسرح القومى للعام الثانى على التوالى بمسرحية الملك لير وأبطالها المتميزين، وعلى راسهم الفنان يحيى الفخراني، والفنانة سوسن بدر ومخرج العرض د. أحمد عبد الحليم، حيث عرضت المسرحية فى إطار اختيار الرباط عاصمة للثقافه العربية، وحازت إعجاب الجميع، وحققت إقبالا جماهيريا منقطع النظير ـ دهش كل الفنانين المصريين، الذين لم يتوقعوا هذا الحب من الجمهور المغربى المتعطش للفن المسرحى الجيد، والذى كان تأكيدا لريادة الفن المصري، ومن قبل تجولت فرقة رضا للفنون الشعبية فى ثلاث مدن مغربية، هى الرباط وتطوان وافران، واستقبلت بمحبة وشوق، هذه مجرد أمثلة أسوقها لتؤكد المعنى المهم، الذى أود أن أرسله للجميع بأن المثقف والفنان المصرى مازال وتنويره يملأ الآفاق والبلدان والوديان، ويعبر النهر والبحر والمحيط ويغمر العقل والوجدان بالحكمة والأدب والخلق العظيم.

إن الانشغال بالدور الثقافى لمصر هو دور محتوم بحكم أننا أصحاب ثقافة إنسانيه الدماء، عربية القلب. إن مصر اليوم لهى مدعوة أكثر من أى وقت مضى إلى صياغة دورها الثقافى فى إطار المشروع العربى الحلم، وأنه وجب علينا الانخراط بقوه فى نسيج ثقافى عربى بات واضحا أنه يعرف عنا أكثر ما نعرف عنه وأنه يتفاعل مع إبداعنا بأكثر

ما نتفاعل مع إبداعه، وأذكر أنني، حينما التقيت مع أحد أساتذة الجامعات المغربية، وهو متيم بمصر وبثقافتها وفنونها ويحفظ عن ظهر قلب كتابات نجيب محفوظ والعقاد ويعرف كل شيء عن مثقفى وكتاب وفنانى مصر ويعرف كل شارع، بل كل حارة، وزقاق من أرض مصر حيث سألته كم مرة زرت مصر، وفاجأنى بإجابته بأنه لم يزرها أبدا!! وأن معرفته بمصر جاءت بالقراءه والمشاهدة والاستماع. أعتقد هذا هو وضع الكثير من مواطنى الدول العربية، وقبل أن أنهى مقالتى أود أن أستشهد بكلمات من حديث الرئيس مبارك إلى المثقفين فى معرض القاهره الدولى للكتاب فى دورته الـ35 يناير الماضى عندما قال: استطاعت مصر عبر تاريخها أن تكون حالة حضارية وثقافية خاصة ومتفردة أثرت الحياة الثقافية العربية، أثرت فيها وشكلت مناخا مثاليا لجميع المفكرين والمعلمين والمثقفين العرب والمصريين، فبدأت النهضة الحديثة من مصر، وانطلقت منها بعد ذلك إلى بقية الأقطار العربية والإسلامية.

«المركز الدولى لمصر فى عيون ابن بطوطة»

فى شهر واحد، وهو شهر مايو 2004 شهد المغرب حدثين مهمين قدمهما المركز الثقافى المصرى بالرباط، اولهما معرض عطور مصر القديمة، أو اكتشاف العطر الذى اقيم على مدى شهر كامل بالتعاون مع المعهد الثقافى الفرنسى بالرباط، اما الحدث الثانى فكانت الندوة الكبرى التى اقيمت بمناسبة مرور 700 عام على ميلاد الرحالة المغربى ابن بطوطة والتي قام فيها بزيارة طويلة إلى مصر تحدث عن اهم مدنها وخصائصها، فكان بحق شهرا مثيرا جمع بين مصر القديمة ومجدها العلمى وبين مصر ودورها الدولى فى العصور الوسطى اثناء رحلة ابن بطوطة.

وسأركز فى هذا المقال على الحدث الثانى الذى شهدته مدينة الرباط على ارض المركز الثقافى المصرى وهو تلك الندوة المهمة بعنوان «مصر فى عيون ابن بطوطة» بمناسبة مرور 700 عام على ميلاد الرحالة المغربى الكبير ابن بطوطةوالتى نظمها المركز يوم الخميس 20 مايو بدعم من منظمة الايسيسكو ووزارة الثقافة المصرية ودعى اليها من مصر د.حسين نصار استاذ الادب العربى بكلية اداب القاهرة والحائز على جائزة فيصل فى الاداب هذا العام ومن المغرب

كل من الاساتذة د.عبد الهادى التازى ود.محمد بن شريفة عضوى اكاديمية المملكة المغربية وحضرها السفير المصرى اشرف زعزع وعدد من السفراء العرب المعتمدين لدى المملكة كما حضرها الدكتور عباس الجيرارى مستشار جلالة الملك محمد السادس...وفى امسية ثقافية بدأت بعرض قدمه كاتب المقال لمدة عشرة دقائق على جهاز عرض المعلومات حكى فيها تفاصيل رحلة ابن بطوطة إلى مصر افرد فيه العديد من الصور لما رآه ابن بطوطة خلال رحلته إلى مصر...

ثم كانت البداية بمداخلة د.حسين نصار الذى اعتبر من جهته، أن الرحلة كانت أمرا طبيعيا عند العرب الذين عرفوا الرحلات البرية »الجزيرة العربية« والبحرية »البحرين وعمان..« وكذا الرحلات الدينية والاقتصادية والعلمية والإدارية ولعوامل شخصية أو حتى خيالية مما جعل الأدب العربى من أغنى الآداب بفن الرحلة....كما اعتبر د. حسين نصار أن من أهم أسباب تيسير الرحلات الشعور بالأخوة وحث الإسلام على السفر للحج وطلب الرزق وتخفيفه الأعباء الدينية على المسافر ويسر الزواج خلال السفر وانتشار اللغة العربية...ومما لفت نظره فى رحلة ابن بطوطة تأكيده على ضبط أسماء الأماكن والأعلام من أمراء وأعيان وعمائر المدن ومساحتها وموقعها وإنتاجها وطيورها وحيواناتها ومقابرها ومآثرها مشيرا إلى شك الباحثين والمحققين حاليا فى ثناء »رحلة ابن بطوطة« على كل مدينة كبيرة يصفها إذ اعتبروا أنها قد تكون من وضع ابن جزى الذى كتب ما أملاه عليه الرحالة المغربى كما أشار إلى أن ابن بطوطة ربما لم يشاهد

الأهرام بتاتا وأن وصفها فى »الرحلة« قد يكون من وضع ابن جزى لأنه وصف » غير دقيق «.

وفى مداخلة بعنوان «مصر القاهرة فى عيون الرحالين المغاربة» أكد الأستاذ محمد بنشريفة، من جانبه، أن عددا كبيرا من الرحالين المغاربة من أمثال ابن رشيد السبتى والقاسم السبتى والبلوى والناصرى والعياشى اهتموا أساسا لدى حلولهم بأرض مصر بلقاء العلماء وانبهروا بفخامة القاهرة وكثرة ساكنتها وتعدد عجائبها. وأضاف بنشريفة أن هؤلاء الرحالين توقفوا أيضا عند المارستانات، والقرافات »مدينة الموتى كما أسماها المستشرق.ماسينيون« والتى اعتبرها الرحالة ابن جبير »إحدى عجائب الدنيا « كما توقفوا عند الزوايا »الخوانق« التى يأوى إليها الحجيج وأبناء السبيل وطلاب العلم والتى يهتم بها الأمراء والأعيان بالحرص على إطعام وكسوة وراحة مريدى كل طائفة من الطوائف التى تشكلها.....وأشار إلى حديث الرحالة المغاربة عن أماكن التنزه فى الأعياد لدى المصريين ومضغ قصب السكر والحليوات وغيرها مما لم يكن مألوفا فى بلادهم منتقدين على الخصوص نظام الجمارك الذى كان متبعا بالإسكندرية الذى كان يعرضهم للتفتيش »حالة ابن جبير مثلا«. كما تحدث د. بن شريفة عن وصف الرحالة المغربى القديم أبو حامد لمسلات عين شمس التى تعود للحقبة الفرعونية من تاريخ مصر والتى تحظى حاليا إلى جانب أهرام الجيزة وسقارة ومنارة الإسكندرية باهتمام أوفر مما عداها. كما تحدث عن وصف الحسن الوزان الفاسى الدقيق فى كتابه »وصف

مصر« للمكارين الذين يعيشون من كراء الحمير » المدربة على أن تمشى هونا « والمخصصة لركوب الأعيان مشيرا إلى أن وصف الرحالة ابن سعيد المغربى »القرن السابع الهجري« لمشاهداته بمصر تراوح بين الإعجاب والنقد.

وأخيرا كانت مداخلة الدكتور عبد الهادى التازى بعنوان المركز الدولى لمصر من خلال رحلة ابن بطوطة حيث تحدث قائلا: أن الرحالة المغربى ابن بطوطة لم يكن مجرد رحالة يجوب الأرض ولكنه كان بمثابة سفير متنقل لبلاده، يعرف بها ويحمل إليها ما جد من تطورات فى الجهات الأخرى وخاصة فى دولة المماليك بمصر التى كانت حليفا قويا للمملكة المغربية مشيرا إلى التشابه القوى بين التاريخ القديم لمصر وبلاد المغرب. وقال التازي، إن ابن بطوطة استعرض مظاهر الدولة الكبرى فى مصر، والتى كانت تتجلى فى مؤسساتها الحضارية والعمرانية، وفى تنظيماتها السياسية المحكمة، وفى توفيرها الأمن الوطنى والغذائى والثقافى أيضا على مدى مساحة واسعة عريضة.....وأضاف أن هذه المظاهر كانت تتجلى أيضا فى الجانب السياسى الذى كان يظهر بصفة واضحة فى البعثات الديبلوماسية التى كانت ترسلها مصر إلى الجهات الأخرى أو تتقبلها من الجهات النائية حيث ازدهر ما أسماه بالأدب الإدارى للدولة«. وفى هذا الصدد، ذكر د. التازى بأمر الرسائل التى كانت مصر تتبادلها مع الأمم الأخرى خاصة مع المغرب مما توجد نصوصه فى المصادر الأساسية وأشار إليه ابن بطوطة فى معرض حديثه عن مقاومة الدولة المصرية

للتحديات التى تهددها من قبل التتر على على نحو ما كان المغرب يقوم به من كفاح ضد حركات التوسع التى ظهرت ضده من لدن ملكة قشتالة....كما تحدث الباحث عن وسائل الاتصال السريع التى كانت متوفرة فى مصر انطلاقا من الحمام الزاجل الذى كان يحتاج إليه فى بعض الظروف الصعبة وانتهاء بالبريد الذى يعتمد على السير مذكرا بأهمية سرعة النبإ فى بناء الدول عبر التاريخ باعتبار أن »الدولة هى الاتصال والاتصال هو الدولة « مشيرا إلى رواق المغاربة بالأزهر الشريف الذى اعتبره مركزا ثقافيا للمغرب فى مصر.....وأشار التازى إلى أن ابن بطوطة لم يقتصر فى حديثه حول مصر، على ما كان يراه هو بهذا البلد، ولكن على أصداء مصر فى الجهات التى كان يزورها مقدما ملك مصر على أنه أحد الأقطاب السبعة الذين كانوا يحكمون عالم الأمس إلى جانب ملوك المغرب والعراق والهند والصين وخوارزم وتركستان. ودعا المحاضر إلى وجوب الاستفادة من رحلة ابن بطوطة لكتابة تاريخ العرب مبرزا حاجة الرحلة الماسة إلى فيلم من مستوى رفيع يليق بعظمة الرحلة وصاحبها الذى أصبح تراثا عالميا يحظى بالتقدير والإكبار من الجميع مشيرا إلى مصداقية ابن بطوطة فيما كان يرويه إذ أن الحقيقة تكشف يوما عن يوم أنه كان قمة فيما يسجله من أحداث وخاصة ما يتعلق بالتاريخ الدولى لدار الإسلام فى العصر الوسيط.

التعريب وأزمته المستحكمة

لقد برهنت اللغة العربية على قوتها فى العصور الخالية، وأنها بقيت لغة العلم الوحيدة حتى القرن15، وأكد الكثيرون من اللغويين مقدرة اللغة العربية على استيعاب جميع المصطلحات العاطفية والفلسفية والعلمية، والدقة المتناهية فيما يقع تحت الحس ويجول بالخواطر، وإن وحدة اللغة تحقق وحدة التفكير، ووحدة التفكير تحقق وحدة الأمة، كل الأمة، فى عصر لم يبق للقوميات الصغيرة مكان فيه، والشاهد اليوم، المحاولات القوية التى تجرى فى العالم هنا وهناك لتكوين تكتلات سياسية واقتصادية، بالرغم من تبادين لغات هذه البلدان.. نحن لسنا فى حاجة لاختراع لغة جديدة تجمع بيننا، وبشىء من العناية يمكن للغة العربية أن تكون عاملا مهما فى وحدتنا، كما كانت على مر العصور.

لقد دفعنى لكتابة هذا المقال ثلاثة أحداث، الأول هو انعقاد ندوة كبيرة بالرباط بعنوان العربية فى الإشهار والواجهة، ونظمها معهد الدراسات والأبحاث للتعريب، وهو تابع لجامعة محمد الخامس، كبرى الجامعات المغربية، والحدث الثانى هو أن المركز الثقافى المصرى بالرباط نظم ندوة بعنوان: «الرقم العربى بين الحقيقة والافتراء»، تراسها

المفكر العراقى د. على القاسمي، وشارك فيها من مصر د. محمد يونس الحملاوي، ومن المغرب د. عبد الرازق تورابي، أما الحدث الثالث، فهو أننى تلقيت منذ أسبوع نسخة من الكتاب القيم، الذى قدمه للمكتبة العربية، الصديق العزيز وأستاذى د. محمود المناوى بعنوان أزمة التعريب.

أما عن الحدث الأول الخاص بندوة العربية فى الإشهار والواجهة، فهى ندوة قيمت على أنها واحدة من أهم الندوات، التى عقدت فى الفترة الأخيرة تعنى بالإشهار أو الإعلان، حيث إن الإعلان بات اليوم يشكل ضرورة وظيفية للترويج للبضائع والخدمات، ويقوم بدور أساسى فى توجيه الحياة المعاصرة، مما عزز من موقعه داخل النسيج العام للمجتمع الحديث، وبالطبع لا يمكن أن ننكر أن الإعلان قوى حضوره بتزايد القنوات التليفزيونية من أرضية وفضائية، وإذاعة وصحف، ولأن الإعلان يستمد قدرته على خلق الأذواق والمواقف والسلوكيات والتأثير فيها، فإن توظيف لغة الإعلان يطرح قضايا عديدة تثير بالتالى نقاشات حادة حول اللاتوازنات اللغوية ومشروعيتها وعلاقاتها بالمشروع المجتمعى العربي، ودور اللغة العربية، اللغة الرسمية لكل البلاد العربية. لقد سعى هذا اللقاء حقيقة إلى مناقشة عدد من الأسئلة والقضايا المهمة، التى تتعلق بأزمة اللغة العربية فى بلادها، منها: ما هى الإجراءات اللغوية، التى يجب أن تتخذ لتنظيم الاستعمال الأمثل للغة العربية فى الملصقات واللوحات الإعلانية، لماذا يتم الإصرار على مخاطبة المستهلك العربى بغير اللغة العربية،

وهل يحرص مصممو الإعلانات على الاستعمال الجيد والسليم للغة العربية حرصهم على إتقان الصورة والألوان، وهل يمكن إقامة تشريع لغوي، ويمكن من وضع ضوابط استعمال اللغة العربية فى الواجهة، ووضع آليات إلزامية لتنفيذ هذه الالتزامات، وأخيرا كيف نجعل اللغة العربية لغة إعلان وإشهار وخدمات، وبالتالى لغة اقتصاد ومال، وتضمنت الندوة عدة مشاركات بعناوين مهمة، منها كتابة الأسماء التجارية الأجنبية بالحرف العربى فى الواجهات والإشهار حفظ اللغة العربية بين الشرع والقانون، قبل أن تشيع اللغة الفرنسية لكاتب المقال، وشعرية الخطاب الإشهارى، والتى تضمنت لوحات إشهارية من الشعر العربى القديم.

أما الحدث الثاني، وهو الندوة، التى نظمها المركز الثقافى المصرى بالرباط بعنوان الرقم العربى بين الحقيقه والافتراء، وحدث فيها ما يشبه المناظرة كان طرفاها الدكتور يونس الحملاوي، أستاذ الحاسبات بجامعه الأزهر وأمين عام الجمعية المصرية لتعريب العلوم، الذى أوضح أن الأرقام المستخدمة فى المشرق العربي، والمسماه بالأرقام العربية هى أرقام أوروبية هجينة تولدت من احتياجات الحضارة الأوروبية، وتحمل سماتها وإن كانت صورت عن الأرقام العربية الأصيلة، وإن هذا الأمر تم حسمه مؤخرا بقرار من اتحاد المجامع اللغوية العربية يدعو فيها لاستعمال الأرقام المشرقية المعروفة بالهندية طالما لا يوجد عالم لغوى هندى واحد ينسبها إلى حضارة بلاده، وفى الجانب المعارض أو المدافع عن الأرقام المستخدمة فى المغرب العربى كان

الدكتور عبد الرازق الترابي، الحاصل على الدكتوراه فى الإسلاميات، وعضو هيئة تحرير مجلة أبحاث اللسانيات، الذى أوضح أن الأرقام المستخدمة فى المغرب العربى هى وحدها العربية، التى توصل إليها أهل الأندلس، وانتقلت منهم إلى أوروبا باعتراف الأوروبيين أنفسهم، وقدم ورقه توضح الرسوم، التى توضح تطور هذه الأرقام فى الأندلس حتى أخذت شكلها الحالي، ووصف الدكتور الحملاوى هذه الرسوم أو الأشكال بأنها مجرد تكهن لا تدعمه أى مخطوطات عن التراث العربى الأندلسى تم استخدامها فيه، وقد اتخذ دور الحكم بينهما الدكتور على القاسمى الكاتب والباحث العراقى المقيم فى المغرب، الذى اختاره مؤخرا مجمع اللغة العربية عضوا مراسلا عن العراق، الذى وجد نفسه حائرا بين حجج الطرفين، التى تبدو متساوية فى قوتها ومنطقها، والتى تجاوزت أصل الرقم إلى الدفاع عن مزايا استخدامه، فبينما يعتبر الدكتور الحملاوى الرقم المشرقى أكثر تجانسا وتوافقا مع اللغة العربية، خاصة فى منظومة الكومبيوتر، يعتبر الدكتو التورابى الرقم اللاتينى أكثر توافقا مع زمن العولمة. لا مجال هنا إلى سوق حجج الطرفين، والتى زادتها المناقشات التى شارك فيها الحضور قوة أو ضعفا، ولكن الذى استرعى انتباهى هو وجود شبه اتفاق على أن شكل الصفر فى الرقم المشرقي، والذى يعبر عنه بنقطة قد تختلط من النقطة، التى توضع فى نهايه الجملة، وهذا الشكل يمثل نقطة ضعف بالنسبة للأرقام المشرقية، ودافع الدكتور الحملاوى بالقول إنه يمكن تجنب هذا الخلط عندما يوضع

الصفر فى وسط الرقم السابق له وليس على السطر وأنه لو تم استخدام الدائرة المجوفة المعبرة عن الصفر فى الأرقام اللاتينية لما أمكن التمييز بينها وبين رقم خمسة في الأرقام العربية المشرقيهة.

أما الحدث الثالث، وهو الذى أقف عنده باحترام، مقدرا للدور المهم، الذى أسداه الفاضل الدكتور محمود المناوي، الذى تشرفت بالعمل معه فى العديد من اللقاءات العلمية فى مجال التراث، عندما اختير عضوا فى مجلس إدارة مركز التراث العلمى بكليه العلوم، وعندما تزاملنا معا فى اللجنة القومية لتاريخ وفلسفه العلوم، أقول لقد قدم د. المناوى كتابا قيما بعنوان أزمة التعريب طاف فيه وبنا بالعديد من المحطات التاريخية، التى أفرد فيها الكثير عن دور روادنا الأوائل، والذين كان لهم الفضل الأول فى شد الانتباه إلى الاهتمام بالعربية كلغة علم ودين، وما بين دعوة مصطفى مشرفة فى الثلاثينيات لأهمية التعريب مرورا بأستاذنا د. شوقى ضيف، الذى نادى بتوحيد المصطلح العلمي، وعالمنا الجليل د. محمود حافظ، الذى أرخ للدعوات التى ظهرت فى مصر والتى نادت بتعريب العلوم، وعرج بنا د. المناوى إلى تلك الجهود المضنية المصرية والعربية من أجل الخروج من الدائرة المفرغة فى قضية تعريب العلوم، والطب منها على وجه الخصوص بدءا من إنشاء مدرسة أبو زعبل مرورا بجهود وإنجازات الجمعية المصرية لتعريب العلوم انتهاء بما قام ويقوم به مجمع اللغة العربية بالقاهرة.

إن قضية اللغة العربية فى مواجهة تحديات العولمة، وثورة الاتصال

والقنوات الفضائية، والسبق العلمى وثورة الهندسة الوراثية، وغيرها من الطفرات العلمية، التى طالما نتتبعها صباحا ومساء لم تعد مسألة اختيار أن نقبل وأن نرفض ذلك، وأن الأمر يحتاج من العقل العربى أن يحدد الأوليات للمحافظة على أحد ثوابت الشخصية العربية، وإحدى الدعائم والركائز الأساسية فى بناء الإنسان العربى المعاصر، فاللغة هى وعاء الفكر، وإن هناك علاقة جدلية بين اللغة، وتصور القضايا والمشكلات، فاللغة الجيدة تعبر عن الفكر الجيد، والأمم الجادة هى التى تعنى بلغتها وترسم المناهج الملائمه للمحافظة عليها، وإذا لم نفق من الآن فسياتى اليوم، الذى نعرف أننا مقصرون فى أداء الأمانة، وسيحاسبنا الله، ثم التاريخ، وفيما أعتقد أنه لا مفر أمامنا الآن، إلا أن نولى هذا الأمر من الأهميه مثلما نهتم بالمأكل والمشرب.

مرور 700 عام على ميلاد الرحالة المغربى الشهير ابن بطوطة

ومرور ثمانى سنوات على وفاة المؤرخ المصرى الكبير حسين مؤنس

بمناسبة ذكرى مرور 7 قرون على ميلاد الرحالة المغربى ابن بطوطة، والتى حلت فى 24 فبراير 2004 قررت منظمة اليونسكو الانضمام إلى هيئات ومؤسسات عديدة مغربية ودولية من أجل الاحتفاء به، وتأكيد المكانة الدولية العظيمة، التى حظى بها، بعد صدور أكثر من 30 ترجمة لمؤلفه وروايات أسفاره، ليصبح العام 2004 هو عام ابن بطوطة فى المغرب، كما ستعقد ندوة كبرى بباريس فى يونيو

القادم بعنوان «ابن بطوطة والحوار بين الثقافات»، دعى إليها العديد من الشخصيات العالمية من الشرق والغرب.

لقد طبع ابن بطوطة الرحلة فى القرن الرابع عشر (الثامن هجرى) بشخصيته القوية النابضة المتطلعة إلى كل ما حوله بشوق دائم، حيث قضى ثمانية وعشرين عاما يذرع شرق الأرض وغربها، حين بدأ رحلته من طنجة، وسار إلى مصر بطريق شمال إفريقيا، ثم زار الشام وأتم الحج وتنقل فى فارس وبلاد العرب، ووصل إلى شرق إفريقيا، وقام بعد ذلك بزيارة القرم وحوض الفواغا الأدنى ودخل القسطنطينية، فاحتفى به ملكها قسطنطين الرابع (1344 1363)، واتجه بعدها شرقا إلى خوارزم وبخارى وتركستان وأفغانستان والهند، وهناك خدم لدى ملك دلهى ثمانى سنوات، وتعرف إلى جزر المديف، وبعض جزر الهند الشرقية والصين، واخيرا عاد إلى طنجة، وبعد هذه الرحلة الطويلة (725 750 / 1325 1349) قام برحلتين قصيرتين نسبيا، الأولى فى الأندلس فى حدود سنة 1350/751 والثانية إلى السودان العربى ودامت نحو سنتين، بدأها سنة 752 / 1352، وفى هذه الرحلة وصل إلى تمبكتو، وأبحر فى نهر النيجر وعاد إلى فارس بطريق الصحراء الكبرى، وقدرت المسافة، التى قطعها ابن بطوطة فى أسفاره بنحو 120,000 كيلو متر، ولأول مرة يجرب رحالة ألا يقطع طريقا مرتين، حيث نجح فى ذلك إلا فيما ندر، ولا يعرف تاريخ الرحلات من اجتاز مثل هذه المسافة قبل العصور الحديثة، ما حدا بالمؤرخين أن يعتبروا ابن بطوطة رحالة محترفا.

ولد أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن إبراهيم الطنجى فى مدينة طنجة، فى يوم الاثنين السابع عشر من شهر رجب سنة 703 هجرية الرابع والعشرين من فبراير سنة 1304 ميلادية، لأب من أوساط الناس، أما ابن بطوطة، فهو الاسم الذى اشتهر به، وعند العامة ابن بطبوطة، وتنتشر قبيلته البربرية بدءا من طنجة بالمغرب حتى ليبيا، إلا أن مهارته فى الأسفار لا تتوافق مع قدرته فى الكتابة من هنا اعتمد على سرد رحلته شفهيا وما صادفه من عجائب الأسفار للبلدان، التى مر بها وزارها على كاتبه محمد بن جزى الكلبي، وهو عربي، ويرجح أنه فلسطينى الأصل هاجر إلى غرناطة، وابن بطوطة كان فقيها عالما، جرى على تقليد أسرته التى عرفت باشتغالها بالعلوم الشرعية، وعرف له فضله، فقدموه قاضيا عليهم، وهم بعد فى تونس فى طريقهم إلى مصر وقد ولى القضاء فى جزائر ملديف أيضا.

لم يكن ابن بطوطة جغرافيا، فهو لم يهتم بالأقطار إلا قليلا، وحتى المدن جاء وصفه لها باعتبار ما يقطنها من الناس، الذين كانوا موضع اهتمامه. ولذلك فهو يفيدنا فى التاريخ والاجتماع أكثر مما يفيدنا فى الجغرافيا، وجاء ترتيب أسفاره غير واضح، يعزيه المؤخون لسببين، أولهما أنه أملى أخباره بعد مدة طويلة من انتهاء أسفاره، وكان فقد أوراقه، وأما الثانى فهو أن الرجل لم يكن يعنيه المكان حتى ينتبه له بشكل خاص، فقد كان المهم عنده ما انطبع فى ذهنه من أثر لمن يقيم فى مكان ما، أكثر من اهتمامه بالصفة الطبيعية للمكان نفسه.

وبدأ ابن بطوطة رحلته إلى المشرق فى رجب 725/ 1325 بعد أن كان تفقه فى علوم عصره الشرعية، متأثرا فى ذلك بأسرته وبلده.

ومن الاشياء المثيرة للاهتمام أنه استفاض فى وصف مصر بدءا من الإسكندرية ودمياط والقاهرة والصالحية وطريق البحر الأحمر واستطرد أيضا فى وصف مصر العليا والصعيد: إسنا وأرمنت والأقصر وقوص وقنا واخميم وأسيوط ومنفلوط وملوي، والأشمونين والمنيا والبهنسا، وبوش والعياط.

هذا، وسيشارك المركز الثقافى المصرى بالرباط فى الاحتفاء بالرحالة المغربى بندوة كبرى جارى الإعداد لها لتقام فى نهاية شهر مايو 2004 بعنوان «ابن بطوطة فى مصر» سيشارك فيها من المغرب الدكتور عبد الهادى التازى، والدكتور محمد بن شريفة، ومن مصر الدكتور حسين نصار ويعد عرضا بالصور عن المدن، التى زارها ابن بطوطة، وانطباعته على كل مدينة.

أما الذكرى الثانية التى حلت فى 17 مارس الماضى، فهى لواحد من كتبوا وبرعوا فى الكتابة عن رحلة ابن بطوطة، ألا وهى ذكرى مرور 8 سنوات على وفاة الدكتور حسين مؤنس، الذى يعتبر من أبرع المؤرخين المصريين فى العصر الحديث، والذين خرجوا من أرض الكنانة وسار على خطى الطبرى والمسعودى وابن الأثير والمقريزى وعلى دربهم نهج وكتب، وهو يقف أمة وحده بين مؤرخى العرب المحدثين، فقد كتب عن عصور مختلفة وحقب متنوعة امتدت لتشمل أربعة عشر قرنًا

من الزمان، تحيط بأرض الإسلام من الصين حتى المغرب، ومن جنوبى أوروبا حتى وسط إفريقيا، لم يترك المؤرخ الكبير كتابًا أو اثنين، بل ترك تراثًا ضخمًا، وإنتاجًا زاخما، يكفى بضعة منه ليجعل صاحبه يتبوأ مكانة عالية بين كبار المؤرخين.

وكما يقول الكاتب الكبير رجب البنا: إن الدكتور حسين مؤنس كان شخصية نادرة فى عمق ثقافتها، وأصالة تفكيرها، وحبها لكل ما هو مصري، وكل ما هو عربى وكل ما هو إسلامي، رغم أنه تعلم وعاش فى أوروبا طويلا ولم يمنعه حرصه على الحياد العلمى والموضوعية والنزاهة العلمية كأستاذ جامعى من أن يترك لمشاعره العنان حين يتعامل مع الناس والمجتمع بروح الفنان ونزعة الفيلسوف، وهو بذلك من القلة القليلة من أساتذة الجيل الماضي، الذين استطاعوا الجمع بين روح العلم وروح الفن بعبقرية تثير الدهشة، دون أن تؤثر مشاعرهم الوطنية وانحيازاتهم لمجتمعهم فى حرصهم الشديد على التزام المنهج العلمى فى أبحاثهم الأكاديمية، ولذلك فإن شخصية الدكتور حسين مؤنس كباحث وأستاذ تختلف عن شخصيته ككاتب مقال سياسى واجتماعى أسبوعي.

أما عن مولده، فكان فى مدينة السويس فى 28 أغسطس 1911م، حيث نشأ فى أسرة كريمة، وتعهده أبوه بالتربية والتعليم، فشب محبًا للعلم، مفطورًا على التفوق والصدارة، ونال الشهادة الثانوية فى التاسعة عشرة من عمره، حيث جذبته إليها كلية الآداب بمن كان فيها من أعلام النهضة الأدبية والفكرية، وهناك التحق بقسم

التاريخ، ولفت بجده ودأبه فى البحث أساتذته، وتخرج منها سنة 1934م، وبرغم تفوقه لم يعين بعد تخرجه فى الكلية، وفى عام 1937 حصل على درجة الماجستير برسالة عنوانها "فتح العرب للمغرب"، عين بعدها فى الجامعة، ثم لم يلبث أن ابتعث إلى فرنسا لاستكمال دراسته العليا بجامعة باريس، وحصل منها سنة 1938م على دبلوم دراسات العصور الوسطى، وفى السنة التالية، حصل على دبلوم فى الدراسات التاريخية من مدرسة الدراسات العليا، وعندما نشبت الحرب العالمية الثانية لم يستطع إكمال ما بدأه، فغادر فرنسا إلى سويسرا، وهناك أكمل دراسته فى جامعة زيوريخ، ونجح فى الحصول على درجة الدكتوراه فى علم التاريخ سنة 1943م، وعين مدرسًا بها فى معهد الأبحاث الخارجية، الذى كان يتبع الجامعة، وفى عام 1945 عاد إلى مصر وعين مدرسًا بقسم التاريخ بكلية الآداب، وأخذ يرقى فى وظائفه العلمية حتى عين أستاذًا للتاريخ الإسلامى فى سنة 1954م، وكانت له أياد بيضاء وجهود طيبة يذكرها كل من عمل فى المكاتب والمراكز الثقافية فى الخارج، وذلك عندما كلف إلى جانب عمله بالجامعة ليتولى إدارة الثقافة بوزارة التربية والتعليم سنة 1955م؛ وهى إدارة كبيرة كانت تتبعها إدارات مختلفة للنشر والترجمة والتعاون العربي، والعلاقات الثقافية الخارجية، فنهض بها، وبث فيها حركة ونشاطًا. (دراسة لأحمد تمام).

وفى عام 1950 افتتح فى مدريد المعهد المصرى للدراسات الإسلامية والذى كان وراء إنشائه الدكتور طه حسين، بهدف توثيق

العلاقات بين مصر وإسبانيا، التى عاش المسلمون فى رحابها نحو عشرة قرون، وكان أول مدير لهذا المعهد هو الدكتور محمد عبد الهادى أبو ريدة، أستاذ الفلسفة بجامعة القاهرة، وفى عام 1954 تولى الدكتور حسين مؤنس إدارة المعهد ومكث به عامًا نهض به، واستكمل مكتبته حتى أصبحت من أغنى المكتبات العربية فى إسبانيا، وأشرف على مجلة المعهد، وأرسى قواعد النشر بها فى قسميها العربى والأوروبي، ثم عاد إلى القاهرة، وفى 1958 عاد مرة أخرى إلى إسبانيا ليتولى إدارة المعهد المصرى بها، وظل هناك حتى بلوغه سن التعاقد عام 1969 وتعد هذه الفترة من أزهى عصور المعهد المصرى هناك، فأصبح ملتقى للمستشرقين وأساتذة الجامعة المهتمين بتاريخ المسلمين فى الأندلس، وأقبل عدد كبير من الطلاب على دروس اللغة العربية، التى ينظمها المعهد، وتردد الجمهور على المحاضرات والندوات التى تعقد، وصارت مجلة المعهد معرضًا لما حفلت به من أبحاث عميقة، تدور حول التاريخ والحضارة فى الأندلس، ونشطت مطبوعات المعهد، سواء ما كان بالعربية أو بالإسبانية، وكان يقف وراء هذا النشاط حسين مؤنس ويعاونه فى إدارته العالم الكبير محمود على مكي، الذى كان يتولى وكالة المعهد.

وبعد بلوغه سن التقاعد عاد إلى مصر حيث دعته جامعة الكويت ليعمل بها أستاذًا للتاريخ، ومكث هناك ثمانى سنوات حتى 1977 حفلت بمختلف النشاط العلمي، ولما عاد اشتغل أستاذًا غير متفرغ بجامعة القاهرة فى قسم التاريخ، الذى بدأ حياته العلمية فيه،

وفى الوقت نفسه دعته مؤسسة الهلال الصحيفة، ليتولى رئاسة تحرير مجلة الهلال أقدم المجلات الأدبية فى العالم العربي، حيث نهض بها وطور فى شكلها ونظام إخراجها وجدد فى تبويبها، وكانت افتتاحياته قطعا أدبية رائعة تحمل خبرته وثقافته التى حصلها فى عمره المديد، ثم انتقل بعد ذلك إلى مجلة أكتوبر الأسبوعية، وظل يكتب بها حتى وفاته، وكانت مقالاته بالمجلة من أروع وأجمل ما ازدانت به هذه الصحيفة.

هذه نبذة عن الرجل، الذى كان واحدا من أبناء مصر البررة، والذى كتب بحروف من نور أزهى صفحات التاريخ عندما دخله جنديا فى كتيبة صناع الثقافة العربية فى هذا القرن، بل هو منهم فى القلب، بل فى الطليعة، وستبقى أعماله العلمية والتاريخية والأدبية، تأليفا وترجمة وتحقيقا، على مر الزمن شاهدة على الرجل رحمة الله عليه.

الترويج لاستضافة مصر لمونديال 2010

ودور محتمل للمكاتب والمراكز الثقافية المصرية بالخارج

أدركت مصر منذ القدم أهمية الاتصال مع سائر الشعوب والحضارات، وسعت دائما إلى توطيد علاقاتها الثقافية مع جيرانها، وخير دليل على ذلك مكتبة الإسكندرية القديمة، التى كانت منارة للعلم، تستقبل طلابه، وتنشر نورها على العالم القديم.

وفى العصر الحديث استمر هذا الإدراك، ونما سعى مصر إلى تنمية علاقاتها الثقافية مع مختلف دول العالم، وذلك من خلال قنوات عديدة، من بينها إنشاء المراكز والمكاتب الثقافية، التى تمثل نوافذ حضارية يتم فيها المزيد من التعارف وتبادل الثقافات، واليوم ينتشر فى دول العالم حوالى 30 مركزا ومكتبا ثقافيا مصريا تقدم خدماتها تحت مظلة السفارات المصرية فى تلك الدول، حيث تؤدى دورها فى تعميق وتقوية العلاقات الثقافية والعلمية والشبابية والرياضية بين مصر وشعوب هذه الدول من خلال إيجاد الوسائل المناسبة لهذا الاتصال، ومن أهدافها تقديم صورة حية عن الأنشطة التى تجرى على أرض مصر لمجتمعات هذه الدول، وكذلك المشاركة فى المناسبات

الثقافية المختلفة التى تجرى على ارض تلك الدول ومثيلاتها فى مصر
كما أنها تعمل على تفعيل الاتفاقيات، التى تعقد بين المؤسسات
العلمية والثقافية فى مصر وتلك الدول، وعدد منها يشرف على
البعثات التعليمية، وبذلك فإنها تعمل كنقطة اتصال أولى بجهات
الدولة المختلفة ومثيلاتها فى الدول الخارجية.

ولآن الفيفا أعلنت أن مونديال 2010 خصت به قارة إفريقيا، ولأن
مصر هى رائدة الرياضة فى القارة الإفريقية، فكان لا بد أن يكون
الشرف لها وبها مهما كانت الظروف، ولا يمكن أن تسمح للحظة
جموع الشعب المصرى أن تتقاعس همة مصر من التقدم بتنظيم
هذا الحدث العالمى الكبير والحمد لله، فقد تم الإعلان الرسمى من
خلال السيد وزير الشباب بدخول مصر رسميا معترك المنافسة على
استضافه مونديال2010 الكروي، وهذا الإعلان معناه أنه قرار دولة،
وليس قرارا منفردا من السيد وزير الشباب، وهذا يعنى أن مؤسسات
الدولة عليها دور الآن لا بد من القيام به، وإلا فلا معنى إطلاقا لكل
هذا الجهد المبذول، وبدا أن حلم جميع فئات الشعب المصرى أن تقام
أعظم بطولات كرة القدم على أرض مصر اقترب من أن يصبح حقيقة،
ولأن التحدي، الذى بدأت مصر تستعد لمواجهته لكسب هذا الشرف
يتطلب ماديا الكثير من المنشآت الرياضية والاستادات والفنادق فى
مختلف أنحاء مصر وأيضا إلى شبكة طرق ومواصلات، وأثبتت
كل الأحداث الجسام والتحديات، التى واجهتها مصر سابقا أنها
قادرة على النجاح وبتفوق إذا ما تمت إدارة وتنظيم العمل بالكيفية

المناسبة لهذا الحدث، ولنتعلم من خبرات الدول، التى سبقتنا فى تنظيم مثل هذه البطولات الكبرى.

وصوتى مجرد صوت مصرى يود أن يضيف لماكينة إدارة هذا العمل ترسا، والكل مدعو لأن يضيف بحبه وروحه إلى مصر. يبدو أن قضيه ملف كأس العالم احتلت الرصيد الأكبر من اهتمام المصريين على شتى اتجاهاتهم وأماكن وجودهم بالداخل والخارج، وفى سبيله ليتحول إلى رأى عام مصري، وإن لم يحدث للآن، ربما لأنه حتى الآن لم يعرف كل واحد منا دوره فيه، وتلك مسألة ليست سهلة، وإن كنا خضنا تجربة بناء السد العالي، ورأينا كيف تجمع الشعب على هدف واحد وانتشرت لوحات تحث وتعرف الشعب عما تبقى بالسنة والشهر واليوم من تحقيق الإنجاز! . إن تجميع الرأى العام فى وطن على هدف قضيه لها تفاصيلها الكثيرة جدا وتتطلب إمكانات الوطن كله، وليس وزارة أو مؤسسة، والمعروف أن الإمكانات ليست كلها المال، إنما هناك إمكانات أخرى تفوقه فى الأهمية. إن الدولة ممثلة فى وزاراتها وهيئاتها عليها مهمة البداية إلى أن يشعر الناس فى كل مكان على أرض مصر بأن الموضوع جد.. وقتها أعتقد أن الغرض سوف يتحقق بمشيئة الله.

إن جالياتنا المصرية فى كل بلاد العالم هم ثروة وقيمة وورقة ضغط ووسيلة صنع رأى عام فى كل بلد لو عرفنا كيف نستفيد منهم، والمسألة سهلة فيما لو خلقنا، وفورا، قنوات اتصال من خلال السفارات المصرية ومكاتبها الفنية، وعلى وجه الخصوص

المكاتب والمراكز الثقافية والمكاتب الإعلامية والتجارية. وقمنا بمدها بالمطبوعات والمعلومات والصور والC.D والأفلام التسجيلية عن مصر الحديثة والأفلام الجيدة عن آثارنا العظيمة. وحدثنا مقتنياتها. وتلك هى البداية. ولو فعلنا ذلك لأصبح لنا فى كل دوله آلاف السفراء المصريين!

إن الدور المهم. الذى يمكن أن تقوم به المكاتب والمراكز الثقافية المصرية بالخارج من أجل الترويج لهذا الملف فى الدول. التى يمثلون فيها مصر سوف يكون فرصة عظيمة لتطوير أداء عملها لتصبح بالفعل أداة فعالة فى الترويج لأحلام وتطلعات مصر. علما بأن تلك المراكز والمكاتب الثقافية يرأسها مستشارون ثقافيون أو ملحقون ثقافيون من أساتذة الجامعات المصرية ولديهم رؤى وفكر متفتح.

ولأن طبيعة عملها موجه بدرجة كبيرة إلى جماهير عريضة فى مقر الدولة التى يقيموا بها أو طلاب بعثات أو تخدم وفودا فنية ورياضية وشبابية مصرية تأتى وتروح فى إطار اتفاقيات ثقافية وفنية وعلمية وشبابية ورياضية.

وسوف أعطى مثالا حيا هنا عن كيفية الاستفادة من الوفود المصرية. التى تزور دولة مثل المغرب فى الترويج لهذا الملف المهم. بالرغم من أنها نفسها تنافس مصر على شرف استضافة هذا المونديال. إن عدد الوفود الشبابية التى زارت المغرب فقط خلال شهرى يوليو وأغسطس 2003 فى إطار تبادل شبابى بين البلدين تجاوز

أربعة وفود بالإضافة إلى وفد من الكشافة، وهذه الوفود لو أن كل عضو ارتدى تيشرت عليه تيمة المونديال، ليكون الزى الرسمى للوفد، وحمل معه هدايا تذكارية للمناسبة، وشارات تحمل علم مصر من ناحية، وتيمة المناسبة من ناحية أخرى، بحيث يتم تبادلها مع الوفود الدولية، التى تشارك معها فى تلك المعسكرات من أنحاء مختلفة من العالم بالإضافة إلى حرصها على الظهور بالمظهر اللائق لذلك الشباب المصري، الذى سوف يشارك عام 2010 فى تسيير هذا المهرجان الرياضى الكبير، وذلك من خلال التنسيق مع المراكز الثقافية المصرية المختلفة المشرفة على تلك الرحلات، سيكون مظهرا حضاريا يليق بمصر، ويمتد ذلك للوفود الفنية والفرق الاستعراضية والشعبية، التى تزور المغرب أو أى دولة بينها وبين مصر اتفاقات ثقافية.

من ناحية أخرى فإنه بات مهما أن تتزود الوفود القادمة من مصر إلى دول العالم المختلفة، التى تربطنا بها اتفاقيات ثقافية ورياضية وشبابية بوعى ثقافى ورياضى يزيد من الانتماء القومى لمصر كونهم يمثلون واجهة مصر أما عن الفرق الرياضية، التى تشارك فى مسابقات رسمية، فإن تحليهم بالسلوك المشرف والأخلاق الحميدة فى لعبهم سيعطي للمشاهد فكرة جيدة عن مصر، ولا يجب ألا نخجل من تجهيز تلك الوفود معنويا وثقافيا وقوميا.

إن معرض الصور المبهر الذى جهزته وزارة الشباب مشكورة، ويحكى عن أصل العديد من الرياضات المشهورة اليوم، ودور مصر القديمة فى نشأتها يعطى انطباعا جيدا عن مصر، وعندما عرضه

المركز الثقافى المصرى بالرباط، بعد استعارة نسخ منه من وزارة الشباب، فى مهرجانين بالمغرب جذب الانتباه لدى كل من شاهده، ولذا فإنه من المناسب أن يتم تعميم هذا المعرض على المكاتب والمراكز الثقافية فى الخارج لعرضه.

إن شبكة المجلس الأعلى للجامعات frcu فى موقعها المحدث على شبكة الإنترنت أنشأت موقعا يخص المراكز والمكاتب الثقافية المصرية جارى استكماله، سيكون ذلك بلا شك رصيد يضاف إلى موقع الملف المعد للترويج لتنظيم كأس العالم من خلال الزيارات، التى يقوم بها زوار تلك المواقع، وبالتالى فإنها فرصة جيدة لنشر أخبار تجهيزات مصر المستمرة والمتوالية.

ولكى يصبح تنظيم مونديال 2010 هدفا لكل المصريين، فلا بد أن يكون هنا رأى عام يسانده، ولكى يتم هذا يجب أن تخرج إلى النور فورا خطه عمل حكومية منظمة يكون فيها للحكومة دور، وللشعب دور، وللهيئات الخارجية دور ويصير الأمر إلى سيمفونيه متكاملة تعزف على نغمة واحدة ونشيد واحد، ولا يوجد أبدا مستحيل إذا ما توافرت الإرادة، والخبرات المصرية متعددة وكثيرة، ولكن يجب أن نفتح لها الطريق لكى تظهر، وعشرات الآلاف لديهم الفكر والقدرة والحب لمصر يستطيعوا أن يصنعوا المستحيل فقط عندما ينكر كل منا ذاته، ويضع نفسه فى خدمة وطنه بدون شعارات، فمصر عظيمة بناسها وشبابها، عظيمة بتاريخها وحضارتها وتستأهل منا الغالى والنفيس.

ندوات وحفلات تكريم

نظمها المركز الثقافى المصرى بالرباط (2001-2004)

حفل تكريم بن سالم حميش

يتحول إلى تظاهرة لتكريم نجيب محفوظ

شهد المركز الثقافى المصرى بالرباط، يوم الثلاثاء الماضى 28 يناير 2003، أمسية أدبية رائعة تم فيها تكريم الأديب والروائى المغربى د.بن سالم حميش، الفائز بجائزة نجيب محفوظ للأدب الروائى للعام 2002 فى دورتها السابعة، التى تمنحها الجامعة الأمريكية سنويا فى عيد ميلاد الأديب العالمى عن روايته «العلّامة». حيث سلم السفير أشرف زعزع، سفير جمهورية مصر العربية فى المملكة المغربية، د.حميش هدية رمزية وميدالية المركز التذكارية فى حفل حضرة ثمانية من السفراء العرب المعتمدين لدى المملكة، ومعهم سفير اليونان بالمغرب، وعدد كبير من المثقفين والكتاب المغاربة.

وفى تقليد جديد يتم اتباعه فى ندوات المركز وأمسياته الأدبية تم عمل عرض على جهاز عرض المعلومات عن الجائزة، ومن حصلوا عليها وسيرة الكاتب المغربى، وتعليقات لجنة التحكيم، التى أجازت فوزه، وكذلك تعليقات الصحف المصرية والمغربية والفرنسية قام بإعداده كاتب المقال.

لقد تحول حفل تكريم د.حميش إلى تكريم حقيقى لأستاذنا نجيب محفوظ، ففى محاضرته القيمة، التى ألقاها المحتفى به، وبدأها بالتعبير عن منتهى سروره واعتزازه بهذه الجائزة، وأن هذا السرور لم يشعر به فى ما فات من جوائز على قلتها، حصل عليها، وأنه لم يشعر بمثل هذا السرور لأن الجائزة تعطى باسم عالم عربي، ولكن هذا العالم أصبح له بعد عالمي، كما أنها أتت من مصر العربية، مصر التى فى ناظره وخاطره، وكذلك مصدر هذا الاعتزاز هو هذا الإجماع، الذى حصل ما بين النخبة أعضاء لجنة التحكيم، وعبر عن هذا التقدير الذى حظى به بأنه ليس فقط تقديرا شخصيا، ولكن هو عبارة عن التفاتة للحركة الأدبية، وعلى وجه التحديد الروائية هنا فى المغرب، وأنه تحضره بالمناسبة ابتسامات الروائى الكبير أطال الله فى عمره نجيب محفوظ عندما حصل على جائزة اسمها جائزة قوت القلوب فى بداية الأربعينيات، وكان قدرها المالى حينذاك 20 جنيها ما يعادل 40 درهما اليوم، كما أنه حصل بعد ذلك على جائزة أخرى من مجمع اللغة العربية وقدرها حينذاك كان 100 جنيه، وقال فيما يخص الجائزة الثانية أنها أكثر فائدة من فلوس جائزة نوبل، الذى حصل عليها، وقوله إن هذه الجوائز ساهمت فى رفع محتوياته وتحفيزه على السير دوما فى هذا المجال، الذى اختطه لنفسه، وهو مجال الكتابة الروائية، واستطرد قائلا: قد أقول معه نفس الشيء، لكن ثقوا بى إن قلت إن هذا التشريف يجعلنى أكثر إحساسا وشعورا بالمسؤولية من أجل أن لا أخيب ظن من توسموا الخير فى هذه الأعمال لهذا أعمل

على تعويض عن نقائصي، وما أكثرها، وعن ثغراتى وما أكثرها كذلك، والحال أننى أرى أن ربما أفضل وأقوى رواياتى هى ما أنوى كتابتها.

وتحدث عن الأدب والرواية، حيث ذكر إنها قيما حقيقية ما أحوجنا إليها، قيمة الجمال وقيمة الجمالية لأنها العمود الغائب أو الفقير فى حياتنا على وجه العموم. جمال العلاقات الإنسانية جمال الخطابات جمال الرؤى وما إلى ذلك، كما أن الأدب على وجه العموم والرواية على وجه الخصوص قد تمثل كذلك القيمة الترياق ضد التصحرات الذهنية، وتفشى البداوات والتشنجات المذهبية والعرقية أو العرقوية، كما أنها القيمة الترياق ضد أنظمة الحكم الفردى والاستبدادي، وضد مسلكيات ما كان القدماء يسمونه بالحشريين والغلاة، وما نسميهم اليوم بالمتطرفين. إن الرواية هى الوجه الآخر للتاريخ، الوجه المغيب الوجه المسكوت عنه من طرف روايات المؤرخين الرسميين أو روايات التاريخ المتحكم أو الاعتباطى الرسمي، الرواية أخيرا هى إعادة بناء إعادة تشكيل الواقع، لم شتات هذا الواقع، كما هو من جهة، ولكن أيضا كما يمكن أن يكون أو كما يلزم أو يحسن أن يكون.

وعن روايته الفائزة تحدث د. بن سالم، قائلا أنه يمكن اعتبارها على نحو ما رواية تاريخية، ولكن ليس كالرواية التاريخية التقريرية، كما مارسها على باكثير أو جورج زيدان أو أندرى موران بفرنسا، بل إذا ما طرحنا هذا السؤال: الرواية التاريخية بأى معنى نجد الجواب عند نجيب محفوظ نفسه لأنه فعلا كان العربى السباق إلى بناء هذا الجنس وإلى الاشتغال فيه بدءا من الثلاثية الفرعونية المعروفة، وقال: إن

الرواية التاريخية هى الصنف الآخر، الذى يجعل من التاريخ مجرد إطار ينشئ أحداثا وعلاقات وشخصيات ليس لها بالضرورة صلة بالتاريخ. ويستمر قائلا: وحتى الروايات، التى كتبتها كان عندى فيها مساحة للعمل الخيالى. الخيال هنا بمعنى فقط الافتراض، أو ما يسمى فى العلوم الطبيعية أو العلوم الرياضية أو العلوم الدقيقة بالفرضية، بمعنى أن فى العلم كذلك نجد أن الخيال العالم نفسه فى حاجة ماسة إليه، وأن الخيال عنده يعمل كعامل تخصيب فى البحث العلمى وفى إنعاشه. كما أنه ظهرت غداة الحرب العالمية الثانية مدرسة فى التاريخ تقول إن الهوامش لا بد وأن ترجع إلى المركز. إن الرواية التاريخية اليوم، حتى أدب نجيب محفوظ، الذى استراح على تسميته بالواقع الاجتماعى يمكن الآن قراءته قراءة تاريخية فى القاهرة الجديدة وزقاق المدق أو خان الخليلي، فضلا طبعا عن ثلاثيته الشهيرة فى إطارها التاريخى وثورة 1919، فلحظات وتجليات من تاريخ مصر المعاصر حاضرة بقوة فى هذه الأعمال، ثم هناك صورة أو إطار الحارة، التى أعتقد بأنها هى آتية من اليونانية، ويمكن إذا ما اقترينا من قراءة تاريخ مصر ووضعناه تحت المجهر أن نرى فيه انعكاسات العالم ككل الحياة الإنسانية بما تعتلج به من قضايا ومشكلات ومقادير وأقدار إلى آخره. إذاً تألقت أعمال نجيب محفوظ فإنها كذلك مدينة إلى شيء آخر وهو الفلسفة، وما أدراك ما الفلسفة. فنجيب محفوظ سجل أطروحة مع الشيخ مصطفى عبد الرازق، واسمها فلسفة الجمال فى الإسلام، لكن لم يستطع إكمالها. الشيء الذى تأسف له

أستاذه فى الفلسفة حينذاك الأستاذ (كوربين)، لكن أنا أعتقد فى جميع الأحوال بأن نجيب محفوظ ظل فى كل أعماله لم ينصرف من الفلسفة إلى الأدب بل ظل يمارس الأدب فى الفلسفة ووفق فى ذلك توفيقا كبيرا، كما كان الحال أو على غرار كتاب وروائيين كبار.

وقبل ان يختتم د.حميش محاضرته القيمة قال: إنه من باب الاعتراف بالجميل، أقول إننى مدين لنجيب محفوظ بالشيء الكثير وقلت هذا الكلام وكتبته، إما فى شكل مقالة أو فى شكل رد على أجوبة فى استجوابات. فأول مقالة نشرتها، وأنا حديث العهد بالجامعة وبالأدب كانت حول اللص والكلاب، ونشرت فى صحيفة العلم المغربية، وما أعجبنى كثيرا بالذات فى هذه الرواية - وكنت أنا بنفسى ميالا إلى شيء من التصوف- هو شاعرية هذه الرواية الصوفية، كذلك الحال بالنسبة للسمان والخريف، الذى قال عنها الناقد الكبير رجاء النقاش: إن هذه الرواية كانت مليئة بالندى الشعرى الدافق من هنا طبعا بالنسبة للناس، الذين يتخندقون فى أجناس معينة ويقيمونها حربا شعواء ما بين الشعر والرواية أو الشعر أو أى جنس آخر، أنا أقول إن نجيب محفوظ أتى بالحل، الحل هو أن لا يمكن لأى رواية أن تتألق إلا إذا كان الشعر حاضرا فيها بشكل أو بآخر فى اللحظات الدرامية المتألقة فى احتداد الشعور المأساوى بالوجود أو بالحياة إلى آخره. إذن قضية زمن الرواية كما قاله نجيب محفوظ، وكما قال كذلك فيما بعد د.جابر عصفور لا يعنى أننا سنعلنها حربا ضد الشعر لا هو فقط يمكن اعتباره ملتقى للأجناس، والشعر لا بد أن

يكون حاضرا بقوة فيه. كنت وما أزال كذلك من المعجبين بشخصية نجيب محفوظ الجذابة هذا العميد السابق في كرة القدم، الذى قاوم- كما جاء في العرض الذى قدمه المستشار الثقافي- إكراهات الوظيفة والمتاعب الصحية، وتوحشات فقراء الظلام بإدارة قوية في التحصيل المعرفي المواظب، والإبداع الأدبى المتقاعد. فلم تثن عن أخذ نصيبه من طيبات الدنيا وتحلى بروح النكتة. هذه النكتة التى كم أفادتنى وأنا أحرر فصلا في «مجنون الحكم» يحمل هذا العنوان بين النكتة والانتقام مصر تخترق، وأخيرا اللغة، كم من سجلات ومواقف متعارضة متضاربة قامت حول هذه القضية، وحينما نرجع إلى نجيب محفوظ نجد أن الرجل اهتدى إلى السليم فيما يخصها. هذا التعارض الاصطناعي، الذى نضعه بين الفصحى والعامية، هو اهتدى إلى ما أسماه اللغة الوسطى، ومنذ همس الجنون، المجموعة القصصية الأولى لنجيب محفوظ، ظل حريصا على استعمال هذه اللغة الوسطى، التى تتجاوز التعدد اللهجي، وكذلك تتجاوز غريب الألفاظ وعويصها وصعبها، وظل إلى استعمال الكلمات والتعابير العامية خاصة، إذا كان لها في الفصحى مرجع وأصل، وهذا لعمرى المسلك الأقوم والأسلم، وهو مسلكى كذلك.

وعن مصر أرض الكنانة قال: إنه كان لها السبق في أشياء كثيرة، وكان لها النصيب الوافر وما يزال في تقوية الهوية الإسلامية وكذلك، المساهمة أيما إسهام- كانت وما زالت- في خلق رموز الوحدة القومية الحقيقية ولا أجدر منها ولا أنفع ولا أبقى وأعنى بهذه الرموز رموز

الثقافة رموز الغناء والموسيقى رموز المسرح رموز التمثيل، إذ أن هذه الرموز المتمثلة فى المثقفين والمبدعين والفنانين، وهم فى تصورى بناة تجانس النسيج الثقافى العربى وحماته ومطوروه، بالرغم طبعا من نكساتنا وتعثراتنا فى السياسة، وفى اكتساب القوة المادية. مكمن الداء فى التجارب القومية والممارسات القومية السالفة أشخصها فى كلمة واحدة نعود بالله منها كذلك وهى الزعامة، وحب الزعامة، التى كانت تقسم العالم العربى إلى مركز وإلى ضواحي، أو إلى محيط.

وختم حديثه بقوله: إن إرادة الوحدة لا بد، وأن تبقى قائمة نصب أعيننا وأن تبقى كذلك الفينيق، الذى ينبعث دوما وأبدا من رماده. حتى نجابه تحديات العصر الكبرى، ونكسب أسباب المناعة الحيوية اللازمة والقوة الواقية، وأنا أعتبر أنه فى هذا المشروع، الذى نحن مطالبون جميعا بالانضواء فيه إيجابيا، الثقافة فى مجال البحث كما فى مجال الإبداع، وهى مطالبة بأن تلعب دورا أكاد أقول قياديا، وأن تلعب دورا رياديا من أجل توثيق أوراق العلاقات فى بين الجناحين المكونين للعالم العربى وتقوية هذا النسيج الثقافي، الذى بدونه لا يمكن مطلقا على صعيد اللغة، كما على صعيد الإنتاج الأدبى والفكرى والفني. بدون هذا النسيج أنا أعتقد لا يمكن ذلك الاتحاد حتى فى معطياته الاجتماعية والاقتصادية أن تقوم له قائمة لهذا أنا أعتبر شخصيا أن المركز الثقافى المصرى بتعاون طبعا مع سعادة سفير جمهورية مصر العربية، وكذلك الأستاذ الدكتور حامد عيد، يمكننا

هنا فى المغرب، وفى علاقة وطيدة مع الثقافة المصرية من أن نبنى جسورا، وأن نعطى المثل لعل وعسى أن يقتضى به الإخوان الأشقاء والبلدان العربية الشقيقة. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وبعد أن أنهى الكاتب والروائى المغربى د.بن سالم حميش محاضرته الرائعة تم توجيه الدعوة لعدد من الحضور للمداخلة، حيث تحدث كلا من المفكر المغربى د.محمد بن شريفة، عضو أكاديمية المملكة المغربية، والسفير الشاعر د.عبد العزيز خوجة، سفير السعودية بالمغرب.

إخوان الصفا فى محاضرة
بالمركز الثقافى المصرى بالرباط

فى أمسية ثقافية مصرية الأداء عربية ومغربية الحضور شهد المركز الثقافى المصرى بالرباط لقاء علميا مهما مع العالم الجليل الأستاذ الدكتور عبد الحافظ حلمى محمد، رئيس اللجنة القومية المصرية لتاريخ العلوم، فى محاضرة بعنوان: « قراءة بيولوجية فى رسائل إخوان الصفا »، حضرها جمع غفير من علماء ومفكرى المغرب الشقيق، وكذلك نخبة من السادة رؤساء وأعضاء عدد من مجامع اللغة العربية بالدول العربية، والذى تصادف وجودهم بالرباط لحضور اجتماع المجلس العلمى لمكتب تنسيق التعريب، التابع للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم فى دورته الأولى، كما حضرها أعضاء السفارة المصرية بالمغرب، فكانت بحق أمسية علمية بديعة تحدث فيها العالم الجليل عن إخوان الصفا ونشأتهم ورسائلهم، منذ بدء تجمعهم فى مدينة البصرة، وقدم للقاء كاتب المقال، حيث قال إنه فى ظل الهجمة الشرسة، التى تتعرض لها الحضارة الإسلامية، فلا يزال تراثنا الإسلامى فى حاجة ماسة إلى أن يدرس

درسا منظما وتحقق موضوعاته بطرق البحث الحديثة، وتعقد بينه وبين الفكر الأوروبى موازنات تكشف عما فيه من ثروة علمية، وتبين مبلغ تأثر الغرب به، وسيره على مناهجه، وأن بعض ما درس يحتاج إلى عرض جديد فى ثوب جذاب، يشجع القراء من أبناء الأمة العربية على التعرف على ماضيهم العريق، وما خلفه آباؤهم من كنوز ثمينة، وكيف عانوا وجدّوا فى أن يتركوا للإنسانية ذخيرة من المعارف والعلوم هدّتها أمدا طويلا من الزمن، وعن إخوان الصفا أضاف: أنهم من المفكرين المسلمين، الذين لم يكد يعنى بهم أحد من المحدثين من علماء الشرق العناية التى يستأهلونها، مع أنهم فى الطليعة من حيث ثقافتهم الواسعة، وتبسيطهم لمعضلات الفلسفة، وتناول المسائل الفلسفية بفكر إسلامى يحاول المزج بين العقيدة والفلسفة، والتوفيق بينهما.

ثم بدأ الأستاذ الجليل الدكتور عبد الحافظ حلمى محاضرته بالحديث عن أهمية دراسة تاريخ العلوم، وأن الأمم ماض وحاضر ومستقبل. أصول جذورها مستمدة من ماضيها، وجهوده مبذولة لحاضرها، وتطلعاتها متوجهة إلى مستقبلها، وهى تضل إن نسيت أو تناست ماضيها، وتهلك إن أهملت مستقبلها، فالأمة الحية تاريخ متصل، والعلم من أقوى دعائم الحضارة، ومن ثم كانت دراسة تاريخ العلم أهمية خاصة عندنا، وذلك لأن دراستنا لتاريخ العلم فى الحضارة العربية الإسلامية تظهر لمن يتطاولون عليها من الجاهلين الدور الرائد لأمتنا فى مسيرة ركب الحضارة الإنسانية.

ودعا الحاضرون لآن يعودوا بأذهانهم إلى مدينة البصرة فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجري، (أو العاشر الميلادي)، والذى عده بحق العصر الذهبى للحضارة الإسلامية، والذى ظهر فيه كوكبة من العلماء على رأسهم البتانى والفارابى والبوزجاني، وغيرهم، وتلاه مباشرة تألق النجوم الثلاثة البيرونى وابن الهيثم وابن سينا، وفى ذلك الوقت قام صفوة من أهل الثقافة والعلم، جماعة تصادفت نفوسهم، وتعارفت أرواحهم فتآخوا على البر والتقوى، ورأوا أن يتعاونوا على نشر الثقافة العلمية، وأسموا أنفسهم « إخوان الصفا «، و»خلان الوفا «، ورتب الإخوان أنفسهم مراتب أربعا وفق أعمارهم، وآثروا أن يستتروا، وأن تكون اجتماعاتهم مقصورة عليهم خشية على أنفسهم من السلطان، لذلك فلا أحد يعلم شيئا مؤكدا عن أشخاصهم، ومع ذلك حرص الإخوان على أن يذيع علمهم، وقاموا بنشر ثقافتهم فى اثنين وخمسين رسالة جامعة للإجمال والتلخيص.

وعن مصادر علم الأخوان ذكر الدكتور عبد الحافظ حلمى إنها تتراوح بين الكتب المنزلة، وكتب الحكماء فى الرياضيات والطبيعيات، وكتب الطبيعة المشاهدة نفسها، بأفلاكها ومعادنها ونباتها وحيوانها، وكان الإخوان يهدفون إلى التوفيق بين القرآن الكريم والعلم الإغريقى فيما زعموا، وقالوا إنه متى انتظمت الفلسفة الاجتهادية اليونانية والشريعة العربية الإسلامية، وكانت دائرة معارف الإخوان واسعة، فهم فيثاغورثيون محدثون وجابريون، وهم ينسبون بعض ما يقولون إلى «صاحب المنطق» (أي، فيثاغورث)، ويدل استخدامهم لبعض

الألفاظ الفارسية الأصل على مصادر فارسية للثقافة، ولا بد أنهم كانوا ينهلون، على أى حال من موارد العلم التى تجمعت روافدها فى ذلك العصر، وانصهرت نفائسها فى بوتقة الحضارة الإسلامية، والتى أكسبته صيغة عالمية جديدة فى ظل سماحة الإسلام المؤلف بين القبائل والشعوب.

فجماعة الإخوان إذن جماعة علمية تعليمية تثقيفية فى المحل الأول، ويستشهد الدكتور عبد الحافظ حلمى بوصف هولمبارد عن إخوان الصفا إنها واحدة من أقدم الجمعيات العلمية، التى تحققنا من وجودها، وأن اهتمامات أعضائها تتفق كثيرا واهتمامات، الذين أقاموا الجمعية الملكية الشهيرة فى لندن بعد قرون، وكان للجمعية فرع فى بغداد، ولا يشك طه حسين فى أن أبا العلاء اتصل بذلك الفرع، ويقول إنه وجد فى الرسائل أحسن تفسير لكثير من غوامض لزوميات أبى العلاء.

وفى عرضه للمعارف البيولوجية فى رسائل إخوان الصفا، وأبرز ما اصطفاه من هذا الحجم الكبير من الرسائل بدأ سيادته بالأرض، والتى تعتبر مهد الحياة والأحياء، وهى عند الإخوان كرة معلقة فى الفضاء «بجميع ما عليها» بإذن الله، ولزيادة إيضاح الصورة يقولون لقارئهم: إن الإنسان حيث وقف تكون رجلاه إلى أسفل «مما يلى مركز الأرض، وهو يرى من السماء نصفها»، وكروية الأرض هى الاعتقاد السائد عند الفيثاغوريين. والإخوان يتبعون ارسطو وبطليموس فى أن الأرض هى مركز الكون ولذلك يصفون كل ما عليها بأنه «دون فلك القمر»، وأهم من هذا أن الرسائل تظهر إحساس الإخوان بالزمن الجيولوجي،

وتقرر أن وجه الأرض متغير، وتصف التعرية ودورة الترسيب. فهى تشرح كيف تتفتت الجبال، ثم يحمل المطر والسيل صخورها ورمالها إلى الأودية والأنهار ثم إلى البحار وأن البحار لشدة أمواجها وشدة اضطرابها وفورانها تبسط تلك الرمال والطين والحصى فى قعرها ساف على ساف بطول الزمان والدهور ويتلبد بعضها فوق بعض وينعقد وينبت فى قعور البحار جبالا وتلالا كما تتلبد من هبوب الرياح أدعاص الرمال فى البرارى والقفار. (والتدعص قطعة من الرمل مستديرة). وتلفت الرسائل الأنظار إلى أنه لو كانت الأرض مستوية لتغطى سطحها كله بالماء ولانعدمت اليابسة.

وفى حديثه عن ظاهرة التتابع Succession التى يتكلم عنها الإيكولوجيون المعاصرون ولو فى صورتها العامة البسيطة، فقد صورها الإخوان أنه عندما ترتفع أماكن من البحار « ينصب » عنها الماء « حتى تظهر وتصير جزائر وبراري، ويصير ما يبقى من الماء فى وهادها وقعورها بحيرات أو آجاما أو غدرانا. وينبت فيها القصب والأوحال. فلا تزال السيول تحمل إلى هناك الطين والرمال والوحول حتى تجف تلك المواضع، وتنبت هناك الأشجار والعكرش والعشب، وتصير مواضع للسباع والوحوش، ثم يقصدها الناس لطلب المنافع والمرافق من الحطب والصيد وغيرها. وتصير مواضع الزروع والغروس والنبات بلدانا وقرى يسكنها الناس، وهم فى مثل هذا الوضوح البين يصفون دورة الماء فى الطبيعة.

أما عن تنوع الأحياء. فهم يروا فيه دليلا على قدرة الخالق البارئ

سبحانه وتعالى، وهم فى ذلك يقولون: إن الرحمن « لما احتجب عن رؤية الأبصار بحجب الأنوار وجل وعلا عن تصور الأوهام والأفكار، أظهر مصنوعاته إلى مشاهدة الأبصار، وأخرج ما فى مكنون غيبه إلى الكشف والإظهار والبيان، ليدركه العيان ويستغنى عن الدليل والبرهان، وهذا الكلام الصوفى الجميل يردده المؤمنون فى كل العصور، بل إن هذه المعانى محور رئيسى فى أسلوب القرآن الكريم لهداية الناس إلى الإيمان بالله بالتأمل والتفكر فى بديع صنعه سبحانه وتعالى.

ويقول الإخوان فى موضع من الرسالة الثانية والعشرين :»ثم اعلم يا أخى بأن النبات متقدم الكون والوجود على الحيوان بالزمان، لأنه مادة لها كلها، وهيولى لصورها وغذاء لأحيائها، وهو كالوالدة للحيوان، أعنى النبات.

وهكذا يطوف بنا العالم الجليل فى رحلة بديعة من معلومة لأخرى برشاقة وهو فى حديثه عن إخوان الصفا يتبع أسلوب الدارس الواعي، ويشرح كل شيء ويلم به، لقد كانت بالفعل أمسية علمية ثقافية أخذنا فيها العالم الجليل فى رحلة بديعة تحدث فيها عن الجزء البيولوجى فى رسائل إخوان الصفا، وفسرها خير تفسير.

الحضارة المصرية فى مجال العلوم
ندوة الحضارة المصرية القديمة[1]

يسعدنى أن نفتتح سويا فعاليات ندوة الحضارة المصرية القديمة، التى يتم تنظيمها بالتعاون بين المركز الثقافى المصرى بالرباط والمركز الثقافى باكدال فى إطار مناسبتين مهمتين، أولاهما اختيار الرباط عاصمة للثقافة لعربية للعام 2003 والمناسبة الثانية مرور 100 عام على إنشاء المتحف المصرى للآثار.

سيداتى سادتي..

إن نشأة العلم فى بلد من بلدان وازدهاره فيها يتطلب قدرا كافيا من النضج فى المثل الأخلاقية والاجتماعية، وهذا يتطلب قدرا كافيا من المركزية السياسية والاستقرار الحكومي، وقد تحقق هذا فى وقت مبكر فى وادى النيل، ولحسن حظ المصريين أن عهود الاستقرار كانت طويلة مكنتهم من توطيد أركان نظامهم وتعميق جذور تقاليدهم، وبذلك تيسر للحضارة المصرية التقدم والنماء، ولكى ندرك قيمة طول هذه العصور يمكننا مقارنة ما حدث فى مصر بما حدث فى

1 - 25 فبراير 2003

بلد مثل أمريكا. فإن فرضنا أن ذلك التاريخ، الذى يمتد من أيام الثورة الأمريكية عام 1775 إلى يومنا هذا (حوالى 228 عاما) يمثل وحدة واحدة. فإن كلا من الدولة القديمة والوسطى والحديثة فى مصر القديمة تكون استمرت 3،4،3 وحدات على التوالي، ومن ثم فإن تعدد فترات الاستقرار الطويلة فى التاريخ المصرى كانت بلا شك أهم عوامل التقدم الحضارى والإبداع الفكرى والعلمي.

بقدر ما أبدعت الحضارة المصرية فى مجالات مختلفة تشهد على ذلك الشواهد الأثرية، التى تغطى معظم الأرض المصرية، والتى تزخر بها المتاحف المصرية والعالمية. فقد أبدعت الحضارة المصرية فى العمارة والفنون والآداب والعلوم والعقائد، وتركت بصمات واضحة على بعض الحضارات المعاصرة والتالية ولعل من أهم شواهد الإبداع ما توصل إليه المصريون فى علوم الهندسة والطب والفلك والرياضة وما توصلوا إليه فى مجال الكتابة، وكانوا روادا سبقوا غيرهم فى معرفة الكتابة، وهى الكتابة الهيروغليفية ويجيء الهرم الأكبر رأس عجائب الدنيا السبع على رأس إبداعات الحضارة المصرية، ثم هناك ما توصل إليه المصرى فى فن التحنيط.

هذه الحضارة، التى سلبت لب الناس فى كل زمان ومكان، وأصابتهم بالانبهار والهوس فى بعض الأحيان من فرط إعجابهم أحيانا ومن فرط عدم قدرتهم على استيعاب هذه الإنجازات الرائعة، وعاش الأوروبيون قصة «الهوس بالحضارة المصرية»، وقلدوها فى بعض جوانب حياتهم، لكنهم من الجانب الآخر عن قصد أو عن غير قصد

حاولوا تشويه بعض إبداعات هذه الحضارة، فنسبوا بعضها لليهود والكائنات، التى هبطت من الفضاء وتحدثوا عن لعنة الفراعنة، وأساءوا إلى الملك رمسيس الثانى بحجة أنه فرعون موسى، وجعلوا من إخناتون هو سيدنا موسى عليه السلام، ونسبوا لقوم عاد كل هذه الإبداعات، وكأن الشعب المصرى ليس له من فضل من أى من هذه الإنجازات، ورغم كل هذه المحاولات وغيرها ستظل الحضارة المصرية شامخة بشواهدها، رائعة بإبداعاتها، تعيش بين ظهرانينا لعلنا نبذل كل الجهد للحفاظ عليها.

بدء المحاضرة..

وفى هذه المداخلة سيكون حديثنا عن الحضارة المصرية فى مجال العلوم.... لقد ترك المصريون القدماء تراثا علميا يغطى مجلدات كثيرة ويندر أن تجد أى كتاب أو مرجع أجنبى إلا ويشير فى أجزائه الأساسية إلى هذا التراث، وبالرغم من أن بقايا أوراق البردي، التى اكتشفت قليلة نسبيا إلا إنها تشمل معلومات كثيرة تكشف عن حضارة علمية عظيمة، بالإضافة إلى الكشف المهم، الذى عرف فى صدر العقد الثانى من القرن التاسع عشر الا وهو حجر رشيد، الذى فك طلاسمه العالم الفرنسى جين فرنسوا شامبليون.

ففى عام 1799 عثر أحد الجنود الفرنسيين، فى يوم كان يطوف فيه بالبر الغربى لنهر النيل، على حجر من البازلت مكتوب عليه بثلاث لغات هى الهيروغليفية والديموطيقية واليونانية، وما أن رآه ضابطه

حتى ضمه إلى مجموعته الأثرية النادرة، وبعد انتصار القوة الإنجليزية والتركية على القوات الفرنسية، كان من شروط التسليم أن يتسلم الجانب المنتصر جميع التحف والآثار التى تم العثور عليها، وبالفعل تم تسليم كل شىء ما عدا هذا الحجر، إلا أن القائد الإنجليزى المنتصر لورد هيتشنسون أصر على استلامه، وكان له ما أراد، ونقل الحجر إلى إنجلترا، حيث استقر فى صندوق زجاجى فى المتحف البريطانى بلندن، وحاول الإنجليز ترجمته، ولكن لم يفلحوا فى غير ترجمة النص اليوناني، وبقى ما بقى من نصوص حتى فك طلسمه شامبليون عام 1813.

مرة أخرى نعود للعلوم فى مصر القديمة، ونبدأ بالرياضيات، فقد طور المصريون القدماء تعبيرات أفضل لحساب المساحات والحجوم المثلثة والمربعة وشبه المنحرفة، والتى كانت تتركز حول حساب حجم المنحدرات المستخدمة فى إقامة المبانى والأهرامات وكذلك المسلات.

و فى الفلك فإن أقدم الوثائق الفلكية فى العالم هى تلك المسماة بالتقويمات القطرية، والتى وجدت منقوشة على أغطية التوابيت المصرية، والتى ترجع إلى فترة المملكة الوسطى (2000 – 1600 ق.م). إضافة إلى تشكيلات النجوم على أسقف قبور الدولة الحديثة، وأطلق المصريون الأسماء على النجوم وميزوا تشكيلاتها، وكذلك أدخلت مصر القديمة التقويم القمري، وأيضا المدنى الخاص بالحياة الاقتصادية، وهو يتكون من إثنى عشر شهرا فى كل منها ثلاثون يوما، وكان للمصريين تقويم زراعى يتكون من ثلاثة فصول مرتبطة بمستوى الماء فى النيل، أما الصناعات الفنية فيأتى أعظم

اختراع وهو صناعة ورق البردى والأحبار المستخدمة فى الكتابة، والذى حفظ التراث الأدبى والعلمى لمصر القديمة، كما يدين له العالم فى حفظ وثائق خاصة بالتوراة والإنجيل ولولاه لتأثر تاريخ الثقافة تأثرا كبيرا، كما اهتم المصريون القدماء بصناعة التعدين والمعادن، حيث صنعوا سبائك النحاس، ومن أهمها البرونز (خليط من النحاس والقصدير)، وصنعوا الذهب بأشكاله الفخمة، وخير مثال آثار توت عنخ أمون الذهبية.

وأيضا اهتم المصريون القدماء بفنون التنقيب والحفر إلى أعماق بعيدة، وهناك صناعات أخرى أجادوها أهمها صناعة الزجاج والصباغة والفخار، واكتشفت برديتان مهمتان، هما (بردية ليدن وبردية استكهولم) احتوتا على عدد كبير من الوصفات لصناعات السبائك، وتشميع المعادن وتلوين الأسطح والكشف عن نقاوة وجودة العناصر وتحويلها، وكذلك الكتابة على الذهب والفضة والصباغة.

أما فى الطب، فمارس المصريون القدماء الطب قبل الميلاد بآلاف السنين بأسلوب علمي، ومن أقدم البرديات، التى وجدت (بردية أيبز)، وفيها معلومات ذات صفة تشريحية وفسيولوجية، كذلك قاموا بعلاج بعض الأمراض مثل الأمراض الباطنية – العيون – الجلدية – الأطراف – الرأس – اللسان – والأسنان والأنف والأذن.

وتم اختيار فرعين من فروع العلم المصرى القديم لإيضاحهما على جهاز العرض لتبيان الدور العظيم، الذى ساهم به المصريون القدماء

فى تطبيقات هذين العلمين، وهما الكيمياء والطب.

الكيمياء هى إحدى العلوم الطبيعية، التى عرفها الإنسان، ومارسها منذ وقت بعيد لا تعرف له بداية، ولم تبدأ كغيرها من العلوم فى الحضارات القديمة فى العالم القديم أو الجديد كعلم مستقل مقصود لذاته غير أن مبادئ الكيمياء قد عرفت وارتبطت بفنون وصناعات كثيرة كصناعة الزجاج وتلوينه وصهر المعادن، وإنتاج السبائك والطلاء والتحنيط والعلاج وصناعة الأدوية والورق والمنسوجات وغيرها.

وعرف الإنسان منذ فجر التاريخ عددا من العناصر الكيميائية الفطرية، التى توجد طليقة غير متحدة مع غيرها من العناصر الكيميائية، وأطلقوا على هذه العناصر اسم الأحجار السبعة، وهى الذهب والفضة والنحاس والرصاص والقصدير والحديد والكبريت، وعرف الإنسان بعض خواص هذه العناصر الكيميائية أو جيوكيميائيتها بلغة العلم فى هذا العصر. عرف قدماء المصريين منذ أكثر من سبعة آلاف سنة أن الذهب يوجد فى صخور معينة دون سواها وهى المرو أو الكوارتز خاصة الأنواع الرمادية اللون أو السوداء (الموريون Marion)، أو المصبوغة باللون الأحمر نتيجة احتوائها على معادن الحديد، وحفر المصريون القدماء عن هذه الصخور فى كل الصحارى المصرية واستخرجوا الذهب منها بكميات كبيرة، الأمر الذى جعل مصر أغنى دول العالم القديم، ولا زالت بعض مناجم الذهب الفرعونية تحتفظ باسمها الفرعونى حتى اليوم، مثل منجم حوتيت،

الذى يقع بالقرب من جبل أبى ضهر بجنوب الصحراء الشرقية بمصر، ويوجد فيه الذهب مخلوطا بالمرو الأسود. وأهمل قدماء المصريين عروق المرو الشفافة أو البيضاء البنية اللون لخلوها من الذهب، ما يوحى بأن قدماء المصريين اهتدوا إلى أن الذهب يصاحب عروق المرو الملونة بالألوان الغامقة لاحتوائها على شوائب معدنية فى الغالب، وهو ما نعرفه نحن اليوم على أسس كيميائية من أن الذهب يصاحب عادة بعض العناصر الكيميائية الملونة للصخور مثل الحديد والتيتانيوم والفاناديوم والكوبلت والكروم والنيكل وغيرها.

وعرف الإنسان منذ وقت مبكر الزجاج الطبيعي، الذى يتكون إثر ارتطام النيازك الكبيرة بالرمال على سطح الأرض، حيث تنصهر الرمال بالحرارة الناشئة عن هذا الارتطام، ويتكون الزجاج بتصلب مصهور الرمال، ويتوقف لون هذا الزجاج على الشوائب المعدنية المصاحبة للرمال التى تتعرض للانصهار. وفى مرحلة لاحقة صنع الإنسان الزجاج بصهر الرمال فى أفران خاصة، ولونها بإضافة مواد معدنية إلى الرمال قبل صهرها، وعثر الأثريون على قطع من الزجاج الملون فى آثار الحضارة الفرعونية فيما قبل عصر الآسرات (قبل 3200 ق.م.). واستخدم المصريون النطرون، (أملاح الصوديوم)، المستخرج من وادى النطرون بالصحراء الغربية فى صناعة الزجاج بدليل وجود بقايا وآثار لمصانع الزجاج فى منطقة وادى النطرون، وصنع المصريون والبابليون والآشوريون زجاجا بألوان عديدة كالأزرق والبنفسجى والأحمر والأسود والأخضر، وذلك بإضافة مواد معدنية إلى خلطة الزجاج قبل صهرها،

واستورد المصريون معادن الكوبلت من إيران وأرمنيا لاستخدامها فى صناعة الزجاج، حيث إن الكوبلت يلون الزجاج باللون الأزرق المفضل لدى المصريين القدماء.

وأتقن المصريون فن التحنيط، وتفوقوا فيه وصنعوا الأصباغ لتلوين الثياب والأوانى الفخارية ورسم الصور على الجدران فى المعابد والمقابر كما برعوا فى تحضير، وتركيب الأدوية من الأعشاب الطبية، وكان يقوم بهذا العمل إخصائيون من الكهنة فى أماكن خاصة فى داخل المعابد. وتخزن الأدوية فى أوعية فخارية وزجاجية، كما عرف أبناء الحضارات القديمة دبغ الجلود، واستخدموا الشب والعفص والنطرون، وغيرها لهذا الغرض وأما فائدة الشب والأملاح الأخرى فى عملية الدبغ، فكانت للحيلولة دون تعفن الجلد وفساده، وكان يتم ذلك بمعاملة الجلد بمحلول مخفف من أملاح الشب بعد تنظيم الجلد، وينتج عن ذلك جلد ناعم لين طالما بقى الشب فى مسامه، كما استخدم دباغو الجلود أصباغا نباتية مختلفة لتلوين الجلد بعد دبغه.

محاضرة.. قبل أن تشيع بيننا «العربنسية»

أهداف المحاضرة:

الدفاع عن اللغة العربية واجب قومي

اللغة العربية وما تحويه من فكر وثقافة هى قوام وجودنا

متى تسطع شمس العربية على العالم!!

حين يصبح الواقع بكل أسف أمام عين وعقل الإنسان يؤكد حقيقة معينة.. تنظر إلى هذا الواقع من جميع الزوايا والاتجاهات لعلك مخطئ أو لعله قد خانك التقدير أو.. أو.. فترى عينيك تلك الحقيقة لتؤكد تدنى هذا الواقع بعينه؟!

والأمر بمنتهى البساطة بات واضحا لأنه يمس لغتنا العربية، هذه اللغة التى تنزل بها القرآن الكريم خاتم الرسالات، فنرى الشباب اليوم فى أى محفل مثل الأندية أو الجامعات أو بعض مراكز تعلم الكومبيوتر أو حتى فى بيوتنا نراهم يتكلمون العربية متكئة على

الإنجليزية أو الفرنسية، لا يقوى أى منهم على أن يقيم أود عبارة كاملة وصحيحة من فعل وفاعل ومفعول!! والأدهى من ذلك أنه بمنتهى الجسارة يتوقف فجأة عن مواصلة حديثه ليخرج من فمه أقسى ما يمكن ان تسمعه، وهو يعلن دون خجل أو حياء بأنه غير قادر على مواصلة شرح ما هو قائم فى عقله باللغة العربية!! ليتكئ طبعا على الإنجليزية أو الفرنسية فى إتمام حديثه، ثم يتوقف مرة ثالثة ليسألك عن مرادف لكلمة لا يستطيع استجلابها بالعربية، وتكون الكلمة دائما فى منتهى البساطة، بل وبديهية!!

واعتذر مقدما عن عنوانى، الذى اقتبسته من عنوان للكاتب الكبير الأستاذ فهمى هويدى لمقال نشره فى جريدة الأهرام بعنوان « قبل أن تشيع بيننا العربليزية!

لقد برهنت اللغة العربية على قوتها فى العصور الخالية، وأنها بقيت لغة العلم الوحيدة حتى القرن 15، وأكد الكثيرون من اللغويين على مقدرة اللغة العربية على استيعاب جميع المصطلحات العاطفية والفلسفية والعلمية والدقة المتناهية فيما يقع تحت الحس ويجول بالخواطر، فهذا الأمر أصبح مفروغا منه بعد أن أدلى اثنان من المستشرقين بشهادتيهما فى اللغة العربية فماذا قالا؟.. أرنستريتان قال: «من أغرب المدهشات أن تنبت ملكة اللغة القوية، وتصل إلى درجة الكمال وسط الصحارى عند أمة من الرحل، تلك اللغة، التى فاقت أخواتها بكثرة مفرداتها ودقة معانيها وحسن نظام مبانيها، ولم يعرف لها فى كل أطوار حياتها طفولة ولا شيخوخة

ولا تكاد تعلم من شأنها الا فتوحاتها وانتصاراتها التى لا تبارى، ولا تعرف شبيها بهذه اللغة، التى ظهرت للباحثين كاملة عن غير تدرج، وبقيت حافظة لكيانها من كل شائبة»، انتهى كلام ارنستريتان، أما فريتاغ فقد أكد أن اللغة العربية لعبت دورا أساسيا كوسيلة لنشر المعارف وآلة التفكير خلال المرحلة التاريخية، التى بدأت حين احتكر العرب على حساب الرومان واليونان طريق الهند. إن كفاية اللغة العربية وقدراتها ليست موضوع بحث ولا تأكيد، ولذا فإن تشكيك البعض فى إمكانية اللغة العربية مرده بلا شك إما إلى ضعفهم فيها أو لوجلهم من البلبلة.

إن وحدة اللغة تحقق وحدة التفكير، ووحدة التفكير تحقق وحدة الأمة كل الأمة فى عصر لم يبق للقوميات الصغيرة مكان فيه، والشاهد اليوم المحاولات القوية التى تجرى فى العالم هنا وهناك لتكوين تكتلات سياسية واقتصادية، بالرغم من تباين لغات هذه البلدان. نحن لسنا فى حاجة لاختراع لغة جديدة تجمع بيننا، وبشىء من العناية يمكن للغة العربية أن تكون عاملا مهما فى وحدتنا كما كانت على مر العصور.

أن هدفنا من استخدام اللغة العربية ليس فقط من أجل اللحاق بالأمم المتقدمة فحسب، وإنما لكى نعطى الإنسان العربى قوة للانطلاق والإبداع فقيم الأمة تبدعه أدمغة أبنائها، ويبدو أن الازدواجية فى حياتنا، التى طالما عانينا منها، وما زلنا، فى كون الطبقة المثقفة بعيدة عن عالمها، الذى تعيش فيها وكونت لنفسها مكانا دون سائر

أبناء الأمة. فلا هى قادرة على أن تفهمهم ولا هم بقادرين على فهمها، فكل منهما يتكلم بلغة مختلفة عن الآخر. فالمستحدثات والمخترعات لتسيير سبل الحياة ليست لطبقة معين دون أخرى، ولكنها للجميع، وأضرب مثلا حيا هنا. وهو أن المهندسين يستطيعون قراءة أى اصطلاح أو كتالوج لمنتج أو لآلة بلغتها الأصلية، ولا يستطيع العامل، وحتى تكون لغة التخاطب بينهم واحدة. فلا بد أن يتم تداول تلك الإرشادات بلغة العامل، وبهذا يمكن أن يرتفع مستوى الصناعة ولا تبقى المبتكرات الحديثة طلاسم وأسرارا. ويعم العلم والمعرفة ولا يمكن أن ننكر أن الذى رفع مستوى العامل فى الأمم المتقدمة هو ما يجده فى يديه من مطبوعات وكاتالوجات باللغة، التى يفهمها، ويعنى أن ارتباطنا بلغة أجنبية يجعل حضارتنا مرتبطة إلى حد معين بحضارة الأمة صاحبة هذه اللغة. أما إذا اعتمد شبابنا على لغته الأصلية، فإنه سيكون فى مقدرتهم تلقف العلم، حيث يطيب لهم، ويصبو حصيلة علمهم فى لغتهم، وتتجمع للأمة العربية عصارة الحضارة من جميع أنحاء العالم، وبالتالى تنفتح على كل الأمم والحضارات.

إن اللغة العربية غنية بالمعانى والتغييرات، واستوعبت بالفعل العلوم القديمة، وأصبحت كما ذكرنا لغة العالم. ولكنها اليوم فقيرة بالمصطلحات العلمية الحديثة، بالرغم من جهود حثيثة يقوم بها مجمع اللغة العربية، وبالتالى فإنها تصبح عاجزة عن اللحاق بالتطور الهائل، الذى نشاهده فى عصر التقنية، الذى يطلع علينا كل دقيقة بجديد. إن فقر اللغة المزعوم ليس بسبب اللغة نفسها،

بل بسبب أبنائها، الذين هالتهم وفرة الاصطلاحات فى مختلف العلوم المتنوعة، فوقفوا أمامها واجمين. إن اللغة العربية تتألف من ثمانية وعشرين حرفا، (ما عدا الهمزة)، والأفعال فيها مركبة من ثلاثة حروف، فإذا ما تم التأليف بين هذه الحروف الثلاثة فى جميع التراكيب الممكنة لحصلنا على 19656 كلمة لا تشابه الواحدة منها مع الثانية، وليس فيها حرف يشابه الآخر. إن عبقرية اللغة العربية أتت من توالدها، فكل كلمة تلد بطونا، والمولودة تلد بدورها بطونا أخرى، فحياتها منبعثة من داخلها وهذا التوالد فى الحقيقة يجرى بحسب قوانين وصيغ وأوزان وقوالب غاية فى السهولة والعذوبة، وفى المقابل، فإن أغنى لغات العالم الحية لا تتجاوز كلماتها بعض مئات من الآلاف، ولا يحتاج الإنسان فى حياته العادية إلى اكثر من بضعة آلاف من الكلمات، وفى اعتقادى أن مجامع اللغة فى البلاد العربية يمكنها أن تسدى خدمة كبيرة للباحثين ورجال العلم إذا وضعت بشكل كامل، وفى اتفاق تام بينها صيغا للاشتقاق تتمشى وروح العصر وحاجاته. يتبقى أمر آخر هو ضرورة توحيد المصطلح العلمي، وهذا ليس بالأمر العسير، وكما أوردنا أن اللغة العربية ثمينة بمصطلحاتها، فليست إذن المشكلة إيجاد أكثر من مصطلح لشيء واحد، ولكن المشكلة تكمن فى الاتفاق على مصطلح واحد للمعنى الواحد، ولا توجد مثل هذه المشكلة فى بقية الأمم المتقدمة، والتى خطت خطوات واسعة فى مجال العلم والتكنولوجيا لأن أهل اللغة الواحدة يخضعون لدولة واحدة تفرض الكلمة، فتأخذ مجراها فى

الكتب وعلى ألسنة الناس. إن أهل اللغة الفصحى فى يديهم سلاح قوى لمحاربة اللهجات العامية المنتشرة بين مختلف الدول العربية، وإن المسئولية تقع على أهل اللغة بالدرجة الأولى وتقع فى الجانب الآخر على أهل العلم أنفسهم.

أتصور أن أهم ما يمكننا علاجه للتعامل مع الأوضاع الدولية، وما يواجهنا من تحديات تكمن أساسا فى الداخل العربى عندنا، فهذا هو الأساس الجوهري، فعندما أخذنا بالأسباب وتماسكت جبهتنا الداخلية وارتفع مستوى لغة الأداء الجماعي، عبرت الأمة العربية من اليأس والهزيمة إلى النصر والثقة، وفرضنا أمورا كثيرة فى حينها، ومن أهم تبعات ذلك أن العالم كله أدرك أننا قوة ينبغى احترامها، فكان اعتراف الأمم المتحدة باللغة العربية كلغة رسمية من ضمن اللغات الرئيسية فى هذا العالم.. وقبل1973 كان هذا الأمر صعب التحقيق.

إن هذا يستدعى منا جبهة داخلية قوية متماسكة نسعى فيها إلى تعميق الاستخدام الراقى للغة العربية المبنى على الخلق والعلم، والسعى إلى توطين العلوم الحديثة، ونشر ثقافة التفاوض الإيجابى بكل ما تتطلبه من متطلبات ومعان، وهذا هو المطلب الرئيسى بعيدا عن الاستغراق فى الفرعيات والشكليات دون الجوهر. علينا ونحن ننظر إلى قضية اللغة وحروب الهوية أن نركز على البعد الداخلى أساسا، وفى أسلوب استخدامنا للغة، وألا تقتصر الجهود على قل جرجير بكسر الجيم بدلا من فتحها، أو العكس، أو قل ساعد نفسك بدلا منHelp your self،

ان قضية اللغة العربية، فى مواجهة تحديات العولمة وثورة الاتصال والقنوات الفضائية والسبق العلمى وثورة الهندسة الوراثية وغيرها من الطفرات العلمية التى طالما نتتبعها صباحا ومساء، لم تعد مسألة اختيار أن نقبل أو نرفض ذلك، ان الأمر يحتاج من العقل العربى أن يحدد الأوليات للمحافظة على أحد ثوابت الشخصية العربية وإحدى الدعائم والركائز الأساسية فى بناء الإنسان العربى المعاصر فاللغة هى وعاء الفكر، وهناك علاقة جدلية بين اللغة وتصور القضايا والمشكلات.

إن اللغة الجيدة تعبر عن الفكر الجيد، وأن الأمم الجادة هى التى تعنى بلغتها وترسم المناهج الملائمة للمحافظة عليها، وإذا لم نفق من الآن فسيأتى اليوم الذى نعرف أننا مقصرون فى أداء الأمانة وسيحاسبنا الله ثم التاريخ، وفيما أعتقد أنه لا مفر أمامنا الآن إلا أن نولى هذا الأمر من الأهمية مثلما نهتم بالمأكل والمشرب.

وحتى تسطع شمس العربية على العالم!!

وحتى تسطع مرة أخرى شمس العربية على العالم علينا: إزالة حاجز الرهبة من اللغة وتيسير سبل تعلمها، وذلك بإدماج الدارسين فى الواقع اللغوى العربى بمستوياته المتعددة، والتى تتوزع بين الفصحى والعامية، صقل المهارات اللغوية الضرورية لأداء لغوى سليم، ثم دعم قدرة الدارسين غير الناطقين بها على التعبير المرتجل فى مواقف متعددة، وفتح أعين الدارسين على منابع الثقافة العربية

ومصادرها، وأخيرا تصحيح جملة من المفاهيم والتصورات، سواء عن الثقافة العربية ومرتكزاتها، أو عن القضايا العربية وتجلياتها، أو عن صورة العرب وتشويهها.

ماذا نحن فاعلون؟

إن جميع شعوب العالم تعتز بلغاتها، فقد أصدرت اليابان تشريعا بمنع تعليم أى لغة أجنبية للأطفال تحت15 سنة، وتبعتها أمريكا بإصدار تشريع يمنع الأطفال قبل سن14 سنة من تعليم اللغات الأجنبية!!

ولكن ماذا نحن فاعلون، وتحديات اللغة العربية كثيرة ومن كل اتجاه؟

لغتنا الجميلة وتحدياتها..

التيارات الفكرية المعادية للغة العربية فى العصر الحديث ما تركت سلاحا إلا وشهرته فى وجه لغتنا الجميلة، ولا ذنب لها إلا أنها لغة القرآن الكريم والقومية العربية، فلغتنا العربية لغة ثرية مطواع، تحمل عناصر القوة، ووسائل الدفاع،وجرت محاولات لتخريب اللغة العربية، من تيارات فكرية معادية بهدف القضاء عليها، بغرض طمس الهوية العربية، والقضاء على لغة القرآن الكريم.

محاولات تخريب اللغة العربية..

فى سنة1880 م ألف أمين دار الكتب المصرية(ولهلم سبيتا)، وهو ألمانى الجنسية، وعاش فى القاهرة، وتنقل فى أحيائها ودرس اللغة العامية ووجدها تختلف من بلد إلى بلد، ألف كتابا أسماه(

قواعد اللغة العامية فى مصر) ودعا إلى إحلال العامية محل اللغة الفصحى.

فى سنة1881 م واستجابة لدعوة(سبيتا) اقترحت مجلة (المقتطف) المتعاطفة مع الإنجليز أن تكتب العلوم بالعامية، ودعت أصحاب الأقلام إلى مناقشة الاقتراح.

فى سنة1901 م،1902 م أخرج القاضى الإنجليزي(سلدن ولمور) القاضى بمحكمة الاستئناف بالقاهرة، أخرج كتابا أسماه(لغة القاهرة)، واقترح القواعد لهذه اللغة العامية، كما اقترح أن تكتب بها العلوم والأدب، ودعا إلى أن تكتب بالحروف اللاتينية، وأشادت مجلة المقتطف بالكتاب وقرظته، باعتباره مؤيدا لدعوتها القديمة، وهاج الناس وثار الرأى العام.

فى سنة1926 م دعا إنجليزى آخر وهو مهندس بالرى المصري، واسمه(سير وليم ولكوكس) إلى هجر اللغة العربية، وأعطى مثلا عمليا فى هجرانها، حيث ترجم الإنجيل إلى اللهجة القاهرية العامية.

فى 24--19444م قدم الدكتور فهمى عبد العزيز باشا، وهو كبير أعضاء مجمع اللغة العربية بالقاهرة، قدم بحثا إلى مؤتمر المجمع، وقدم صورة لمشروع يتمثل في(استبدال الحروف اللاتينية بالحروف العربية).

المحافظة على اللغة العربية مسئولية من؟

اللغة العربية هى وديعة فى أيدى الشعراء والكتاب، فليتقوا الله فى هذه المسئولية الجسيمة، التى أنيطت بأعناقهم، وليعلموا أن اللغة بحر زاخر لا تستنفد أبعاده حياة واحدة ولا جيل واحد، وإنما يظل الإنسان ولو بلغ أعلى درجات المعرفة والموهبة يستزيد منها يوما بعد يوم.

من أقوال فرسان اللغة العربية..

وفى قول مهم للدكتور كامل جمعة، أستاذ اللغة العربية بكلية الآداب، وهو: اللغة العربية أفضل وأعظم لغات العالم.. إنها لغة القرآن الكريم، إن فى هذه اللغة من الألفاظ والتراكيب والمعانى والمترادفات ما يعادل ملايين المرات أى لغة أجنبية، بل هناك من الكلمات، التى يعجز أى مترجم على ترجمتها بل يقف عاجزا أمامها مثل: موت الحيوان يقال عنه نفق، ولا يوجد مرادف لها فى اللغة الإنجليزية، ولكن توجد كلمة واحدة هيdead وتطلق على الإنسان والحيوان.

أما الاستاذ عبدالحميد الحديدي، مدير الإذاعة المصرية الأسبق، فكان يحمل من الحضور وخفة الظل ما يكفى مائة أستاذ أو يزيد، فكانت دروسه تعلّم كيف نكتب ونتذوق اللغة، ومن جمله الشهيرة: العربية موسيقى فى الأذن قبل أن تكتب جملة عليك بوضعها فى أذنك ورأسك حاول أن ترددها فى داخلك كأنها قطعة موسيقية، حتى يكون هناك انسجام واتساق بين الكلمات بعضها وبعض، فهناك

الكثير من المترادفات للكلمة الواحدة. وعليك أن تختار واحدة تتوافق مع الجملة مثل الأعوام والسنوات أيهما أعذب عند النطق والقراءة.

أما نجيب محفوظ. صاحب جائزة نوبل فى الأدب. فقد قال فى أحد أحاديثه. إن السبب وراء إجادته للكتابة أنه كان يبحث ويدقق فى المفردات ويختار أفضلها للوصف والتعريف. ويختار إحدى كلمات العامية. ويبحث فيما يقابلها من لغة فصحي، وأن هذا الأسلوب جعله متمكنا ومالكا لأدوات الكتابة.

وأخيرا أسوق عددا من توصيات مؤتمر مجمع اللغة العربية- دورته السابعة والستين2001. بعنوان: استخدام العربية السليمة فى جميع وسائل الإعلام. وهى كما يلي:

يوصى المؤتمر باستخدام العربية السليمة فى جميع وسائل الإعلام لأنها اللغة القومية المشتركة بين الشعوب العربية. التى تجعل من شعوبها اتحادا عالميا أمام التكتلات الأجنبية.

يوصى المؤتمر وزارات الإعلام فى الأمة العربية بوضع خطة لغوية مشتركة تهدف إلى المحافظة على اللغة العربية بوصفها لغة العرب القومية ولغة دينهم وتراثهم وحضارتهم مما يوجب الاعتزاز باستعمالها فى مختلف مجالات الحياة العلمية والاجتماعية والثقافية.

تعمل وزارات الإعلام فى جميع الشعوب العربية على إلغاء الثنائية بين اللغة العربية والعلمية فى وسائل الإعلام، وكذلك بين اللغة العربية واللغات الأجنبية.

تعين وزارات الإعلام فى جميع وسائلها مراجعين لغويين لمراجعة ما يلقى فى جميع وسائل الإعلام وتسجيل ما يحدث بها من أخطاء لغوية وعرض الأخطاء على العاملين فى كل وسيلة ليجتنبوها.

تتشدد وزارات الإعلام فى اختيار العاملين بجميع وسائل الإعلام بحيث يحسنون نطق الكلام العربى وأداءه أداء سليما.

تنظم وزارات الإعلام تدريبات لغوية للعاملين بجميع وسائل الإعلام المسموعة والمرئية تكسبهم المهارة فى النطق والأداء الصحيح لكلام العربية السليمة.

يوصى المؤتمر بأن يلتزم التزام رجال الدولة فى خطبهم وبياناتهم الرسمية الموجهة إلى مواطنيهم باللغة العربية السليمة.

يوصى المؤتمر جميع الوزارات أن تلزم موظيفها بأن تكون جميع المراسلات الرسمية والمنشورات باللغة العربية.

يوصى المؤتمر بالحرص على استخدام الفصحى فى وسائل الإعلام، فى المجالات السياسية والدينية والثقافية والعلمية.

يوصى المؤتمر وسائل الإعلام العربية بالحرص على زيادة المساحة المخصصة للغناء الفصيح لمواجهة طوفان الغناء الذى يستخدم مستويات هابطة من العامية واللهجات المحلية.

يوصى المؤتمر وسائل الإعلام العربية بأن تكون لأسماء البرامج الإذاعية والتليفزيونية فيها تسميات عربية وأن تتجنب استخدام التسميات الأجنبية.

يوصى المؤتمر بان تكون الفصحى الميسرة هى اللغة المستخدمة فى برامج الأطفال وبرامج الرسوم المتحركة حرصا على التنشئة اللغوية الصحيحة للطفل العربي.

يوصى المؤتمر أن تكون اللغة العربية الميسرة هى اللغة المستعملة فى مجلات الأطفال، وأن تضبط بالشكل الكامل.

يوصى المؤتمر بتفعيل القوانين الصادرة بشأن كتابة اللافتات على واجهات المحلات والشركات باللغة العربية وبخط كبير، ولامانع من أن يلحق باللافتة مضمونها بلغة أجنبية بخط صغير.

يؤلف كل مجمع كتابا للإعلاميين تيسر فيه قواعد النحو على ضوء كتاب تجديد النحو للدكتور شوقى ضيف.

يؤلف كل مجمع كتابا الأداء النطق السليم على ضوء علم التجويد وما به من قواعد صوتية دقيقة.

توثق المجامع العربية الصلات بين وسائل الإعلام ومجامع اللغة العربية فى الوطن العربي.

كلمة الأستاذ الدكتور جابر عصفور

فى افتتاح ندوة « تأثير ثورة يوليو على حركات التحرر فى شمال إفريقيا»، التى نظمها المركز الثقافى المصرى فى الرباط يوم 22 يوليو 2002 بمناسبة ذكرى مرور خمسين عاما على قيام ثورة 23 يوليو.

كان لثورة 23 يوليو ارتباط وتأثير على كل ثورات التحرر، التى حدثت فى كل قطر من أقطار المغرب العربى الكبير، ولا زلت إلى اليوم أذكر الصدى الهائل، الذى استقبلت به قصيدة أحمد عبد المعطى حجازى « أوراس»، عندما ألقاها فى محفل من محافل القاهرة، ومازلت أذكر حتى اليوم التجمعات المختلفة، التى وصلت بيننا فى القاهرة وبين أقطار المغرب العربى الكبير.

وكانت البداية هى الوحدة، التى تربط بيننا فى النضال بين الاستعمار، والآن مضى خمسون عاما كاملة على قيام هذه الثورة، وها هى الأقطار المغاربية كلها اكتمل لها التحرر منذ سنوات، ومع ذلك فهى لا زالت تعانى إلى اليوم من بعض المحاولات الاستعمارية الجديدة، التى تأخذ أشكالا مختلفة، ولكن الخطر الاستعمارى يظل

قائما. وهو خطر يؤكد فى نفس المرء أهمية الإحساس والشعور بالوحدة العربية.

ولا أستطيع أن أصف قيام ثورة يوليو سوى ببيت من الشعر فى الواقع قيل هذا البيت فى السد العالي، وهو إنجاز من إنجازات ثورة 23 يوليو:

كان حلما، فخاطرا، فاحتمالا ثم أضحى حقيقة.. لا خيالا

وبالعقل كان منجز ثورة يوليو بمثابة هذا الخاطر والحلم، الذى تحقق وعندما تحقق أشرق بنوره على الأرض العربية من حوله، وسرعان ما تجاوزها إلى العام الثالث كله، وسرعان ما تجاوزه، ليحدث تأثيرات متعددة من كل أنحاء العالم.

صحيح أن ثورة يوليو بدأت بمجموعة من الضباط الأحرار، لم تكن ثقافتهم بالثقافة العميقة بمعنى الكلمة، لكن هؤلاء الضباط الأحرار كانوا أبناء الثقافة المصرية العربية، كانوا أبناء طه حسين بقدر ما كانوا أبناء ساطع الحصري، وكانوا أبناء كل المثقفين الليبراليين واليساريين والقوميين، الذين أيقظوا الوجدان العربى ابتداء من ثورة 1919 من مصر مرورا بكل الثورات التحررية والحركات الفكرية، التى امتلأ بها الوطن العربي.

وجاء هؤلاء الضباط ثمرة من ثمرات هذا التاريخ الثقافى الجيد، ومن ثمرات التحرر الوطنى والقومى الجيد، ولذلك فيخطئ كل الخطأ من

يفصل الثالث والعشرين من يوليو عن التاريخ، الذى سبقه مصريا وعربيا، فثورة يوليو هى الامتداد الإيجابى والثمرة اليانعة والمتفجرة لكل ما كان قبلها من حركات تحرر اجتماعى وسياسي، أو حتى تحرر إبداعي، ولا غرابة كذلك أن ينتسب الضباط الأحرار كل منهم إلى تيار من التيارات، التى كانت سائدة. خالد محيى الدين مثلا ويوسف صديق كلاهما انتسب إلى اليسار المصري، وهناك من انتسب إلى الحركات القومية، وهناك من انتسب إلى الإخوان المسلمين.

لذلك كانت تركيبة الضباط الفكرية مقياسا للواقع الحي، والمتنوع لكل لتيارات الفكرية والسياسية والاجتماعية، التى تموج بها مصر أولا، أو يموج بها العالم العربى ثانيا.

وإذا كانت هذه الثورة لم تبدأ من مشروع متكامل، كما بدأت الثورة الماركسية مثلا فى الاتحاد السوفيتي، أو فيما أصبح الاتحاد السوفيتي، حيث كان الثوار يتبنون نظرية متكاملة يسعون إلى تحقيقها. هذا لم يكن موجودا فى الثورة المصرية، فكانت الاندفاعية عضوية، وكانت البداية هى الحرص على تحرير التراب الوطني، وتحرير إرادة الإنسان المصري، وكانت الشعارات واضحة منذ البداية: الحرية والعدل الاجتماعى والبعد القومي، الذى أخذ يتدعم شيئا فشيئا، لذلك نجد أو نلاحظ أن دوائر الثورة فى ازدياد، ومن خلال التجربة والخطأ كانت الثورة باستمرار تسعى إلى تصحيح مسارها، وتوسيع آفاقها، وكان من الطبيعى أن ننتظر إلى أن تأتى الستينات المجيدة حتى تصبح الثورة المصرية هذه ليست جزءا أصيلا فاعلا يسهم بقوة فى حركة

التحرر الوطنى العربى فقط، بل جزءا فاعلا وأصيلا من حركات التحرر فى العالم الثالث كله، ومن هنا جاءت العلاقات الدولية، التى دخلت فيها ثورة يوليو طرفا أساسيا محاورة ومتفاعلة مع كل رموز الرفض للاستعمار التقليدى فى هذه الفترة.

وعندما بدأت هذه الثورة بداية عضوية، أفادت من تجاربها، ووسعت من أفقها، فتكاملت فيها الأبعاد الاجتماعية مع الأبعاد الثقافية، مع الأبعاد التعليمية.

أنا شخصيا لولا أن ثورة يوليو قدرت أن يكون التعليم الجامعى بالمجان ربما ما كنت دخلت التعليم الجامعي، فقد كان من حظى عامى الجامعى الأول عندما أصدر الرئيس جمال عبد الناصر بأن يكون التعليم الجامعى مجانا بالكامل، وللأسف بعد مرور كل هذه السنوات نسمع دعاوى جديدة عن العودة بالتعليم إلى ما كان عليه، وإلغاء ما يسمى بالتعليم الجامعى المجاني.

وكان من الطبيعى مع الازدهار السياسى والاجتماعى والعسكرى أن تزدهر الآداب والفنون، ووزارة الثقافة، التى أشرف بالعمل فيها هى ثمرة من ثمار ثورة يوليو المجيدة، لأنه لم يكن فى مصر قبل ثورة يوليو ما يسمى بوزارة الثقافة، وأيضا من خلال التجريب، الذى بدأ بوزارة الإرشاد القومي، التى تولاها فتحى رضوان، ثم تتابعت التجارب إلى أن نضجت وتكاملت وتأسست وزارة الثقافة وفى عام 1956 أنشئ المجلس الأعلى لرعاية الآداب والفنون، الذى أعمل أمينا عاما له بعد أن

تغير الاسم من المجلس الخاص لرعاية الأدب والفنون إلى المجلس الأعلى للثقافة. وفى الحقيقة الأمر يحتاج إلى أبواب وساعات وأيام طويلة. لكن حسبى أن أذكر شيئا أساسيا قبل أن أقدم المتحدثين الأفاضل، وهو أن هذه الثورة بدأت بشعار « ارفع رأسك يا أخى فقد مضى عهد الاستغلال». وأنها أكدت فى قلب ووجدان وعقل كل مواطن عربى عزة قومية لم توجد من قبل. ولا أدرى إذا كانت هذه العزة القومية مستمرة أم لا. لكن كل ما كنت وما زلت اذكره أننا فى السنوات الحرجة 1956 وفى كل الأزمات. وكل المعارك التى استمرت مع الاستعمار. كنا مع امتداد الوطن العربى من أقصى الخليج حتى أقصى المحيط. كنا نشعر شعورا بأننا أصبحنا كبارا فوق الأرض. وأن الحضور العربى يفرض نفسه على العالم كله وعند العالم كله يعمل حسابا لهذه الحركة العربية الناهضة. للأسف تبدلت الأحوال. وتغيرت السنن والعادات. لذلك لم استغرب كثيرا عندما رأيت الشباب والشابات. الذين لم يشهدوا عبد الناصر ولم يشهدوا أيام الثورة المجيدة عندما شاهدوا فيلم عبد الناصر عام 1956 امتلأت جميع دور العرض السينمائى فى مصر وأذكر أكثر من مرة فى أكثر من دار عرض كان هذا الشباب الصغير الذى لم يشهد الثورة يمتلئ بالحماس أشبه بالحماس. الذى لدينا.

لذلك فأنا سعيد جدا. وأشكر سعادة السفير وسعادة المستشار الثقافى اللذين أتاحا لى أن أحتفل بثورة يوليو. لا من مصر وإنما من المغرب الشقيق. لكى أطل على هذه الثورة من المغرب الذى

كان يحب هذه الثورة، وكانت الثورة تحبه وأتصور أننا عندما نحتفل بمرور نصف قرن، لا نحتفل بالمعنى الساذج لإنشاء الخطب وتدبيج المقالات العاطفية والحماسية. أظن أن مرور نصف قرن يتيح لنا أن نتحدث بصراحة كاملة، وأن نرصد، وأن نحلل الإيجابيات، كما نرصد السلبيات لأننا لا نحتفل بثورة 23 يوليو، لكن أعود بالزمن إلى الوراء، وإنما لنمضى بالزمن إلى الأمام، ولن نمضى بالزمن إلى الإمام إلا بعد أن نستوعب الإيجابيات، ونرصد كل السلبيات ونسعى إلى تجنب الأسباب، التى أدت إلى السلبيات، أو من ثم أدت إلى الهزيمة البشعة فى العام السابع والستين.

اسمحوا لى باسم المركز الثقافى المصري، وباسم المثقفين المصريين أن أرحب بالأخوة الأفاضل، الذين سيحدثوننا عن ثورة 23 يوليو، والمغرب العربى الكبير وسنبدأ الحديث بالسيد الدكتور محمد المبروك يونس، المستشار الإعلامى بمكتب الأخوة الليبى للمملكة المغربية، والدكتور محمد المبروك حاصل على درجة الدكتوراه فى العلاقات العربية الإفريقية، وله كتابات، ونشر العديد من الأبحاث والدراسات والمقالات، وهو يعمل محاضرا فى الجامعات الليبية، ويمارس النشاط الصحافي، وله نشاط إعلامى يتمثل فى إعداد برامج ومقابلات إذاعة وتلفزيونية، وتقلد وظائف قيادية إعلامية عديدة، وقام بالتغطية للكثير من المؤتمرات العربية والإفريقية، ويعتز بأنه غطى حرب أكتوبر عام 1973 على الجبهة المصرية.

أربع شهادات مغربية عن مصر

فى الفن والثقافة والأدب

تتميز العلاقات المصرية المغربية بأنها علاقات مثالية، ومتميزة على جميع الأصعدة ومختلف المجالات. فمصر والمغرب لديهما قدر عال من التآخى الثقافي، والفكري، والروحي، والعاطفي، فمنذ أن جاء الفتح الإسلامى لشمال إفريقيا، غدا البلدان مركزين مؤثرين من مراكز الحضارة الإسلامية. ولا يزال كل منهما تحتفظ بموقعها، كمركز إشعاع، ونقطة جذب.

لقد كان دور مصر الثقافى على أرض المغرب الشقيق هو أكثر أدوارها بريقا وأعمقها أثرا. ولم تكن مقومات هذا الدور الثقافى تعتمد على المال وحده فحسب، بل إن العنصر البشرى وحده هو أهم مقوم لهذا الدور. فالبشر هم عماد أى استثمار ثقافى وخير دليل على ذلك هذا التواجد المتواصل من خلال مؤسساتها الثقافية والفنية، التى امتدت إلى أعماق التاريخ ابتداء بمكتبة الإسكندرية القديمة مرورا على الأزهر الشريف واستمر حتى إنشاء الجامعة المصرية، أم الجامعات العربية ورائدة المعرفة، التى استطاعت أن تقود وتؤثر فى كتابة تاريخ العرب

الحديث، فلا يوجد مثقف كبير أو فنان مبدع أو شاعر نبيه في المغرب، إلا وقد تأثر بالمناخ الثقافي المصرى بكل تفاعلاته، كما لا يوجد مبدع كبير أو ناقد مرموق فى أى عاصمة عربية إلا وتتلمذ فى الجامعة المصرية على يد طه حسين، ومندور، وشوقى ضيف، ورشاد رشدي، ولويس عوض، وغريال، ومحمد أنيس، وزكى نجيب محمود، والطويل، وزكريا إبراهيم، والخشاب، والساعاتي، كما أن المدن المغربية المهمة مثل فاس ومراكش وتطوان وطنجه تغنت بكل الجلال بأغنيات أم كلثوم وعبد الوهاب وعبد الحليم حافظ وليلى مراد، وشدت مع ألحان السنباطى والقصبجى وزكريا أحمد والموجى والطويل وبليغ حمدى وعمر خيرت والشريعي، وبكر، وعايشت كلمات رامى وبيرم ومأمون الشناوي، وجاهين، والأبنودي، وأخذت عن شعر شوقى وحافظ ومحمود حسن لإسماعيل، وناجي، وعلى محمود طه.

إن هذا التفاعل الحى بين مصر وثقافتها العربية كان يمثل قوة الدفع الحقيقية نحو مستقبل اكثر استنارة ووعيا وإبداعا، ولم يحاول أى طرف من الأطراف فى يوم من الأيام أن يشكك فى عمق هذه الروابط لأنها كانت تمثل زادا حقيقيا للعقل والوجدان العربي، ولأنها كانت حقائق ثابتة لا تقبل الظن أو التأويل.

وعلى مدى عامين شهد المركز الثقافى المصرى بالرباط عدة ندوات ومحاضرات شارك فى العديد منها مفكرون وسياسيون مغاربة تحدثوا بحب كبير عن مصر وارتباطهم بها وما أخذوه عن مفكريها وكتابها، وأنقل بالحرف فى هذا المقال شهاداتهم، التى سجلتها،

وستخرج إلى النور فى الكتاب التذكاري، الذى يجرى إعداده بعنوان: «المركز الثقافى المصرى بالرباط...رحلة عطاء وتواصل».

ففى توجه نوعى مميز لنشاط المركز الثقافى المصرى بالرباط وسعيا نحو تحقيق الاتصال والحوار بين الثقافات عبر المراكز الثقافية والمنافذ العلمية المختلفة، وإيمانا بالدور الفعال، الذى يقوم به المركز بالمملكة المغربية نحو نشر الثقافة ورقى الفكر وتنمية القيم السامية، كانت مبادرتنا فى الإعداد للقاء شهرى يتم عقده بقاعة الندوات والعروض يقوم فيه بدعوة رموز الثقافة والفكر والسياسة فى كل من مصر والمغرب لحديث من القلب خلال ملتقى «الصالون الثقافى المصري».

الشهادة الأولى للمفكر السياسى المغربى الدكتور عبد الهادى بو طالب، عضو أكاديمية المملكة المغربية، بعنوان: «مصر فى عيون وقلوب المغاربة»

كان اللقاء الأول فى مارس 2002 مع المفكر السياسى المغربى الدكتور عبد الهادى بو طالب، عضو أكاديمية المملكة المغربية، فى حوار حول كتابه «نصف قرن فى السياسة»، وهو مفكر مغربى معروف فى العالم العربى والإسلامى ببحوثه العلمية وتحليلاته السياسية، أستاذ كرسى محاضر فى مادتى القانون الدستورى والنظم السياسية فى العالم الثالث، كما أن سيادته كان أستاذا للملك الراحل الحسن الثاني، وللملك محمد السادس بالمعهد الملكى بالرباط، وتقلد طيلة الستينيات والسبعينيات عدة وزارات منها:

وزارة الإعلام ووزارة الشباب والرياضة، والوزير المكلف بالبرلمان، والناطق الرسمى باسم الحكومة، ثم وزيرا للعدل، ووزيرا للتربية الوطنية، ووزيرا للدولة، ثم وزيرا للخارجية، ورأس مجلس النواب المغربى (1970 1971)، ثم أصبح سفيرا للمغرب بالولايات المتحدة والمكسيك (1974 ـ1976)، وعين مستشارا لصاحب الجلالة الملك الحسن الثانى (1976ـ1978)، وفى الأعوام 1982ـ1992تقلد منصب المدير العام الأول للمنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (إيسيسكو)، كما أن له مقالات أسبوعية فى صفحة الرأى بجريدة الشرق الأوسط، وجريدة الخليج (الإمارات العربية).

وهذه هى شهادة الرجل أنقلها كما كتبها، حيث يقول:» نشأت بالمغرب مع جيل ثلاثينيات القرن الماضي، وتربيت على حب مصر والتأثر والإعجاب بمفكريها ومبدعيها، وكانت مصر تبدو لجيلى قبلة العرب ومنارة الإسلام ورائدة النهضة العربية، لذا ملأت منا العيون، وسكنت القلوب وشددنا إليها شدا وثيقا. ابتدأت دراستى فى أحضان المدرسة العربية الإسلامية، التى كان الآباء المغاربة يفضلون توجيه أبنائهم إليها لينشأوا على الانتماء للذات والخصوصية والهوية، التى حافظ المغرب عليها قرونا ضاربة فى أعماق التاريخ. كانوا يؤثرون تربية الأجيال الصاعدة فى مدرسة الأصالة وعلى قيمها، ويرفضون أن يعهدوا بتربيتهم إلى مدارس الاستلاب والتغريب، كما كانوا يسمونها، والتى كان يقدمها الاستعمار الفرنسى بديلا للمنهج التربوى العربى الإسلامى الأصيل، وكانوا ينظرون إليها نظرة الريبة

والحذر، إذ لم تكن فى نظرهم إلا فضاء غزو فكرى مرفوض.

كانت كتب دراستنا فى معظمها، وعلى ندرتها مصرية، ففى كتاب النحو الواضح لعلى الجارم ومصطفى أمين، وسفينة النحاة، وبحر الآداب، والقراءة المصورة، والوسيط فى الأدب العربي، ومختصر الشيخ خليل (المصري) فى الفقه، وغيرها من أمهات الكتب درسنا قواعد اللغة العربية وعلوم الشرع سواء فى المدرسة الابتدائية، أو فى حلقات جامعة القرويين بفاس، وفى النحو الواضح والقراءة المصورة سمعنا فى سن مبكرة عن القاهرة، والإسكندرية، وحلوان، وعن الأهرام، وأبى الهول، والأزهر، وقلعة محمد علي، وحديقة الأزبكية، والأوبرا المصرية، ما جعلنا نعيش مآثر القاهرة عن بعد، ونعشقها بالأذن قبل العين، وتكونت لنا عن مصر من خلال ذلك وغيره نظرة مختزلة عن جغرافية البلد العظيم، الذى تربينا على حبه والإعجاب به وتقديره، وعندما بلغت سن الخامسة عشرة كنت أنا ونخبة من رفقائى فى الدراسة نتعاقب على العدد الواحد من مجلة الرسالة المصرية لأحمد حسن الزيات، ليقرأه كل واحد منا فى ظرف يومين، يسلمه فى نهاية الأجل المحدد لزميل له، ليقدمه بدوره إلى زميل ثالث، وهكذا دواليك،وكانت تصل من هذه المجلة أعداد محدودة فتتهافت النخبة المغربية عليها وتكرع من حياضها دون أن تروى منها ضمأها، وكنا نهتدى بهذه الرسالة « التى تكتب فيها نخبة مرموقة من الكتاب أعتبرهم لحد اليوم من بين أساتذة.

كان أحمد حسن الزيات مدير المجلة يترجم شعر « لامرتين » وخاصة

قصيدته « البحيرة « التى أشتهر بها وأضيفت إلى أسمه « بحيرة لامرتين « كان كل عدد من المجلة يحمل مقالات ممضاه من أعلام الفكر والأدب كان من بينهم الدكتور طه حسين وأحمد أمين ومحمود عباس العقاد، ومصطفى صادق الرافعي، و»الدكاترة « زكى مبارك، وأيضا توفيق الحكيم، ومى زيادة، وعلى الطنطاوى السوري، والناقد الساخر التونسى محمود بيرم التونسى، وما أطول قائمة الكتاب والشعراء، الذين كنا نقرأ لهم بنهم، ونستمتع بعطائهم الأدبي، ونتعصب لبعضهم ضد البعض الآخر، ونصبح طرفا متورطا فى معركة نقاشهم الفكري، الذى كم كان صاخبا وممتعا.

الشهادة الثانية للأستاذ الدكتور عباس الجرارى عميد الأدب المغربى، ومستشار جلالة الملك محمد السادس عن أمير الشعراء أحمد شوقي

وفى باكورة موسمه الثقافى أقام المركز الثقافى المصرى أمسية أدبية شعرية بمناسبة مرور 134 عاما على ميلاد أمير الشعراء أحمد شوقي، والذى حل موعده يوم 16 أكتوبر 2002، ومرور 70 عاما على وفاته. شارك فيها عدد من الشخصيات المغربية على رأسهم أ.د عباس الجراري، عميد الأدب المغربى ومستشار جلالة الملك، وأ.د.محمد بن شريفة، عضو أكاديمية المملكة المغربية، والأستاذة الدكتورة مليكة العاصمى، الأستاذة بجامعة محمد الخامس، وعضو

البرلمان، وعدد آخر من الشعراء والأدباء، وعرض على جهاز عرض المعلومات Data Show جولة بمتحف أحمد شوقي «كرمه بن هانئ»، قام بإعداده كاتب المقال، مدته (10) دقائق، طاف فيه ببيت أحمد شوقي، واستعرضت فيه مجموعة نادرة من الصور الخاصة بأمير الشعراء، وصالونه وغرفة نومه والقاعة الرئيسية، التى كان يجتمع فيها مع أهل الشعر والفن، كما تم فيه التعريف بشوقى وطرائفه وضيوفه.

وكانت تلك الشهادة للأستاذ الدكتور عباس الجراري، عميد الأدب المغربى، ومستشار جلالة الملك محمد السادس، قال فيها إنه يشعر بسعادة غامرة لحضوره، هذا المجلس العلمي، وهذه الجلسة العلمية الأدبية، التى ينظمها مشكورا، وفى إطار نشاطه المعتاد والفنى والمتفرد المركز الثقافى المصرى هنا فى الرباط، وإن مصدر هذه السعادة أننا ملتئمين للاحتفال بالشعر والاحتفال بشاعر فذ كبير هو أمير الشعراء أحمد شوقي، ونحن نحتفل كذلك بمصر، مصر التى هى فى قلب كل واحد منا، مصر التى فى خاطري، ويزيد فى أهمية هذا اليوم، الذى يصادف انتقال الشاعر الكبير إلى رحمة الله قبل سبعين عاما يصادف هذا اليوم حدثا كبيرا ليس فقط على صعيد مصر ولكن على صعيد الأمة العربية الإسلامية، إن لم أقل على صعيد الإنسانية جمعاء، ذلكم هو حدث افتتاح مكتبة الإسكندرية هذه المكتبة التى عرفت بإشعاعها العلمى والفكرى خلال مراحل من التاريخ القديم، وها هى اليوم تستعيد مجدها وتستعيد إشعاعها لتكون منارة انطلاقا

من مصر. ولابد ونحن مغمورون بالسعادة أن نشير إلى أن هذه الجلسة تعقد في هذا الشهر المبارك. الذي يخلد فيه إخوتنا في مصر ومعهم جميع العرب والمسلمون، ذكر ذلكم النصر الكبير الذي عرف سنة 1973 إذا نحن سعداء لكل هذه الأسباب. وإننا لا نقدم الشكر جزيلا إلى المركز الثقافي ولرئيسه الدكتور عيد. الذي استطاع أن يجمعنا مع مجموعة مع إخواننا الشعراء والشواعر الذين سيغنون هذه الجلسة. ثم استطرد قائلا: إن أحمد شوقي رحمه الله كان طليعة كوكبة من الشعراء في المشرق العربي في العراق والشام، وفي مصر بصفة خاصة هذه الكوكبة من الشعراء. الذين عز عليهم أن ينظروا إلى الشعر العربي بعد عصوره الزاهرة كيف يتعرض للتدهور. وكيف يتعرض للانحطاط فيعودون إلى أصوله الأولى لكي يبعثوه ولكي يحيوه ولكي يعيدوا له رونقه وبهاءه وجمال ديباجته وبداعة صوره هذه الكوكبة. التي بدأها أول شاعر مصري، محمود سامي البارودي، وتبعه بعد ذلك شوقي وآخرون. ولكن شوقي برز من بين كل الشعراء الذين عاصروه أو كانوا معه في هذه الكوكبة. برز أحمد شوقي لأسباب كثيرة لأنه كان متصلا أشد الاتصال بالشعر العربي في عهود ازدهاره، وكان يتمثل الشعراء الكبار شعراء العربية الكبار من أمثال البحتري، وأبي تمام، والمتنبي، وكان يريد أن يستحضرهم في ذهنه وفي شعره وأن يقودهم إلى ساحة الشعر من خلال إبداعه هو. وبرز شوقي كذلك لأنه كان مثقفا. ودعكم مما يقال أن الشعر يمكن أن ينهض بدون ثقافة. الثقافة تغذي الشعر وتنمية وتقوية. واستطاع

شوقى أن يبرز فى إبداعه الشعرى لأنه كان صاحب ثقافة قوية وغنية، سواء على الصعيد العربى أى فى نطاق التراث العربي، أو حين أتيح له أن يكتسب ثقافة غربية أجنبية، لاسيما حين كان فى فرنسا يهيئ دراسته فى الحقوق، وقوى ذلك، فيما بعد، حينما نفى إلى الأندلس واستطاع أن يلمس جوانب كثيرة من ثقافة الغرب، وإن أخذ عليه بعض مخاصميه من النقاد أنه لم يستفد كثيرا من ثقافة الغرب، وهم مخطئون فى ذلك، مخطئون فى ذلك لأنهم أخذوا على شوقى أنه قضى سنوات فى فرنسا وفى إسبانيا ويومئذ فرنسا وإسبانيا تعرفان حركة أدبية وشعرية فيها شيء من الثورة على القديم، وفيهما تجديد، وفيهما إلى آخره، وكانوا أى هؤلاء الذين كانوا يخاصمونه، وإن كانوا يعترفون له بالشعر وبإمارة الشعر، وبتبريزه وتفوقه فى الشعر. هؤلاء أخذوا عليه أنه لم يستفد من هذه الحركة التجديدية، التى كانت فى فرنسا بصفة خاصة كانت حركة تقصد إلى التنكر للقديم، القديم فى كل شيء ليس فى الشعر فحسب، ولكن فى الشعر وفى الفكر وفى الفلسفة وفى الحياة العامة، إذا أنتم رجعتم إلى الشعراء الفرنسيين، الذين كان يمكن أن يتأثر بهم كانوا معاصرين له يوم كان فى فرنسا من أمثال فرلين ورامبو إلى آخره.

وأضاف أنه لا يوجد شاعر أو أديب أو مثقف أو منتسب للشعر والأدب وللثقافة لم يقرأ لشوقى ولم يتأثر بشوقى. شوقى كان علما يرفرف على كل العرب، وفى كل وقت وحين وفى كل مجلس وفى كل مؤسسة هذا معروف، ولكن شوقى كان يقدم نموذجا للشاعر

المتميز ويكفيني أن أتحدث ولو في كلمات محدودات عن أثر شوقي في المغرب يوم كان شوقي يقرض الشعر وينشر الشعر ويوم نشر ديوانا. وبطبيعة الحال لم تكن وسائل الاتصال يومئذ في أوائل القرن إلى سنوات العشرين أو الثلاثين لم تكن وسائل الاتصال قائمة كما هي الآن. المغرب تحت نير الحماية. وليس هناك لا مجلات ولا جرائد إلا في حدود ضيقة. وما يصل من مصر إنما يصل عبر أصداء قليلة ومحدودة يتلقفها العلماء والمفكرون والأدباء والشعراء ويتداولون لونها فيما بينهم. وكان يصل شعر شوقي كما كان يصل شعر غيره من شعراء المشرق الأفذاذ. فكان يتلقفه المغاربة. وشوقي كانت له مكانة متميزة. ويكفي أن نعرف أنه قبل سبعين سنة يوم توفي في مصر أقيم له تأبين في فاس لعله من أهم التأبينات. التي عرفت في تاريخ الأدب العربي. ونشرت تلكم القصائد وتلكم الخطب في ذلكم السفر القيم بعنوان يوم شوقي بفاس. وقدم له المرحوم محمد علال الفاسي. وهو يومئذ شاعر الشباب. كان بعض النقاد. والنقد يومئذ بالمغرب في سنوات الثلاثين مستحدث وجديد بالصيغة والنمط الحديث. النقاد بدأوا يقدمون شوقي وأضرابه من الشعراء باعتباره النموذج الذي ينبغي أن يحتذى. كان المرحوم بالعباس القباج. وهو من أوائل النقاد المغاربة كان يهاجم بعض الشعراء. الذين كان يراهم يعتمدون على التقليد. وليس في شعرهم شيء جديد كان ينتقدهم. ويقول لهم اقرأوا شعر شوقي اقرأوا شعر حافظ اقرأوا شعر مطران إلى آخره.

ولأن المراكز الثقافية بالخارج دأبت على المشاركة فى الأحداث والمناسبات، التى تجرى على أرض الوطن الغالى كجزء من مهامها، يبدو أن المركز الثقافى بالمغرب تصبح مهمته أكثر صعوبة لأن المغاربة يعرفون عن مصر الكثير حتى أن منهم من لم يزرها مرة واحدة، إلا أنه يتكلم عن حواريها وأزقتها ومعالمها أكثر من يعيشون فيها، وعندما سألت عن السبب، قيل بسبب ولع الأشقاء المغاربة بكتابها- أى مصر- ومثقفيها ومفكريها وشعرائها القديم منهم والمعاصر ويحفظون أعمالهم عن ظهر قلب، ولذا فأى مناسبة مصرية يتم الاحتفال بها أو يعلن عنها تجد الأشقاء المغاربة مهتمون بالمشاركة والإدلاء بدلوهم.

الشهادة الثالثة للاستاذ الدكتور محمد بن شريفة، عضو الأكاديمية المغربية

كان أ. د.محمد بن شريفة، عضو أكاديمية المملكة المغربية، وعضو مجمع الخالدين بالقاهرة، رجا فى مداخلته أثناء الاحتفال بأحمد شوقى أن لا ننسى حافظ إبراهيم، وأن الحديث عن شوقى لا يتم إلا بالحديث عن حافظ إبراهيم فلا يذكر أحدهما إلا ويذكر الآخر معه، فقد كانا فرسى رهان وشريكى زمان، وذكر العديد من الدراسات، التى جمع كتابها بين الشريكين، ومنها على سبيل المثال كتاب حافظ وشوقى لعميد الأدب العربى طه حسين، وكتاب « ذكرى الشاعرين » للأديب

الدمشقى أحمد عبيد، وكتاب «شوقى وحافظ» للأديب الصحافى المعروف طاهر الصنهاجي، فما كان أن حقق المركز رجاء د.بن شريفه، حيث اقام فى 4 فبراير 2003 أمسية أدبية شعرية رأسها د.محمد بن شريفه، وشارك فيها عدد من المثقفين والمفكرين المغاربة، وقدم أيضا لها بعرض على جهاز عرض المعلومات Data Show عن سيرة حافظ إبراهيم، وبعض مقتطفات من شعره، وبعض الصور التى تم الحصول عليها لندرتها، وكانت هذه هى شهادة د.بن شريفه، وبالرغم من أنها جاءت مختصرة، ولكنها ثرية بمعلوماتها وبدأها بقوله: وإذ ينظم المركز الثقافى المصرى بالرباط اليوم هذه الأمسية الأدبية الشعرية لشاعر النيل بمناسبة اختيار الرباط عاصمة للثقافة العربية لعام 2003 وبعد مرور ثلاثة أرباع قرن على وفاة شاعرى العربية الكبيرين شوقى وحافظ فإنه يكون قد نهج نهج السابقين المذكورين فى الجمع بينهما، وإن كان الجمع هنا يعتبر جمع تأخير.

واستطرد قائلا: وإن من عجائب الأقدار بعد هذا وقبل هذا، أن الموت جمع بينهما فى سنة واحدة فقد بدأ حمام الموت بحافظ، ثم ثنى بشوقى بعد شهرين ونصف تقريبا، وكان شوقى رثى حافظ بقصيدة مطلعها:

قد كنت أوثر أن تقول رثائى   يا منصف الموتى من الأحياء

لكن سبقت وكل طول سلامة   قدر وكل منية بقضـــاء

ومما يذكر فى هذا الموضوع أنه لما توفى الشيخ محمد عبده فى سنة

1905 قام على تأبينه ستة من الأعلام، هم، حسب ترتيبهم فى الكلام: الشيخ أحمد أبو خطوة، وحسن باشا عاصم، وحسن باشا عبد الرازق، وقاسم بك أمين، وحفنى ناصف، وحافظ إبراهيم، فكان من عجيب القدر أن وفياتهم كانت على هذا الترتيب، ولما بقى اثنان من هؤلاء، وهما حفنى وحافظ خاطب الأول الثانى بهذه القطعة اللطيفة:

أتذكر إذ كنا على القبر ستةٌ | نعدد آثار الإمام وننـدب
وقفنا بترتيب، وقد دب بيننا | ممات على وفق الرثاء مرتب
أبو خطوة ولى، وقفاه عاصم | وجاء لعبد الرازق الموت يطلب
فلبى، وغابت بعده شمس قاسم | وعما قليل نجم محياك يغرب
فلا تخشى هلكا ما حييت،وإن أمت | فما أنت إلا خائف تترقب
فخاطر، وقع تحت القطار ولاتخف | ونم تحت بيت الوقف وهو مخرب
وخض لجج الهيجاء أعزل آمنا | فإن المنايا منك تجرى وتهرب

فلما مات حفنى سنة 1919 أخذ منذ هذا التاريخ ينتظر الموت، وله من قصيدة قالها فى ذكرى الشيخ محمد عبده سنة 1922 يردد فيها ما ذكره حفنى ناصف:

آذنت شمس حياتى بمغيب | ودنا المنهل يانفس فطيبي
قد مضى حفنى وهذا يومنا | يتدانى فاستشيبى وأنيبي
اذكرى الموت لدى النوم ولا | تغفلى ذكره عند الهبوب
راعنى فقد شبابى وأنا | لا أراع اليوم من فقد مشيبي

حـن جـنـبـاى إلى بـرد الثرى	حيث أنـسى مـن عـدو وحبيب
قـد وقـفـنـا سـتـة نـبـكى علـي	عـالم المـشرق فى يـوم عصيب
وقـف الخمسة قـبـلى فمضوا	هـكـذا قـبـلى ونى عـن قريـب
وردوا الـحـوض تباعا فقضوا	بـاتـفـاق فى مناياهم عجيـب
أنـا مـذ بـنـو وولى عهدهـم	حـاضر اللوعة موصول النحيب

ثم تساءل: ماذا بقى من حافظ وشوقى بعد مرور قرن إلا ربع؟

لئن كان شعرهما، الذى فتحنا أعيننا على ترديده، هو وليد بيئته وصورة وقته ووثيقة شاهدة على عصره، فإن قدرا غير قليل منه لم يفقد حيويته، ولم تنل الأيام جدته، ولم ينسنا اختلاف الليل والنهار ذكره، وإذا المقياس هو كما يقول شاعر قديم:

يموت رديء الشعر من قبل أهله	وجيـده يبقى وإن مـات قائله

أو كما يقول المتنبي:

وما الدهر إلا من رواة قصائدي	إذا قلت شعرا أصبح الدهر منشدا

فإن استحضارنا لشعر شوقى وحافظ فى مختلف المناسبات عنوان البقاء وأمارة الخلود، ومَن مِن الناس من لا يردد قول شوقي، على سبيل المثال .

فـإنمـا الأمـم الأخـلاق مابقيت	فإن هم ذهبت اخلاقهم ذهبوا

ومَن مِن الناس من لا يردد قول حافظ:

الأم مـدرسـة إذا أعـددتـهـا	أعـددت شعبا طيب الأعـراق

وسارت لحافظ أبيات مسير الأمثال كقوله فى شوقي:

أمير القوافى قد أتيت مبايعا وهذى وفود الشرق قد بايعت معي

وقوله فيه أيضا:

هذا امرؤ قد جاء قبل أوان إن لم يكن قد جاء بعد أوانه

وإذ قرأنا مثل قوله فى قصيدة غادة اليابان:

لا تلم كفى إذا السيف نبا صح منى العزم والدهر أبى

رب ساع مبصر فى سعيه أخطأ التوفيق فيما طلبا

مرحبا بالخطب يبلونى إذا كانت العلياء فيه السببا

فإننا لا نفرق من بين حافظ، وبين طبقة البحترى وأبى تمام والمتنبى والمعرى وأضرابهم.

ثم ختم كلامه الموجز بشهادتين فى حق حافظ، إحداهما لمغربي، والأخرى لمشرقي، فأما الأولى فهى للشاعر الزعيم علال الفاسي، الذى يقول فى مقالة منشورة فى كتاب يوم شوقى بفاس: «ربما كان شعر حافظ إبراهيم أكثر انتشارا فى الأوساط العربية من شعر شوقي، وإذا أمكننا أن نقيس المغرب على غيره من الشعوب العربية، فإن حافظ يقرأ ويفهم فى طبقاتنا أكثر مما يقرأ ويفهم شوقي، وإذ كان هذا ينال الإعجاب والتقدير فى دوائر الأدب العليا عندنا وفى الشرق كافة، فان عامة أدبائنا يأبون إلا تقدير شاعر النيل، والإعجاب به أكثر وكتب هذا الكلام سنه1932، وأما الشهادة الثانية، فهى لعميد الأدب، الذى كان

يعز حافظ. ويقدمه على غيره: قال :رحم الله حافظ ! لم يكن فردا يعيش لنفسه بنفسه. وإنما كانت مصر كلها بل الشرق كله. بل الإنسانية كلها في كثير من الأحيان تعيش في هذا الرجل». (انتهى كلام د.بن شريفه)

الشهادة الرابعة للأديب المغربي المعروف الدكتور بن سالم حميش، (وزير الثقافة السابق)

في يوم الثلاثاء 8 يناير 2003 أقام المركز حفلا مهيبا لتكريم الأديب المغربي الدكتور بن سالم حميش. الذي فاز بجائزة نجيب محفوظ الأدبية. التي تمنحها الجامعة الأمريكية بالقاهرة كل عام. وكان للدكتور حميش هذه الشهادة. التي بدأها بتعبيره عن منتهى السرور والاعتزاز بحصوله على جائزة نجيب محفوظ للأدب. وأن هذا السرور لم يشعر به فيما فات من جوائز على قلتها. حصل عليها. لأن الجائزة تعطى باسم عالم عربي. ولكن هذا العالم أصبح له بعد عالمي. وإنها كذلك أتت من مصر العربية مصر التي في ناظره وخاطره. وإن هذا تقدير ليس فقط في حقي الشخصي. ولكن هو عبارة عن التفاتة للحركة الأدبية. وعلى وجه التحديد الروائية هنا في المغرب.

ويستمر د.حميش بقوله: وتحضرني بالمناسبة ارتسامات الروائي الكبير أطال الله في عمره نجيب محفوظ في بداية الأربعينيات عندما حصل على جائزة اسمها جائزة قوت القلوب. وكان قدرها المالي حينذاك 20 جنيها ما يعادل 40 درهما اليوم. وحصل بعد ذلك

على أخرى، جائزة مجمع اللغة العربية، وقدرها حينذاك كان 100 جنيه. فقال فيما يخص هذه الجائزة الثانية أنها أكثر فائدة من فلوس جائزة نوبل، الذى حصل عليها، وقوله: إن هذه الجوائز ساهمت فى رفع معنوياته وتحفيزه على السير دوما فى هذا المجال، الذى اختطه لنفسه، وهو مجال الكتابة الروائية. قد أقول معه نفس الشيء، لكن ثقوا بى إن قلت بأن هذا التشريف يجعلنى أكثر إحساسا وشعورا بالمسؤولية من أن لا أخيب ظن من توسموا الخير فى هذه الأعمال لهذا أعمل على تعويض عن النقائص، وما أكثرها، وعن ثغراتى وما أكثرها كذلك، والحال أننى أرى أنه ربما أجمد وأقوى رواياتى هى ما أنوى كتابتها.

حضرات السيدات والسادة أقول بالمناسبة: إن الأدب والرواية على وجه العموم هى قيم حقيقية ما أحوجنا إليها لأنها تكرس هذه القيمة، قيمة الجمال وقيمة الجمالية، لأنها العمود الغائب أو الفقير فى حياتنا على وجه العموم، جمال العلاقات الإنسانية جمال الخطابات جمال الرؤى، وما إلى ذلك. كما أن الأدب على وجه العموم، والرواية على وجه الخصوص، قد تمثل كذلك القيمة الترياق ضد التسحرات الدهنية، وتفشى البدوات والتشنجات المذهبية والعزفية أو العرقوية، كما أنها القيمة الترياق ضد أنظمة الحكم الفردى والاستبدادى وضد مسلكيات ما كان القدماء يسمونه بالحشريين والغلاة، وما نسميهم اليوم بالمتطرفين.

الرواية هى الوجه الآخر للتاريخ، الوجه المغير، الوجه المسكوت

عنه من طرف روايات المؤرخين الرسميين، أو روايات التاريخ المتحكم أو الاعتباطي الرسمي. الرواية أخيرا هي إعادة بناء وإعادة تشكيل الواقع.

كلمة وجيزة جدا عن هذه الرواية أقول باختصار شديد بأنه يمكن اعتبارها على نحو ما بأنها رواية تاريخية، ولكن ليس كالرواية التاريخية التقريرية كما مارسها قبلي بكثير جورج زيدان أو أندري موران بفرنسا، بل إذا ما طرحنا هذا السؤال الرواية التاريخية بأي معنى نجد الجواب عند نجيب محفوظ نفسه لأنه فعلا كان العربي السباق إلى بناء هذا الجنس، وإلى الاشتغال فيه بدء من ثلاثيته الفرعونية المعروفة، حيث قال: إن الرواية التاريخية هي الصنف الآخر الذي يجعل من التاريخ مجرد إطار ينشئ أحداثا وعلاقات وشخصيات ليس لها بالضرورة صلة بالتاريخ، وهذا ما فعلته، كما يقول في الثلاثية، وما لم يدركه لويس عوض في نقده الجائر للثلاثية، ويستمر قائلا: وحتى الروايات الفرعونية، التي كتبتها كان عندي فيها مساحة للعمل الخيالي. الخيال هنا بمعنى فقط الافتراض، أو ما يسمى في العلوم الطبيعية أو العلوم الرياضية أو العلوم الدقيقة على وجه بالفرضية. بمعنى أنه يوجد في العلم أن الخيال يحتاجه العالم نفسه بل هو في حاجة ماسة إليه، وأن الخيال عنده يعمل كعامل تخصيب في البحث العلمي وفي إنعاشه، كما أنه ظهرت غداة الحرب العالمية الثانية مدرسة في التاريخ تقول: إن الهوامش لا بد وأن ترجع إلى المركز، وبأن التاريخ من وجهة نظر المغلوبين، وهذا ما يمكن أن تسهم فيه أي إسهام الرواية التاريخية، واليوم حتى أدب

نجيب محفوظ، الذى استراح على تسمية بالواقع الاجتماعى يمكن الآن قراءته قراءة تاريخية عند القاهرة الجديدة وزقاق المدق أو خان الخليلى فضلا طبعا عن ثلاثيته الشهيرة، التى هى إطارها التاريخى ثورة 1919، فلحظات وتجليات من تاريخ مصر المعاصر حاضرة بقوة فى هذه الأعمال، ثم هناك صورة أو إطار الحارة، التى أعتقد بأنها آتية من اليونانية، يعنى يمكن إذا ما اقتربنا من تاريخ مصر ووضعناه تحت المجهر فنرى فيه انعكاسات العالم ككل الحياة الإنسانية بما تمور به من قضايا ومشكلات ومقادير وأقدار إلى آخره. إذا تألقت أعمال نجيب محفوظ فهى مدينة إلى شيء آخر وهو الفلسفة وما أدراك ما الفلسفة، فنجيب محفوظ سجل أطروحة مع الشيخ مصطفى عبد الرازق، واسمها فلسفة الجمال فى الإسلام، لكن لم يستطع إكمالها. الشيء الذى تأسف له أستاذه فى الفلسفة حينذاك الأستاذ (كوربين)، لكن أنا أعتقد فى جميع الأحوال بأن نجيب محفوظ ظل فى كل أعماله لم ينصرف من الفلسفة إلى الأدب بل ظل يمارس الأدب فى الفلسفة، وتوفق فى ذاك توفيقا كبيرا، كما كان الحال أو على غرار كتاب وروائيين كبار.

ختاما من باب الاعتراف بالجميل، ونعوذ بالله من العقوق، أقول إننى مدين لنجيب محفوظ بالشيء الكثير، وقلت هذا الكلام لكى لا أقول هذا الكلام بالمناسبة أو للمناسبة، أنا قلت هذا الكلام وكتبته، إما فى شكل مقالة وفى شكل رد على أجوبة فى استجوابات. أول مقالة نشرتها، وأنا يعنى حديث العهد بالجامعة وبالأدب كانت حول

اللص والكلاب، ونشرت فى العلم إذا لم تخنى الذاكرة، وما أعجبنى كثيرا بالذات فى هذه الرواية، وكنت أنا بنفسى ميالا إلى شيء من التصوف، هو شاعرية هذه الرواية الصوفية كذلك الحال بالنسبة للسمان والخريف، الذى قال عليها الناقد الكبير، الذى كان عضوا فى لجنة التحكيم الجائزة هذه، رجاء النقاش: إن هذه الرواية كانت مليئة بالندى الشعرى الدافق من هنا طبعا بالنسبة للناس الذين يتخندقون فى أجناس معينة ويقيمونها حربا شعواء ما بين الشعر والرواية أو الشعر أو الجنس آخر. أنا أقول إن نجيب محفوظ أتى بالحل. الحل هو أنه لا يمكن لأى رواية أن تتألق إلا إذا كان الشعر حاضرا فيها بشكل أو بآخر فى اللحظات الدرامية المتألقة فى الاحتداد الشعور المأساوى بالوجود أو بالحياة إلى آخره. إذن قضية زمن الرواية كما قاله نجيب محفوظ، وكما قال كذلك فيما بعد جابر عصفور لا يعنى أننا سنعلنها حربا ضد الشعر لا هو فقط يمكن اعتباره ملتقى للأجناس، والشعر لا بد أن يكون حاضرا بقوة فيه. كنت وما أزال كذلك من المعجبين بشخصية نجيب محفوظ الجذابة هذا العميد السابق فى كرة القدم، الذى قاوم كما جاء فى العرض إكراهات الوظيفة والمتاعب الصحية وتوحشات فقراء الظلام بإرادة قوية فى التحصيل المعرفى المواظب والإبداع الأدبى المتقاعد، فلم تثنى عن أخذ نصيبه من طيبات الدنيا وتخلى بروح النكتة هذه النكتة التى كم أفادتنى وأنا أحرر فصل فى مجنون الحكم يحمل هذا العنوان بين النكتة والانتقام مصر تحترق.

وأخير النقطة الثالثة اللغة. كم من سجلات ومواقف متعارضة

متضاربة قامت حول هذه القضية. وحينما نرجع إلى نجيب محفوظ نجد أن الرجل اهتدى إلى السليم فيما يخصها. هذا التعارض الاصطناعي، الذى نضعه بين الفصحى والعامية. هو اهتدى إلى ما أسماه اللغة الوسطى، ومنذ «همس الجنون»، المجموعة القصصية الأولى لنجيب محفوظ، ظل حريصا على استعمال هذه اللغة الوسطى، التى تتجاوز التعدد اللهجي، وكذلك تتجاوز غريب الألفاظ وعويصها وصعبها وظل إلى استعمال الكلمات والتعابير العامية، خاصة إذا كان لها فى الفصحى مرجع وأصل، وهذا العمرى المسلك الأقوم والأسلم، وهو مسلكى كذلك.

النقطة الرابعة، وهى فى ما يخص تقنيات الكتابة، كما يقول النقاد عن تقنيات الكتابة الروائية، فمشكلتها يحلها نجيب محفوظ بسليقته الأدبية المتأصلة، وببداهته النظرية الثاقبة انطلاقا من المأثور القائلة، ولعل قائلها هو (أوندى جيد):» الفن يمكن فى إخفاء الفن، بمعنى أن الروائى ليس مطالبا بأن يثقل كاهل النص بالتقنيات، وبأن يجر هذه التقنيات جرا، كما حصل لأصحاب الرواية الجديدة، كما هو فى علمكم إلى آخره، وكان يعتبر أن كل مضمون يفرض تقنية، كما أن كل مقام يستوجب مقاله.

حضرات السيدات والسادة إن اعتزازي، كما قلت فى هذه الرواية، يكمن فى كونها آتية من أرض الكنانة، التى كان لها السبق فى أشياء كثيرة، وكان لها النصيب الوافر ولا يزال فى تقوية الهوية الإسلامية، وكذلك العربية، ولو أن سواد سكان مصر منحدرون من

الفرعونيين مثل الفراعنة، ومن النوبيين نسبة للعرب الأقحاح فمصر المساهمة أيما إسهام كانت وما زالت فى خلق رموز الوحدة القومية الحقيقية ولا أجدر منها ولا أنفع ولا أبقى، وأعنى بهذه الرموز رموز الثقافة، رموز الغناء والموسيقى، رموز المسرح، رموز التمثيل، إذن هذه الرموز المتمثلة فى المثقفين والمبدعين والفنانين، وهم فى تصورى بناة تجانس النسيج الثقافى العربى وحماته ومطوروه، بالرغم طبعا من نكساتنا وتعثراتنا فى السياسة، وفى اكتساب القوة المادية. مكمن الداء فى التجارب القومية والممارسات القومية السالفة أشخصها فى كلمة واحدة نعوذ بالله منها، وهى الزعامة، وحب الزعامة، التى كانت تقسم العالم العربى إلى مركز والى ضواح، أو إلى محيط.

وعلال الفاسى اشتكى من هذا المعطى، أو من هذا الواقع الذى كان يفرضه بعض دعاة القومية فرضا اعتباطيا متحكما، كما أن الأستاذ المرحوم عبد الله كنون فى النبوغ المغربى نبه إلى ذلك. الآن أعتبر أننا تجاوزنا، الحمد لله، هذا الوضع، وأننا انطلقنا انطلاقة أخرى. أنا أعتبر حتى كلمة وحدة يمكننا أن نضحى بها لكى نستبدلها بمقولة الاتحاد. الاتحاد ضرورة لا بد وأن تقوم على شاكلة، أو على غرار الاتحاد الأوروبى مع العلم بأن أوروبا لم تولد موحدة، ولكن لم يأت الاتحاد إلا بعد أزمات، وتاريخ طويل من الأزمات والحروب آخرها طبعا الحرب الكونية الأولى والثانية، ولكن قبل هذا فهناك حرب الثلاثمائة سنة خلال القرن الرابع والحرب الثلاثين سنة خلال القرن السابع عشر إلى آخره، فالوحدة أو الاتحاد كان ثمرة هذه المخاضات العسيرة، وهذه الأزمات المستفحلة،

وتعتبر حتى بالنسبة لنا أن إرادة الوحدة لا بد وأن تبقى قائمة نصب أعيننا، وأن تبقى كذلك الفينق، الذى ينبعث دوما وأبدا من رماده، حتى نجابه تحديات العصر الكبرى، ونكسب أسباب المناعة الحيوية اللازمة والقوة الواقية. وأنا أعتبر أنه فى هذا المشروع، الذى نحن مطالبون جميعا بالانضواء فيه إيجابيا،» الثقافة فى مجال البحث كما فى مجال الإبداع»، وهى مطالبة بأن تلعب دورا أكاد أقول قياديا، وأن تلعب دورا رياديا من أجل توثيق أوراق العلاقات بين الجناحين المكونين للعالم العربي، وتقوية هذا النسيج الثقافي، الذى بدونه لا يمكن مطلقا على صعيد اللغة، كما على صعيد الإنتاج الأدبى والفكرى والفني، بدون هذا النسيج أنا أعتقد أنه لا يمكن ذلك الاتحاد حتى فى معطياته الاجتماعية والاقتصادية لا يمكن أن تقوم له قائمة، لهذا أنا أعتبر شخصيا أن المركز الثقافى المصرى بتعاون، طبعا، مع سعادة سفير جمهورية مصر العربية، وكذلك الأستاذ الدكتور حامد عيد يمكننا هنا فى المغرب، وفى علاقة وطيدة مع الثقافة المصرية من أن نبنى جسورا، وأن نعطى المثل لعل وعسى أن يقتضى به الإخوان الأشقاء فى البلدان العربية الشقيقة.

الاحتفال بذكرى أمير الشعراء «أحمد شوقي»

بمناسبة مرور 70 عاما على وفاته

نظم المركز الثقافى المصرى بالرباط، مساء يوم الأربعاء الموافق 2002/10/16، أمسية ثقافية عن أمير الشعراء أحمد شوقى بمناسبة مرور 70 عاما على وفاته يوم 16 /1932/10 ومرور134 عاما على ميلاده، وكانت فرصة لأن يحتفى المركز أيضا بذكرى إنشائه فى العاصمة المغربية.

شارك فى ندوة « أمير الشعراء»، كل من: الدكتور عباس الجرارى مستشار جلالة الملك محمد السادس، فألقى محاضرة عن أمير الشعراء، والدكتور محمد بن شريفة، عضو أكاديمية المملكة، فعقب على المحاضرة مذكرا بشاعر النيل حافظ إبراهيم، حيث لا يذكر شوقى إلا ويذكر حافظ معه فى رأيه، والشاعرة مليكة العاصمي، الأستاذة الجامعية، وعضوة البرلمان المغربي، التى عرضت نماذجا من شعر شوقي، والشاعر الناقد حسن المرانى المغربي، الذى ألقى قصيدة شعرية، والشاعر إسماعيل إسماعيل، الذى قدم مداخلة بعنوان: «التجديد فى شعر شوقي».

شوقي : مدرسة ما زالت مفتوحة لأجيال الشعراء

(عرض لمحاضرة الأستاذ الدكتور عباس الجراري)

أعرب الدكتور عباس الجراري في بداية محاضرته القيمة عن سعادته للمشاركة، وسط لفيف من الأدباء والشعراء، في الاحتفال بالشعر وبشاعر فذ فيه، هو أمير الشعراء أحمد شوقي، والذي يعد الاحتفال بالشاعر بمرور70 عاما على وفاته يصادف أيضا الاحتفال بحدث كبير على صعيد مصر والأمة العربية والإنسانية جمعاء، وهو افتتاح مكتبة الإسكندرية الجديدة، التي تحيي ذكرى مكتبة الإسكندرية القديمة، التي عرفت في زمانها بإشعاعها العلمي والفكري خلال مراحل التاريخ القديم، وهي اليوم ستعيد مجدها وإشعاعها من جديد، كما تأتي الندوة في شهر أكتوبر المجيد، الذي يذكرنا بالنصر الذي تحقق فيه للعرب عام 1973، واستطرد بعد ذلك الدكتور الجراري قائلا:

النقطة الأولى : هي أن أحمد شوقي رحمه الله كان طليعة كوكبة من الشعراء من المشرق العربي في العراق والشام، وفي مصر أيضا بصفة خاصة، هذه الكوكبة من الشعراء، الذين عز عليهم أن ينظروا إلى الشعر العربي بعد عصوره الزاهرة، وكيف يتعرض للتدهور وللانحطاط، فيعودون إلى أصوله الأولى لكي يبعثوه ويحيوه، ويعيدوا له رونقة وبهاءه وجمال ديباجته وبداعة صوره.

هذه الكوكبة، التي بدأت بالشاعر المصري محمود سامي البارودي،

وتبعه بعد ذلك شوقى وآخرون، ولكن شوقي برز من بين كل الشعراء، الذين عاصروه، وكانوا معه فى هذه الكوكبة.

برز شوقى لأسباب كثيرة لأنه كان متصلا أشد الاتصال بالشعر العربى فى عهود ازدهاره، وكان يتمثل الشعراء الكبار من أمثال البحترى أبى تمام والمتنبي، وكان يستحضرهم فى ذهنه وفى شعره، وأن يقودهم إلى ساحة الشعر من خلال إبداعه هو.

وبرز شوقى كذلك لأنه كان مثقفا، ودعكم مما يقال إن الشعر يمكن أن ينهض بدون ثقافة، فالثقافة تغذى الشعر وتنميه وتقويه، واستطاع شوقى أن يبرز فى إبداعه الشعري، لأنه كان صاحب ثقافة قوية وغنية سواء على الصعيد العربي، أى فى نطاق التراث العربي، أو حين أتيح له أن يكتسب ثقافة أجنبية، لا سيما حين كان فى فرنسا يهيئ دراسته فى الحقوق، وقوى ذلك فيما بعد، حينما نفى للأندلس، واستطاع أن يلمس جوانب كثيرة من ثقافة الغرب، وإن أخذ عليه بعض مخاطبيه من النقاد أنه لم يستفد كثيرا من ثقافة الغرب، وهم مخطئون فى ذلك، لأنهم أخذوا على شوقى أنه قضى سنوات فى فرنسا وفى إسبانيا، ويومئذ كانت فرنسا وإسبانيا تعرفان حركة أدبية وشعرية فيها شيء من الثورة على القديم، وفيها تجديد وفيها وفيها، وكان هؤلاء الذين يخاصمونه، وإن كانوا يعترفون له بالشعر وإمارته وبتبرزه وتفوقه فى الشعر أخذوا عليه إن لم يستفد من هذه الحركة التجديدية، والتى كانت فى فرنسا بصفة خاصة، والتى كانت تعقد إلى التنكر للقديم، القديم فى كل شيء، وليس فى

الشعر فحسب، ولكن فى الشعر، وفى الفكر وفى الفلسفة وفى الحياة العامة كان هؤلاء متمردين وثائرين وشوقى لم يكن من هذا الطرز كان صاحب ثقافة، وكان معتزا بتراثه وبشعراء عصر الازدهار، ومع ذلك استطاع أن يطور، إضافة إلى الإحياء الذى قام به، استطاع أن يطور غير قليل من مضامن الشعر الشعر القصصي، والشعر المسرحى إلى آخره هذه الأغراض، التى لم تكن مألوفة عند الشعراء أدخلها شوقى فى نطاق ما كان يريد أن يدخله يوم كان فى فرنسا، كان يختلف إلى المسرح، ولكنه كان يذهب إلى المسرح الفرنسي، الذى يقدم المسرحيات الكلاسيكية.

إذن، شوقى كان منسجما مع نفسه ومع فكره ومع ثقافته رغم ما قاله عنه مخاصموه أنه لم يستفد كثيرا من مقامه فى أوروبا ومع ذلك اعترف له أبناء مصر وأدباؤها وشعراؤها ونقادها وكان فيهم هؤلاء الذين يخاصمونه، اعترفوا له بالتبريز والتفوق فى الشعر وبأنه قام بعملية إحيائية، كانت فى حد ذاتها تطويرا وتجديدا للشعر العربي، وكان الشعر العربى فى أمس الحاجة إليها.

ويكفى أنه شاعرا كبيرا كان مضافا له، أو كان ظلاله، وهو حافظ إبراهيم شاعر النيل يوم بويع شوقى بالإمارة، قال فيه، وأثنى عليه، ويكفيه ذلك البيت الذى قال فيه:

أمير القوافى قد آتيت مبايعا وهذى وفود الشعر قد بايعت معي

حتى هذا البيت وحده كان يكفى وحده، كان يكفى شوقي، وهو يحتفل به أميرا للشعر والشعراء.

نعم.. عز أو صعب على الأدباء والشعراء أن يجدوا بعد شوقى من يخلفه فى الإمارة لأنه كان شاعرا كبيرا، ويومئذ كانت الساحة مليئة بالشعراء: شعراء الشام والعراق، الرصافي، الزهاوى وشاعر القطرين خليل مطران، ومع ذلك توقفت قضية الإمارة، وبدأ النقاد يتحدثون عن إمارة تسند لشاعر من هنا أو هناك فى مهرجان، أو كل سنة أو سنتين وانقطعت إمارة الشعر.

النقطـــة الثانية: هى أثر شوقى على غيره من الشعراء، ويمكن أن أجزم بأنه لا يوجد شاعر أو أديب أو مثقف أو منتسب للشعر والأدب والثقافة لم يقرأ لشوقي، ولم يتأثر بشوقي.

شوقى كان علما يرفرف على كل العرب، وفى كل وقت وحين، وفى كل مجلس، وفى كل مؤسسة هذا معروف، ولكن شوقى كان يقدم نموذجا للشاعر المتميز ويكفينى أن أتحدث، ولو فى كلمات معدودات عن أثر شوقى فى المغرب.

يوم كان شوقى يقرض الشعر وينشره، ويوم نشر ديوانا لم تكن وسائل الاتصال يومئذ فى أوائل القرن إلى سنوات العشرينيات والثلاثينيات قائمة كما هى الآن، فالمغرب كان تحت نير الحماية، وليس هناك لا مجلات ولا جرائد إلا فى حدود ضيقة، وما يصل من مصر إنما يصل عبر أصداء قليلة ومحدودة يتلقفها العلماء والمفكرون والأدباء

والشعراء ويتداولونها فيما بينهم، وكان يصل شعر شوقى كما يصل شعر غيره من شعراء المشرق الأفذاذ، فكان يتلقفه المغاربة، وشوقى كانت له مكانة متميزة، ويكفى أن نعرف أنه قبل سبعين سنة يوم توفى فى مصر أقيم له تأبين فى فاس، لعل من أهم التأبينات، التى عرفت فى تاريخ الوطن العربي، ونشرت تلكم القصائد والخطب فى ذلك السفر القيم بعنوانه» يوم شوقى فى فاس»، وقدم له المرحوم محمد علال الفاسي، وهو يومئذ شاعر الشباب.

كان بعض النقاد، والنقد يومئذ بالمغرب فى الثلاثينيات مستحدث بالصيغة والخط الحديث يقدمون شوقى وأحزابه من الشعراء باعتباره النموذج، الذى ينبغى أن يحتذى.

وكان المرحوم بلعباس القباج، وهو من أوائل النقاد المغاربة يهاجم بعض الشعراء، الذين يراهم يعتمدون على التقليد، وليس فى شعرهم جديد، ويقول لهم اقرأوا شعر شوقي، اقرءوا شعر حافظ، اقرأوا شعر مطران...إلى آخره.

وكان النقاد يومئذ، مثل القباج وأحمد مجى قلة، وكلهم كانوا ينظرون إلى النموذج الذى يقدمه شوقى وأحزابه من الشعراء باعتباره الشعر الذى ينبغى أن يسود، والذى ينبغى أن يقتضى أثره، وينبغى أن يكون نموذجا ومثالان، ولذا سنلاحظ أنه بعد السنوات العشرين والثلاثين سوف تظهر مجموعة من الشعراء كانوا يقتدون أثر شوقى بصفة خاصة فى كيفية تناول المضامين وتنوع الأغراض والمناسبات

المختلفة، وكذلك فى طريقة نظم الشعر، ولذا بدءا من الثلاثينيات سوف يظهر أثر شوقى بارزا على شعراء مثل علال الفاسي، الحسن بولعماني، عبد المالك البلغيثى والمختار السوسي، وهؤلاء يمكن أن نعتبرهم تلاميذ مباشرين لشوقي، واستمرت التلمذة على شوقى وأقرانه من الشعراء بعد ذلك، حتى شعراءنا الجدد اليوم، أولئك الذين يديرون ظهرهم للشعر العمودى ويجددون، هم أيضا قرأوا شوقي، وتأثروا به وحفظوا له، وكان شوقى نموذجا حاضرا أمامهم، إذن شوقى علم، وشوقى مدرسة، وشوقى نموذج، ولهذا سوف يظل الدارسون والنقاد والمبدعون والشعراء، يقولون ما لهم من قول، وسيظل أمامهم شوقى حاضرا بشعره، بكل ما قاله، سواء فى إسلامياته أو فى وطنياته أو فى مدائحه أو فى الشعر التمثيلي، فهو يعتبر منارة بارزة ومشعة ومضيئة على امتداد عهود الشعر العربي، وليس فقط فى القرن الماضي، وعلى امتداد الشعر العربى سيظل شوقى أميرا للشعراء وأميرا للشعر.

أكتفى بهاتين النقطتين لتكونان مدخلا لما سنسمع إليه من شعر ومن ملاحظات نقدية كذلك، والأخوة الحاضرون والأخوات الحاضرات عندهم وعندهن الشعر والنثر والنقد، وأترك الكلمة للدكتور محمد بن شريفة:

«شوقى وحافظ، رفيقا درب، يذكر أحدهما بالثاني»

عرض لمداخلة الدكتور محمد بن شريفة

لا يمكن أن يذكر شوقى أو يحتفى به، دون أن يذكر حافظ إبراهيم، ويحتفى به أيضا، وإذا كان قد مر سبعون عاما على وفاة شوقى اليوم، فبعد شهور قليلة ستكون قد مر سبعون عاما على وفاة حافظ إبراهيم أيضا فى شعرهما، فشوقى وحافظ رفيقا درب واحد، وفرسا رهان فى شعرهما، شوقى كان متأثرا بكبار شعراء العصر العباسى أمثال البحترى وأبى تمام والمتنبي، إضافة إلى تأثره بشعراء الأندلس: ابن زيدون وابن خفاجة.

واستطرد الأستاذ بن شريفة يقول: إنه دعى لحضور ندوة عقدت عام 1982 عن شوقى وحافظ معا أشرف عليها الأستاذ الناقد الدكتور عز الدين إسماعيل، الذى كان أستاذا هنا فى فاس، وقدمت ورقة فى هذه المناسبة عن العلاقة بين شوقى وحافظ. لذا يجب ألا ننسى حافظ إبراهيم، ولعلى أعترض على وصفه بأنه كان ظلا لشوقي، فلعله كانت لحافظ ميزة أو ميزات يتميز بها عن شوقي.

أود أن أكرر هنا أن الكتيب، الذى أشار إليه الزميل الأستاذ عباس الجرارى عن يوم شوقى بفاس يشتمل على مجموعة من المقالات

والقصائد أذكر من بينها رأيا للمرحوم علال الفاسى فى الموازنة والمفاضلة بين الشاعرين الكبيرين، وفى الآثار التى كانت لهما فى المغرب على وجه الخصوص، ويبدو من ذلك أن حافظ إبراهيم كان متعلقا أو أكثر اهتماما بأحوال المغرب فى وقته، وبما يجرى فيه، وتجلى ذلك فى عدد من قصائده، ولا سيما فى قصيدة قالها بمناسبة مطلع العام الهجري، وتعرض فيها من جملة ما تعرض له من أحوال العالم الإسلامى يومئذ إلى حالة المغرب.

حافظ القصيد العربى

« د. نجيب العوفى»

شاعر النيل

هذا هو اللقب الرديف، الذى شاع وذاع للشاعر المصرى الكبير حافظ إبراهيم، وسارت بذكره الركبان، وتداولته الألسن والأقلام.

ولا مشاحة فى هذا اللقب ولا غبار عليه، فالشاعر نهل نهلته لأولى من ماء النيل، ونذر حياته، وعشقه وإبداعه لوادى النيل وأهله.

لكن حافظ إبراهيم فى رأيي، وفى واقع الأمر والحقيقة، ليس شاعرا للنيل فحسب، بل هو شاعر لكل الأنهار والأقطار العربية من المحيط على الخليج.

إنه بعبارة، شاعر العربية والعروبة، وما لقب بشاعر النيل، فى تقديرنا، إلا لتعيين وتحديد أرومته وهويته الوطنية، أما إبداعه الشعرى والأدبي، فهو يحلف فى فضاء العروبة الشاسع، ويدور فى فلك العروبة الواسع، وما سمرنا هذا حول ذكرى حافظ إبراهيم فى أقصى المغرب العربي، سوى دليل صغير على أن شاعر النيل هو شاعر للعروبة جمعاء وللعرب أجمعين.

أليس هو القائل في أبياته الرائعة:

لمصر أم لربوع الشام تنتسب	هنا العلا وهناك المجد والحسب
ركنان للشرق لا زالت ربوعهما	قلب الهلال عليها فائق يجب
أم اللغات غذاة الفخر أمهما	وإن سألت عن الأبـاء فالعرب

ولربما جاءه هذا اللقب « شاعر النيل» ردا وضدا على ذلك اللقب الأميرى الأرستقراطي، الذى جاء صنوه، ورفيقه الشعر الكبير، أحمد شوقى « أمير الشعراء»

فإذا كان أحمد شوقى أمير للشعراء، وشاعرا للأمراء، حسب عبارة العقاد، فإن حافظ إبراهيم، شاعر الشعب، وبسطاء الناس، ولسان ناطق بآلامهم وآمالهم.

إذا كان أحمد شوقي شاعر بلاط و «سراي»، فإن حافظ إبراهيم شاعر للنيل كله ولأبناء النيل كلهم.

لعل هذه عله هذه الثنائية الضدية بين اللقبين.

أمير الشعراء = شاعر النيل

وليس بعازب عن أذهاننا، المنشأ الاجتماعى والطبقى لكل من الشاعرين الرفيقين.

ولهذا المنشأ دور لا يستهان به فى تحديد رؤية المبدع للعالم، وتحديد هويته الإبداعية ومزاجه الأدبي.

فقد ولد احمد شوقى ونشأ، وفى فمه ملعقة من ذهب، وولد حافظ

إبراهيم ونشأ وفى فمه ملعقة من خشب! وكل إناء ينضح بما فيه.

وما دمنا بصدد هذه المقارنة الأولية بين الشاعرين الكبيرين أحمد شوقى وحافظ إبراهيم، فإننا نشير إلى أن أنصع آية ودليل على نبوغ وعظمة حافظ إبراهيم هو شوقى ذاته

إذ لا يذكر شوقى، حتى يذكر معه حافظ

ولا يذكر حافظ، حتى يذكر معه شوقي

وشوقى شاعر شامخ وعملاق، لكن قامته الشامخة لم تستطع أن تخفى أو تنكس قامة حافظ وبريقه الغامر لم يكسف من بريقه وألقه. لقد كان الاثنان فرسى رهان وقطبى ميدان.

وفرض حافظ نفسه وصوته، رغم تلك الهالة القزحية الكبرى، التى حضت بشوقي.

ونستحضر فى هذا الصدد، شاعرا عملاقا آخر كأبى الطيب المتنبي، الذى كسف وهجا اللؤلؤ فيما يروى لنا التاريخ، أزيد من مائة شاعر مجايلين له، لم يصمد منهم سوى الشاعر الأمير أبى فراس الحمداني.

وهكذا كان شوقى بحق، دليلا على نبوغ وعظمة حافظ إبراهيم، إذ ظل واقفا وإياه على قدم المساواة.

ولكل منهما، من قبل ومن بعد، طابعه الخاص وعالمه الخاص.

لقد كان شوقى أرستقراطيا، وكان حافظ شعبيا، «بروليتاريا».

يرسم لنا أحد مجايليه ومخالطيه، الأديب الكبير أحمد حسن الزيات، صورة داله وبليغة ومركزة، لحياة حافظ على النحو التالي:

كان عمر حافظ سنتين، حين توفى أبوه فقيرا فى «ديروط»، فنشأ فى مهد اليتم والعدم لا يجد جانبا غير أمه ولا كافيا غير خله. فجاز مرحلة التعليم الابتدائى فى ضيق وشدة، ثم قضى بضع سنين فى طنطا متبطلا يزجى فراغه بالقراءة، ويدفع ملاله بالقريض، ولم يستطع خاله لسبب ما أن يجلو عنه غمه البائس، وذلة اليتم، فكان لا يفتأ متبرما بالعيش، متأففا من الناس، متجنيا على القدر، لا ينشئ الشعر إلا فى ذاك، ثم دفعته الحاجة إلى مكاتب المحامين، وكانت يومئذ مفتحة الأبواب لكل داخل، فتبلغ بالعمل فيها حينا، حتى أسعفته الفرص، فدخل المدرسة الحربية، وهى مطمح بصره.

وحديث أمانيه، ثم خرج منها ضابطا إلى السودان ليشهد صلف الإنجليز وضراعة المصريين.

فيثور مع إخوانه الضباط على جور المحتل وفضول الدخيل، فهو نفى من السودان والجيش.

وعن قراءات حافظ، وخلفيته الأدبية، يقول الزيات: عكف منذ شب على دواوين الشعراء، وأجزاء (الأغاني) ينتحلها ويتمثلها ويعاود النظر فيها ويستكمل الحظ منها، حتى بلغ من مختار الرواية ومصطفى الكلام مالا غاية بعده.

هكذا اجتمع لحافظ عاملان رافدان شحذا موهبته وفجرا نبوغه، يتمثل الأول فى معاناته شظف الحياة، والألم مداد القلم كما قيل،

ويتمثل الثانى فى عكوفه على قراءة ومراجعة دواوين الشعر العربى ومصنفات الأدب العربي.

يضاف إلى هذا، اطلاع حافظ على جوانب من الأدب الفرنسى والأوروبي، وإقباله على ترجمة قسم كبير من رواية « البؤساء» لفيكتور هيجو». وليس بخاف عنا تماما سر هذا الاختيار لهذا العمل « البؤساء»، فحافظ أحد أعضاء نادى البؤساء. كل ذلك، وسوى ذلك، شكل وقودا وزيتا لإبداع حافظ إبراهيم، ولشعره بخاصة.

ويعتبر حافظ، بمعية رفيقه شوقي، الحلقة الثانية الحساسة والمضيئة فى تيار الإحياء الشعري، الذى دشنه الشاعر الفحل محمود سامى البارودي.

وهى الحلقة الموسومة بالكلاسيكية الجديدة، وكان لها فضل تحرير القصيدة العربية، واللغة الشعرية من مسوحها القديمة، وتقريبهما من ضفاف العصر ومناخه. أى من ضفاف الحداثة الشعرية.

وفى المرحلة التقليدية الصرفة، كان الشاعر حافظ إبراهيم يتراوح بين فنون المديح والرثاء والوصف.. فكتب أماديح فى كل من الخديو عباس والخليفة عبد الحميد، والإمام محمد عبده وقاسم أمين، كما كتب لبعض أعيان ورموز الأمة.

وتجدر الإشارة فى هذا الصدد إلى أنه كتب قصيدة فى رثاء الملكة فيكتوريا، كما كتب أخرى فى رثاء تولستوي، إلى أن خلص بعدئذ للشعب، كما يقول الزيات.

فلابس دهماءه وخالط زعماءه، واندفع بقوة الوطنية الدافقة الشابة، إلى لواء مصطفى كامل، فمزج شكواه بشكوى البلاد، وضرب على أوتار القلوب أناشيد الجهاد، وهنا يبلغ لشاعر أشده ويعثر على ضالته.

هنا يستوى أمامنا حقا، شاعرا النيل حافظ إبراهيم، بعدته وعتاده، كشاعر اجتماعى ووطنى يصدح بهموم وأشواق أمته، ويعزف على أوتارها.

لنستمع إليه يقول فى حريق « ميت غمر » سنة 1902/ والقصيدة من بحر الخفيف.

سائلوا الليل عنهم والنهار	كيف باتت نساؤهم والعذارى
كيف أمسى رضيعهم فقد الأم	وكيف اصطلى مع القوم نارا
كيف طاح العجوز تحت جدار	يتداعى وأسقف تتجارى
رب عن القضاء أنحى عليهم	فاكشف الكرب واحجب الأقدار
فمر النار أن تكف أذاها	ومر الغيث أن يسيل انهمارا
أين طوفان صاحب الفلك يروي	هذه النار؟ فهى تشكو الأوارا
أشعلت فحمه الدياجي فأتت	تملا الأرض والمساء شرارا
غشيتهم والنحس يجرى يمينا	ورمتهم والبؤس يجرى يسارا

لقد كان شعر حافظ، سيما فى مرحلة نضجه واستوائه مرصدا لهموم شعبه وأمته يضمد الجراح تارة وينكأ هذه الجراح تارة أخرى.

لنستمع إليه فى مطلع قصيدته المشهورة (غادة اليابان)، يرسل

هذه الغضبة المصرية، وكأنه قائم بيننا، ينطق بلسان حال هذا الزمان.

والقصيدة من بحر الرمل:

لا تلم كفى إذا السيف نبا	صح منى العزم والدهر أبي
رب ساع مبصر فى سعيه	أخطأ التوفيق فيما طلبا
مرحبا بالخطب يبلونى إذا	كانت العلياء فيه السببا
عقنى الدهر ولولا أنني	أوثر .الحسنى عققت الأدبا
إيه يا دنيا اعبسى أو فابتسمي	لا ارى برقك إلا خلبا
أنا لولا أن لى من أمتي	خاذلا ما بت أشكو النوبا
أمة قد فت فى ساعدها	بغضها الأهل وحب الغربا
تعشق الألقاب فى غير العلا	وتفدى بالنفوس الرتبا
وهى الأحداث تستهدفنا	تعشق اللهو وتهوى الطربا
لا تبالي، لعب القوم بها	ام بها صرف الليالى لعبا

أجل، كأن حافظا قائم بيننا يصف واقع حال الأمة العربية، فى طلائع الألفية الثالثة بعد الميلاد، وهو الذى عاش ودرج فى طلائع الألفية الثانية من الميلاد.

ولا بد من الإشارة فى ختام هذه الكلمة إلى أن حافظ إبراهيم جمع وواءم بمهارة واقتدار بين الصناعتين، صناعة الشعر وصناعة النثر.

جمع وواءم بين جودة الكتابة الشعرية وجودة الكتابة النثرية. وخلف لنا حافظ فى مجال النثر كتابه الشهير « ليالى سطيح». وترجمته غير المكتملة لرواية « البؤساء» لفيكتور هيجو. « وكلا

العملين: المؤلف والمترجم، يدوران فى فلك السرد القصصي.

معنى هذا أن حافظا كصنوه ورفيقه أحمد شوقي، لم يكن رهين القصيد الشعرى فحسب، بل تفتح على رياض النثر الفيحاء أيضا، وعلى النثر القصصى تحديدا من خلال ترجمته « البؤساء»، وتأليفه « ليالى سطيح»، التى تتراوح بين المقامة والصورة القصصية والمقالة القصصية ومعنى هذا أيضا، أن حافظ إبراهيم كان أحد الرواد الأوائل للقصة القصيرة أو على أقل تقدير كان أحد الماهدين لانطلاقة النثر القصصي، فى الآن ذاته، الذى كان فيه رائدا، وما هذا لانطلاقة القصيد العربى النيوكلاسيكي/ الحديث.

لقد كان حافظ وما يزال، أحد الحافظين الأماجد للبيان العربي، شعره ونثره، وإن الحاجة لتتجدد إلى هؤلاء الحافظين كلما شابت الشوائب، وكدرت الأكدار وجه هذا البيان العربي.

أحمد كمال أبو المجد

الحل هو الديمقراطية

عندما استضافه الصالون الثقافى المصري، مساء الجمعة 26أبريل2002، كان الدكتور أحمد كمال أبو المجد مرتبطا بموعد فى نفس الليلة، فانطلق فى حديث سريع وحاد كمدفع رشاش سريع الطلقات غادر على أثره المركز الثقافى المصرى محاطا بمن حضر حديثه من السفراء العرب وبعض ممثلى وسائل الإعلام.

فى البدء أشار إلى أن الوضع السياسى العربى يتميز بوجود« فجوة» بين ما يقال، وبين الفعل الذى لا يفعل، وأن العالم كله فى أزمة، وهذا العام هو عام كشف المستور وإزالة الأوهام. إننا نقع فى خطأ جسيم، ولكنه مدمر أيضا عندما نردد أن السلام خيار استراتيجي، متسائلا: « لماذا نقيد أنفسنا، خاصة وأن السلام يحتاج إلى طرفين، ولا يتم بإرادة طرف واحد؟ »، موضحا أن إسرائيل لا تريد السلام، الذى نتحدث عنه وأن ما تريده، وإن لم تعلن عنه أبدا هو « دولة قوية مسيطرة ومهيمنة على المنطقة»، ونحن أمة لا تقرأ، وإن قرأت لا تدرس، وإن درست لا تبذل جهدا لكى تفهم، وما يحدث

أمام أعيننا الآن هو جزء من الشعب العربى يتعرض للإبادة. وهو أمر كان علينا أن نتوقعه إذ إن المشروع الصهيونى له طموحات لا تخفى. فذهاب شارون إلى المسجد الأقصى خلال وجود عملية سلام ولو أنها مقعدة لا تتحرك كان عملا متعمدا لإفساد مسار السلام، وإعطاء الصراع بعدا دينيا.

وبعد أن تحدث عن مظاهر الأزمة الناجمة عن التواطؤ الأمريكى الإسرائيلى وانتقال هذه الأزمة إلى أوروبا، حيث وجدت أوروبا نفسها فى أزمة سياسية لأنها مهمشة بالنسبة لاتخاذ القرار، وأزمة أخلاقية لأنها تضطر إلى المشاركة فى أشياء، أو تصمت عن أشياء تتناقض مع مبادئ الحضارة الأوروبية، كما أكد وجود تخطيط مسبق أمريكى / إسرائيلى دلل عليه بأنه خلال زيارة له للولايات المتحدة الأمريكية العام الماضي، فوجئ بأن أحدا ممن اجتمعوا معه من الأمريكيين يوجه انتقادات إلى عرفات ويقول أنه يجب عزله، وهو ما يدل على أن ما يحدث حاليا كان مخططا، وطالما يتم تفسير الحدث على أساس معلومات، فإن ذلك لا يعنى اللجوء إلى نظرية المؤامرة، أما بالنسبة للأزمة العربية، فيكفى للتدليل عليها أن الأمة العربية إزاء محاولة إسرائيلية فعالة لتصفية الشعب الفلسطينى والسلطة الفلسطينية، ومع ذلك تظهر الدول العربية فى حالة عجز معلن، وأنها سلبية فى مجمل حركتها، وأوجدت هذه الحالة قلقا على استقرار الأوضاع، بعد أن احتدم غضب الشارع على نحو قد يدفعه إلى الانقلاب على الأنظمة، فعندما تهتف الجموع فى المظاهرات:

« الجيش العرب فين؟» يعنى أن الشعوب كانت تفهم أن هناك قوة عسكرية موجودة بينما هى غير موجودة. وهذا قد يجعلها تتساءل: أين ذهبت المليارات. التى دفعت لشراء السلاح. ولما لم تستخدم فى التنمية طالما أن جيوشنا لا جدوى منها ؟

وذكر أنه رغم هذه السلبيات. فإن للأزمة انعكاسات إيجابية منها أن إسرائيل. التى كانت تبتز العالم بأسطورة الهولوكوست مارست هى نفسها هولوكوست علنيا ومشهودا به ضد الفلسطينيين. وثانى هذه الإيجابيات أن الخوف من إسرائيل بدأ يتلاشى نتيجة مواجهة وصمود المقاومة الفلسطينية شبه العزلاء. وإيقاعها خسائر فى صفوف عدوها المدجج بالسلاح. وبالتالى بدأ قانون الخوف المتناقص يعمل ضدها. وثالثها أن الشعب العربى الذى خرج دون إذن الحكام يعنى أنه مازال لدى هذا الشعب طاقة مختزلة. ويعنى أيضا أن الحكومات مضطرة إلى أن تقف معه لأنها إذا اصطدمت به واتضح أنه كان على صواب جرى مالا يحمد عقباه.

وطالب بأن يخرج الشعب العربى من المشهد الجنائزى ويتحول إلى العمل البناء والتحدي. وهذا التحدى جوهره العلم والتعليم. والعبرة فى التعليم هو المنتج النهائي. ولا يوجد سبب لأن نقبل بأن تتفوق علينا إسرائيل فى الطب والهندسة أو الزراعة أو السلع المنتجة. وإذا لم نجد حلا قريبا. سنجد أنفسنا فى مأزق لا حل له. وعلينا أن ندرك أنه فى المدى الطويل سيكون التحدى الأكبر الذى يواجهنا هو أن نكون أو لا نكون.

وبداية الحل هو التوجه نحو ديمقراطية حقيقية ومعاشة، وليست شكلية أو مدعاة. فلدينا ظاهرة الحديث عن شيء موجود، وهو في حقيقة الأمر غير موجود، فيقال مثلا عندنا في الدستور كذا وكذا، وفي الواقع لا يوجد شيء مما هو مسطر في الدستور، ولقد كنت أقول لتلامذتي دائما إن القانون الدستوري هو القانون غير المعمول به في العالم العربي.

وإذا كان الشاعر يقول: لا أذود الطير عن شجر قد تذوق المر من ثمره، فلا يجب على الأنظمة الحاكمة أن تنتظر من الشعوب أن تقف معها في أزماتها ما لم تكن شريكة لهم في تصريف الأمور، والمستهدف الآن هم الحكام والمحكومون، وهي لحظة تاريخية تفرض التوحد والوقوف في الخندق الواحد.

إن للحرية والديمقراطية وظائف تصب في النهاية في مجرى التنمية والتقدم. علينا أن نصلح من أمورنا، فإن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، بدون الديمقراطية ومشاركة الشعب في الحكم، قد يقع الحاكم في أزمة، وعندما يلجأ إلى شعبه مستغيثا به، يقول له الشعب: «اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون»، لذا يجب أن يكون الشعب شريكا في الحكم حتى يمكن له أن يتحمل المسؤولية مع الحاكمين.

الدكتور المسيرى فى الصالون الثقافى المصري

فى أمسية فكرية حميمية يوم الاثنين 29 شعبان 1423 الموافق 4 نوفمبر 2002، احتضنها المركز الثقافى المصري، حيث كان الضيف رجلا فى مؤسسة ومؤسسة فى رجل، يجلس فى رحاب الصالون الثقافى المصرى على أريكة جلدية، أمام رواد المركز من باحثين وسفراء وأكاديميين ومفكرين وصحفيين، دون أن تفصله عنهم تخوم منصة عالية أو طاولة عاجية، حيث قدم له المستشار الثقافى د.حامد عيد بعرض لمدة عشرة دقائق على جهاز عرض المعلومات Data Show عرض فيه لقصة وسيرة حياة الدكتور المسيرى، وإنتاجه الأدبى على مدى السنوات الماضية، وتم التركيز على إنتاجه المتميز «موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية».

وعلى مدى 45 دقيقة تحدث المفكر المصرى ببساطة العالم، وفهم الدارس المعمق عن عدد من القضايا بدأها بقضية المنهج، وبالتحديد مسألة الموضوعية، حيث اعتبرها دعوة مقنعة للتلقي، وبالتالى تخنق الإبداع، وتقوم بتلخيص المشروع العربى الإسلامى فى فكرة واحدة هى اللحاق بالركب الغربى بأى ثمن، وأن هذا اللحاق سيسقطنا دون شك فى منزلق الببغاوية واستيراد النموذج الغربي، كل هذا بدافع الموضوعية فاقدين لقيمنا ومبادئنا وآمالنا وآلامنا، ثم عرج فى حديثه للتأكيد على

أن الانتفاضة الفلسطينية يجب أن تستمر لأنها هى حرب التحرير الفلسطينية، ولا بد أن يستمر الجهاد حتى ينال الشعب الفلسطينى كافة حقوقه المشروعة، خاصة حقه فى إقامة دولته المستقلة، وقال: إن الانتفاضة ستؤتى ثمارها فى القريب العاجل، ولا بد أن تستمر الشعوب العربية فى مساندتها، وانتقد بشدة الصورة التى يروجها الصهاينة للفلسطينيين فى الإعلام الغربي، وكما لو أنهم عندهم رغبة شديدة فى الموت، موضحا أنهم يحاولون نزع الصبغة الإنسانية عن الفلسطيني، الذى يستشهد فى سبيل تحرير أرضه، ووصف المسيرى الحركة الصهيونية فى أوروبا بأنها كانت بهدف تخليص أوروبا من اليهود، وكان بلفور وزير خارجية بريطانيا، وصاحب الوعد الشهير بإقامة وطن قومى لليهود فى فلسطين يكره اليهود ويود تخليص أوروبا منهم، وأضاف أنه نتيجة لأزمة فى المجتمع الغربى وفشله فى حل مشكلة اليهود فى نهاية القرن التاسع عشر لجأ إلى أسلوبه الإمبريالي، الذى كان يحل به دائما مشاكله بالإتيان باليهود إلى فلسطين للتخلص منهم، وذكر المفكر المصري، صاحب موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، أن ما حدث فى فلسطين هو نقل كتلة استيطانية من الغرب على أرض فلسطين، كما نقلت كتلة استيطانية من الغرب إلى جنوب إفريقيا والجزائر فى السابق، وانتهت الآن كل الدعاوى والأكاذيب عن أن فلسطين أرض بلا شعب، وأنها أرض الميعاد لليهود وبقى الاستيطان والاحتلال.

وشبه الدكتور عبد الوهاب المسيرى الدولة الصهيونية بأنها مثل الدولة المملوكية، التى تحارب من أجل غيرها، وقال إننا لا يجب أن نفكر فى هذه الدولة كتجمع بشري، وإنما كمرتزقة وضعهم الغرب

فى فلسطين وعهد إليهم بوظيفة قتالية لخدمة أهدافهم فى المنطقة، موضحا أن هذه الدولة الاستيطانية جزء متجزئ من الغرب. ويجب أن تعمل الاستراتيجية العربية على إظهار أن هذه الدولة عبء على الغرب، فإذا نجح العرب فى ذلك، فإن الهوة ستتسع بين الجانب الاستعمارى والجيب الاستيطاني، إلا أنه ذكر أن إسرائيل تخدم مصالح الغرب بكفاءة حتى الآن.

وأكد أن إسرائيل معرضة للزوال مثل كل الجيوب الاستيطانية الاستعمارية، التى لم تنجح فى إبادة السكان الأصليين، مثلما نجح المستوطنون الغربيون فى إبادة الهنود الحمر فى الأمريكيتين، وقال إن التجربة، التى حدثت فى فلسطين لو كانت فى القرن السابع عشر لربما نجحت فى إبادة سكان فلسطين، ولكن هؤلاء المستوطنين وجدوا شعبا له تقاليد وحضارة وتاريخ ومحاط بشعوب عربية وإسلامية مساندة حتى وإن تقاعست بعض الحكومات، فهذه الشعوب مستعدة للتضحية فى سبيل ذلك.

ودعا الدكتور المسيرى إلى تأكيد الوجه الإنسانى للجهاد ضد الصهيونية كحركة استعمارية استيطانية، وأن يتأسس هذا الجهاد على إقامة العدل فى الأرض، وأن هؤلاء الصهاينة ليسوا يهودا، بل هم ظلمة، وأنه لوكان مسلمون اغتصبوا أرض فلسطين لتمت محاربتهم، وشدد على ضرورة تنفيذ مقولة الصهاينة بأن المسلمين يكرهون اليهود، مؤكدا أن ذلك غير صحيح، فالمسلمون لا يكرهون اليهود مطلقا، ويكرهونهم فقط إذا أيدوا الدولة الصهيونية.

وأضاف أن استمرار الانتفاضة الفلسطينية والانكسارات، التى تعرضت

لها إسرائيل منذ حرب الاستنزاف، ومرورا بانتصار أكتوبر رغم التشكيك فى الانتصار العربى وانتفاضة الفلسطينيين عام 1987، والانسحاب من جنوب لبنان، والانتفاضة الثانية تؤكد نهاية الحكم الصهيوني، وأن الخط البياني، الذى كان متصاعدا بدأ فى التراجع، وأوضح أننا لا يجب أن نقلل من أهمية نهاية الحكم الصهيونى حتى وإن كان ذلك لا يعنى نهاية الكيان الإسرائيلى لأن نهاية الحكم أنهى الإجماع الصهيوني، وبقى إجماع المستوطنين، وبدأت الصبغة الصهيونية تتراجع عن الدولة، وتظهر الصبغة الاستيطانية بكل معانيها، مشيرا إلى أن هجرة اليهود الفلاش، واليهود السوفيت لا علاقة لها بالصهيونية، بل هى هجرة كتلة كبير استيطانية لا تؤمن بالصهيونية، وإنما تريد الاستيطان.

وأوضح المفكر المصرى أنهم فى إسرائيل يتحدثون ولأول مرة عن نهاية إسرائيل بعد فشل قمع الانتفاضة، وقال إن ما يحدث من جرائم إسرائيلية بحق الفلسطينيين نتيجة للفشل الذريع فى قمع الانتفاضة إذ تصوروا أنها ستنتهى خلال شهرين، ولكنها استمرت منذ أكثر من سنتين، وحتى الآن، وأكد أنه لا يمكن لكيان مزروع أن يستمر إلا من خلال الظلم، ونجح شارون فى إرضاء شهوة الانتقام والظلم عند الإسرائيليين، ولم يوفر لهم الأمن واصبح لديهم خوف مترسخ من أن الانتفاضة لو استمرت ستأتى عليهم.

وأكد الدكتور المسيرى أن عناصر الأزمة فى المجتمع الإسرائيلى تسقط أى مجتمع ونظامه، ولكنه مستمر لنه مدعم من الغرب، وأضاف أنه من المستحيل التعايش السلمى مع الفكر الصهيونى لأن الحوار معه يستحيل، إذ يقوم على فكرة اغتصاب الأرض، وتشريد الشعوب.

استراتيجية تطوير العلوم والتكنولوجيا

فى البلدان الإسلامية

د.عبد العزيز التويجرى

فى توجه نوعى لنشاط المركز الثقافى المصرى بالرباط، وسعيا إلى تحقيق الاتصال والحوار بين الثقافات عبر المراكز الثقافية المختلفة، وإيمانا بالدور الفعال، الذى يقوم به المركز بالمغرب نحو نشر الثقافة ورقى الفكر وتنمية القيم الإنسانية والروحية.

فقد بادر المركز إلى الإعداد للقاء دورى يتم عقده بقاعة الندوات والعروض بمقره فى الرباط، بعد تجهيزها بشكل مناسب يقوم فيه بدعوة رموز الثقافة والفكر والسياسة فى كل من مصر والمغرب لحديث من القلب من خلال ملتقى «الصالون الثقافى المصري». وفى اللقاء الخامس لافتتاحه، والذى يجرى تحت رعاية السفير أشرف زعزع، السفير المصرى بالمغرب، فقد تمت دعوة معالى الدكتور عبد العزيز التويجرى، المدير العام للمنظمة الإسلامية للتربية والثقافة والعلوم (الايسيسكو).

وفى أمسية فكرية حميمية جرت يوم الخميس 20 فبراير 2003، احتضنها المركز الثقافى المصري، جلس ضيف اللقاء على أريكة جلدية، أمام رواد المركز من سفراء وباحثين وأكاديميين ومفكرين وصحفيين، دون أن تفصله عنهم تخوم منصة عالية أو طاولة عاجية، حيث قدم له المستشار الثقافى المصرى بعرض لمدة خمس دقائق على جهاز عرض المعلومات Data Show عرض فيه لقصة، وسيرة حياة الدكتور التويجرى، ودوره فى المنظمة، التى يديرها بكفاءة على مدى السنوات الماضية، وكان موضوع اللقاء «العالم الإسلامى وتحدّيات القرن الجديد»، وركز فى حديثه، الذى استغرق45 دقيقة على التحديات، التى يواجهها المسلمون اليوم.

وبدأ الضيف حديثه بمقولة المؤرخ والفيلسوف البريطانى أر نولد توينبي: «إن الحضارات الإنسانية المتعاقبة، منذ فجر التاريخ وإلى اليوم، إنما هى نتيجةٌ للتحدّى والاستجابة له».

ثم تكلم عن الأحداث الجسام والتحوّلات الكبيرة، التى حفل بها القرن العشرون، والتى أحدثت تغييراتٍ عميقةً فى حياة الأمم والشعوب، وكان أن نشأ واحد من الكيانات العظيمة، وهو الكيان الإسلامي، والذى اصطلح على تسميته بالعالم الإسلامي، ولكن لسوء الحظ، فقد اعترض مسيرة الأمة الإسلامية فى القرن العشرين العديد من التحديات، كانت من الضخامة والضراوة بمكان، بحيث استنزفت طاقاته، وضيّعت إمكاناته، وفوتت عليه فُرص التقدّم والنماء، حتى إذا أهلَّ القرن الحادى والعشرون، كانت التركة التى ورثها المسلمون

من المشاكل والأعباء والأزمات، بالغةَ الثقل، وأضاف أن كل المؤشّرات تؤكّد أن العالم الإسلامى أصبح اليوم فى الواجهة، وأضحى مدفوعاً إلى المواجهة، ليس منذ الحادى عشر من سبتمبر عام 2001، ولكن قبل هذا التاريخ، وبصورة تقريبية، منذ سقوط جدار برلين وانهيار الاتحاد السوفيتى السابق، وانفراط عقد المعسكر الاشتراكي، وتربُّعت الولايات المتحدة الأمريكية على قمة النظام الدولى الجديد، باعتبارها القطب الأوحد، بعد أن كانت أحد القطبَيْن المتنافسَيْن والمتصارعين فيما كان يُعرف بالحرب الباردة، منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، وإلى مطلع التسعينيات من القرن الماضي.

ولأن العالم الإسلامى يوجد اليوم فى قلب الصراع العالمى المحتدم، فقد أضحى مستهدفاً من كافة الأطراف، التى تتصارع فى الساحة الدولية، مما ترتب عليه تَفاقم التحدّيات، التى تواجهها دوله، بصورة تؤثّر بشكل عميق، فى الحياة العامة، وتنعكس آثارها السلبية على العملية التنموية برمتها.

ثم قام د. التويجرى بسرد تلك التحديات، وبدأها بالتحديات الثقافية على مستوى التنظير والتخطيط، والعمل الثقافى والفكرى والأدبى والفنى فى حقوله المتعدّدة، وعلى مستوى المواجهة المتكافئة مع التيارات الثقافية العاتية الوافدة من الغرب والشرق معاً، والموجات الإعلامية والمعلوماتية الكاسحة، ثم تحدث عن التحدّيات الاقتصادية، على مستوى الاختيارات، والإصلاحات، والتطبيقات، والتكيّف مع الأنظمة الاقتصادية الحديثة، والاندماج فى تيار العولمة واقتصاديات

السوق، والتعامل مع المنافسة الدولية فى هذه المجالات جميعاً، والمضيّ قدماً فى عملية الإصلاح الاقتصادى الشامل، بفكر جديد، وبرؤية متفتحة.

وعن التحدّيات الاجتماعية، فقد أكد أن محاربة الثالوث الخطير الفقر والجهل والمرض، ومقاومة اليأس، الذى يدفع بالشباب إلى الانهيار، هى أهم ما واجهته الأمة الإسلامية. وعن التحدّيات السياسية، ونُظُم الحكم والإدارة ومدى استجابتها لتطلعات الشعوب الإسلامية، والتزامها بالقيم الثابتة للحضارة العربية الإسلامية فى هذا المجال، وفى المقدمة منها الشورى وتوسيع نطاق المشاركة الشعبية فى الإجراءات والممارسات السياسية. وعلى مستوى العلاقة بين المواطنين والإدارة. وعلى مستوى تدبير الشأن العام، بصورة إجمالية.

ثم عرج للحديث عن التحدّيات التنموية، على مستوى الجهود المبذولة للقضاء على معوّقات التنمية، وعلى مستوى بناء القواعد الثابتة للنهضة التنموية فى جميع الميادين، تحقيقاً للتنمية المستدامة، التى تنطلق من تنمية الحاضر والحرص على مدّ منافع التنمية وفوائدها إلى الأجيال القادمة.

وخلص فى نهاية سرده لتلك التحديات إلى أنّ الاستغراق فى تحليل أبعاد هذه التحدّيات والبحث عن السبل المؤدية إلى التعامل معها، يطول ويتسع مجاله، ولذا فإن الرؤية الواقعية إلى طبيعة هذا العصر تجلى لنا الحقيقةَ التالية، وهى أن بناء القاعدة العلمية

فى المجتمعات الحديثة، هو مفتاح التعامل مع تحدّيات العصر، مهما تفاقمت خطورتها؛ لأن بناء الإنسان هو الأصل فى بناء الحضارة، ولأن المجتمع القوى القادر على الدفاع عن حقوقه ومصالحه، هو الذى تقوم فيه نهضةٌ تربوية علمية وثقافية شاملة.

كيف يواجه العالمُ الإسلاميُّ التحدّيات العلمية فى عصر العولمة فى القرن الحادى والعشرين، الذى تؤكد كلُّ المؤشّرات أنه سيكون قرنَ العلم بامتياز؟.

لا بد أن نبحث كيف سيتعامل المسلمون مع تحدّيات هذا القرن، الذى يسيطر فيه العلم على الحياة فوق هذه الأرض، ويفرض الهيمنة المطلقة على المجتمعات البشرية فى كل الميادين، بحيث سيمثّل التفوّقُ العلميُّ فى جميع حقول العلم، التحديَّ الأكبرَ للحضارة الإنسانية، بشكل غير معهود، وعلى النحو الذى يفوق، وبمستوياتٍ أكبر ما عليه الوضعُ فى مرحلتنا الراهنة التى نعيشها.

إن الاهتمام بالعلم يأخذ مسارين متوازيَيْن؛ أولهما التوسّعُ فى تدريس العلوم، فى مختلف المراحل التعليمية، ووَفق المناهج التربوية الحديثة، وبالأساليب المتطورة، وثانيهما إعطاءُ الأولوية للبحث العلمى فى شتى الحقول العلمية، وفى جميع التخصّصات، والتركيزُ على توفير الوسائل المادية والفنية والأكاديمية لتطوير البحث العلمى وتحديثه والارتقاء به إلى المستويات العليا، بحيث يقوم البناءُ التعليميُّ كلُّه على أساس العلم، تدريساً، وتعليماً، وبحثاً، واستقصاء، وابتكاراً، وتطويراً.

ولذلك، فإن من نافلة القول إن الانطلاق فى تطوير البحث العلمى وتشجيعه ودعمه، ينبغى أن يبدأ من الكتاب المدرسي، ومن البرامج التعليمية فى مراحلها الأولى، بحيث ينشأ المتعلّم مشبعاً بحب العلم والإقبال عليه والرغبة فيه، ويكبر معه هذا الحبُّ للعلم حتى يتمكّن منه، فيصير جزءاً من طبيعته، فتنمو بذلك المَلَكَةُ العلمية، وبنموّها تنبعث فى النفس الحوافز إلى التفوّق فى العلم، من خلال التعمّق فى البحث العلمى والتبحّر فى موضوعاته.

وإذا كان هذا من البديهيات، فإن الواقع المعيش فى العديد من أقطار العالم الإسلامي، يكشف لنا عن تناقضات عميقة، إذ لايزال هناك مفهومٌ مشوشٌ للعلم وللبحث العلمى يسود أوساطاً عدة، بعضُها يتحمّل مسؤولياتٍ فى سلّم العملية التعليمية، على نحوٍ من الأنحاء، وهو مفهومٌ يتعارض مع ما هو متعارفٌ عليه ومتداولٌ وموضعُ إجماعٍ من المجتمع الدولي، وعلى صعيد المحافل والمنظمات والمؤسسات الدولية المعنية، وفى مقدمتها اليونسكو. فعلى سبيل المثال، يدلّ مصطلحُ البحث العلمى فى بعض الأوساط، على الدراسات فى حقول العلوم الإنسانية. ولا شك أن هذا المفهوم، وعلى الرغم من استقرار نظرية تكامل المعرفة فى هذا العصر والتى تعنى فى مدلولها البسيط أن العلوم إنما هى منظومةٌ معرفيةٌ مترابطة الحلقات يكمل بعضُها بعضاً، فإنه مفهومٌ قاصرٌ قصوراً معيباً، كذلك فإنَّ هناك من يضيّق من المجال الحيويّ للعلم، فيجعله مقصوراً على فرع بذاته من فروع المعرفة، بحيث إذا ذُكر العلمُ أو العلماء، تَبَادَر

إلى الذهن هذا الحقلَ الضيّقُ من حقول المعرفة.

ولا شك أن هذا التضارب فى المفاهيم، يؤدّى إلى الخلط بين المعانى والدلالات، ويتسبّب فى التشويش على العاملين فى مجال التخطيط التربوي، إضافةً إلى أن هذا التضارب يشكّل النقطة المحورية فى الخلل، الذى يُصيب العملية التعليمية برمتها.

إن ازدهار العلم مرتبطٌ بالتقدم فى البحث العلمي، ولكن مع ذلك، فإن البحثَ العلميَّ هو نتيجةٌ لعوامل كثيرة تتداخل وتتشابك وتتكامل، يأتى فى مقدمتها إيجادُ المناخ الملائم للبحث العلمي، بمعنى خلق المحيط المناسب وتكوين البيئة، التى تحتضن البحثَ العلميَّ لينمو ويترعرع ويزدهر فيها، والبيئةُ العلميةُ هى الشرطُ الموضوعيُّ الأول للانطلاق العلمي، أو للنهضة العلمية بعبارة أدق.

المسألة إذن، تتوقف على أمر بالغ الأهمية، وهو خلق البيئة العلمية، التى لا يصنعها العلماء وحدهم، وإنما تتضافر جهود كثيرة فى صنعها، وهنا تأتى مسؤولية القرار السياسي، الذى يعبّر عن الرؤية السليمة إلى رسالة العلم، ويترجم الإرادة والعزم والتصميم على وضع سياساتٍ تعليميةٍ تنطلق من الاقتناع بالضرورة القصوى لإشاعة قيم العلم ومبادئه وقوانينه وضوابطه فى حياة المجتمع.

ومنطلقَ الأمر كلّه يبدأ من اتخاذ القرار السياسي، الذى يُعطى للإنفاق على تطوير البحث العلمي، عبر المراحل المتصاعدة، الأولويةَ فى السياسة المالية، بحيث تحتل الموازنة المخصّصة للبحث العلمي،

المرتبةَ الجديرةَ التى يتبوّأ العلمُ فيها الذّروةَ من اهتمامات الدولة والمجتمع، حتى وإن تمّ ذلك على حساب تلبية احتياجات أخرى تتطلبها بعض ضرورات التنمية.

استراتيجية تطوير العلوم والتكنولوجيا فى البلدان الإسلامية، التى أقرت فى مؤتمر القمة الإسلامى الثامن، الذى عقد فى شهر ديسمبر سنة 1997 بطهران.

هذه الوثيقة المصادق عليها من قادة الدول الإسلامية، تنطلق من ثلاث فرضياتٍ رئيسَة؛ أُولاها أن البلدان الإسلامية لم تستعد بما فيه الكفاية لمواجهة التحدّي، الذى يفرضه التقدم العلمى والتكنولوجى العالمي، وثانيتها أن أهمية العلوم والتكنولوجيا لم تُدرَكْ بعدُ، باعتبارها أداةً ضروريةً لتحقيق التنمية الاقتصادية والاجتماعية، وثالثتها أن الوعى بحاجة البلدان الإسلامية إلى العلوم والتكنولوجيا لتحقيق النموّ وضمان العيش الكريم لم يَتَرَسَّخْ بعدُ.

غير أننا إذا دققنا النظر فى هذه الاستراتيجية، التى صيغت فى لغة صريحة وشفّافة وكاشفة عن كل النقائص والعيوب والمشاكل والمعوّقات، نجدها توضح أن ستة بلدان إسلامية فقط (من مجموع ثمانى وخمسين (58) دولة عضواً فى منظمة المؤتمر الإسلامي)، هى التى تندرج ضمن البلدان، التى حقّقت مستوى عالياً من التنمية البشرية، لا لأنها أحرزت تقدماً ملحوظاً فى مجال العلوم والتكنولوجيا، بل لما يتوافر لديها من موارد طبيعية تدر عليها

مداخيل مرتفعة، أما البلدان الإسلامية، التى تُصَنَّف فى قائمة الدول ذات التنمية البشرية المتوسطة، فهى جاهدةٌ فى تطوير بنياتها العلمية والتقنية، وهناك طائفة ثالثة، من ضمنها معظم البلدان الإسلامية الإفريقية، تتسم بتدنّى مستواها من التنمية البشرية، وهى بذلك تواجه مشاكل اقتصادية، وأخرى تتعلّق بضعف البنية التحتية العلمية والتقنية.

والخلاصة، التى تنتهى إليها هذه الاستراتيجية، التى أصبحت اليوم وثيقةً رسميةً من الوثائق المعتمدة فى العمل الإسلامى المشترك، هى أنه فى مقدور البلدان الإسلامية أن تتقدّم بخطى حثيثة على طريق التنمية البشرية، لوفرة الموارد الطبيعية المتاحة لها، وأنه يمكن استغلال هذه الموارد الطبيعية الوفيرة بتطبيق نتائج البحث العلمى والتكنولوجى لإيجاد ما تعبّر عنه الاستراتيجية بمنافذ تسويقية واضحة المعالم، وأنه يمكن تسريع وتيرة التنمية، إذا تعزَّزت صلات التعاون فيما بين البلدان الإسلامية من خلال الهيئات المنبثقة عن منظمة المؤتمر الإسلامي، ولا سيما المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (إيسيسكو)، واللجنة الدائمة للتعاون العلمى والتكنولوجى (كومستيك)، حسب ما ورد فى الاستراتيجية.

والحق أن هذه الوثيقة، التى تُعدّ إنجازاً حضارياً بالغ الأهمية دخل بها العالم الإسلامى القرن الحادى والعشرين، هى فى حاجة إلى تعاون مشترك مكثّف لتنفيذها، وهى إلى ذلك تتطلّب إرادة جماعيةً قويةً ومتماسكةً لترجمتها إلى واقع ملموس يستفيد منه المسلمون فى

سياساتهم التنموية على المستويات الثلاثة، الوطني، والإقليمي، والإسلامى العام.

ومهما يكن من أمر، فإن تنفيذ أى وثيقة، سواءٌ أكانت هذه الاستراتيجية، أم أى خطة عمل أخرى، سيظل دائماً مفتقراً إلى المناخ الملائم، أى إلى البيئة المناسبة، لأن هناك قدراً كبيراً من التداخل بين التنفيذ للخطط وللاستراتيجيات، وبين السياسات الاقتصادية والاجتماعية والتعليمية والثقافية المعمول بها.

ويمكن القول إجمالاً، إن التحضير العلمى الجيّد لدخول العالم الإسلامى القرن الحادى والعشرين، ينبغى أن يشمل العملية التعليمية فى مجملها؛ من المنهج والمقرّر والمدرس والمدرسة والإدارة، إلى فهم المجتمع لرسالة التعليم ورؤيته إلى وظيفة التربية، ودور العلم فى تطوير حياة الناس، وهنا تندرج السياسات العامة فى أبعادها الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والعلمية، أى إن المسألة تقتضي، بل تدعو بإلحاحٍ شديدٍ، إلى القيام بحركةٍ للبناء الحضار، شاملة، عميقة، ومؤثّرة، وممتدة لا تتوقف، فى المجتمع، بصورة عامة، وليس فحسب فى جانب واحد من جوانبه، فالعالمُ الإسلاميُّ فى حاجة ماسّة إلى تقويةٍ دافعةٍ لآليات العمل الإسلامى المشترك فى المجالات التربوية والعلمية والثقافية، الذى يَتَوَازَى ويَتَكَامَلُ مع العمل الإسلامى المشترك فى الميدان الاقتصادي، من منطلق التوافق السياسى والاجتماع حول الأهداف المتفق عليها والمنصوص عليها فى ميثاق منظمة المؤتمر الإسلامي، وميثاق المنظمة الإسلامية للتربية

والعلوم والثقافة، وفى إطار التشبث بمبادئ التضامن الإسلامي.

ولئن كانت قاطرة العمل الإسلاميّ المشترك، فى إطار منظمة المؤتمر الإسلامي، تسير فى خط مرسوم لها متّفق عليه، فإن معدّل السرعة فى الوقت الحالي، لا يتلاءم مع متطلّبات التكيّف مع متغيّرات العصر وبالتالى لا يلبّى احتياجات المرحلة الراهنة والمراحل المقبلة، التى سَتَتَعَاظَمُ فيها التحدّيات العلمية والتكنولوجية، بالقدر الذى يتطلب تعبئة كل الجهود والإمكانات والموارد لمواجهتها، وهذا لن يتم إلاّ فى إطار التعاون بين دول العالم الإسلامي، على جميع المستويات، وليس فقط على المستوى العلمي، وذلك للترابط القائم بين الجوانب المختلفة للتنمية، ولتكامل عناصرها وتداخلها لدرجة الالتحام، الذى لا سبيل إلى فصله أو تجاهله.

من هنا يُصبح من الأهمية بمكان المبادرة إلى تجديد آليات العمل الإسلامى المشترك، حتى تتلاءم مع متطلبات مواجهة التحدّى العلمي، الذى يحاصر العالم الإسلامي، والذى سيظل يحاصره، ما دامت الوسائل الحالية لا تجدى ولا تؤثر، ولا تؤدى إلى النتائج المرغوب فيها.

إن الارتقاء بمستوى التعليم العلمى يرتبط بالعمل على تطوير التعليم بصورة عامة وعلى نحو شامل، ولا شك أن ثمة إجماعاً عاماً على التسليم بالمعدّلات المتدنّية لمستويات التعليم فى معظم بلدان العالم الإسلامي، فهذا واقعٌ تعيشه هذه البلدان لا سبيل إلى

إنكاره، مما يضعنا جميعاً، حكوماتٍ ومنظمات وهيئات متخصّصة ومؤسسات إعلامية وثقافية، أمام مسؤولية النهوض. وفى إطار تضافر الجهود والتعاون المشترك، بهذه المهام الضرورية، لتغيير هذا الواقع، بالمنهج العلمى وبالأسلوب المتحضّر وفى هذا المجال تتحرك المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، وتسعى من أجل تقديم الخبرة والدعم الفنى والأكاديمى والمادى للدول ذات الخصاص والنقص فى هذا الميدان.

ولعلَّ مما يكشف عن هذا الواقع غير المرضي، على صعيد التربية والتعليم والعلوم والتكنولوجيا فى بلدان العالم الإسلامي، إن معدّل الإنفاق الحكومى على البحث العلمى لا يتعدَّى نسبة واحد فى المائة من مجموع الإنفاق العام فى أكثر الأقطار الإسلامية اهتماماً بالعلم والتكنولوجيا، وعددها قليل بالقياس إلى غالبية الدول الإسلامية، التى تقلّ فيها هذه النسبة، وتنزل إلى ما هو دون 0,65 فى المائة. أما معدّل الإنفاق الحكومى على التعليم بصورة عامة فى بلدان العالم الإسلامي، فلا يزيد فى أعلى نِسَبِهِ على 15,6 فى المائة فى حالات قليلة، وينزل هذا المعدّل إلى نسبة اثنين فى المائة فى معظم الحالات، وهذا ما يكرّس الضعف العام، ويزيد فى إبطاء عملية النموّ فى العالم الإسلامي، على مختلف المستويات.

فكيف يمكن أن يواجه العالم الإسلامى التحدّيات العلمية والتكنولوجية فى عالم يسعى إلى فرض الهيمنة الشاملة، اقتصادياً وعلمياً وثقافياً، على الأمم والشعوب جميعاً، ويمضى قدماً نحو إقرار

مبدأ سياسات شمولية تندرج ضمن نظامٍ قسْريٍّ يعرف بالعولمة.

أعتقد أن الأمر من الأهمية البالغة ومن الخطورة، ومن صميم الأمن الحضارى إن جاز التعبير لدول العالم الإسلامي، بحيث يتطلب القيام بجهود مشتركة لإصلاح النظم التعليمية إصلاحاً شاملاً، ولتعميق الوعى والإحساس بضرورة إعطاء الأولوية المطلقة لقضايا التربية والتعليم والبحث العلمي، بحيث يحتل الاشتغالُ بهذه القضايا جميعاً، المرتبةَ الأولى ضمن اهتمامات الحكومات والمنظمات والمؤسسات والجمعيات والرأى العام فى العالم الإسلامي.

وثمة مسألة جديرة بالإشارة إليها فى هذا السياق، وهى أن العلم فى المفهوم المتداول لدى القوى المهيمنة الساعية بدأبٍ إلى الهيمنة على العالم، ليس بريئاً بإطلاق، ولذلك فإن التقدم فى مضمار العلم، لا يسير دائماً فى الخط المستقيم، ولا يخدم فى كل الحالات المصلحةَ الإنسانية، وليس فى هذا ما يُستغرب له؛ لأن نظام العولمة القائم على قهر إرادات الشعوب ومسخ هويات الأمم، يسير فى الغالب الأعم، فى هذه الاتجاهات، ويتعارض فى أحايين كثيرة، مع مطامح الإنسان إلى الحرية والكرامة، ومع أشواقه إلى العدل والمساواة.

إن مواجهة التحدّيات العلمية والتكنولوجية تبدأ من إصلاح التعليم برؤية شمولية وبروح من الشجاعة والجرأة، وبقدر لا يستهان به من الإقدام والثقة بالنفس، مع الحرص على تقوية التعاون الشامل بين دول العالم الإسلامي، لأن الأعباء أضخم من أن تنهض بها

دولة بمفردها. وهذا في الحقيقة، هو المجال الحيوي، الذي تتحرك فيه المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، التي لن تقدر على تحمّل مسؤولياتها إلاّ بدعم موصول وشامل من الدول الأعضاء كافّة، للمضيّ في القيام برسالتها العلمية الحضارية.

مقالات نشرت بجريدة العلم المغربية

تحت عنوان «مصريات»

الكيمياء فى مصر القديمة

الكيمياء هى إحدى العلوم الطبيعية، التى عرفها الإنسان ومارسها منذ وقت بعيد لا تعرف له بداية، ولم تبدأ كغيرها من العلوم فى الحضارات القديمة فى العالم القديم أو الجديد كعلم مستقل مقصود لذاته غير أن مبادئ الكيمياء قد عرفت وارتبطت بفنون وصناعات كثيرة كصناعة الزجاج وتلوينه وصهر المعادن، وإنتاج السبائك والطلاء والتحنيط والعلاج وصناعة الأدوية والورق والمنسوجات وغيرها.

وعرف الإنسان منذ فجر التاريخ عددا من العناصر الكيميائية الفطرية، التى توجد طليقة غير متحدة مع غيرها من العناصرالكيميائية، وأطلقوا على هذه العناصر اسم الأحجار السبعة، وهى الذهب والفضة والنحاس والرصاص والقصدير والحديد والكبريت. عرف الإنسان بعض خواص هذه العناصر الكيميائية أوجيوكيميائيتها بلغة العلم فى هذا العصر.

عرف قدماء المصريين، منذ أكثر من سبعة آلاف سنة، أن الذهب يوجد فى صخور معينة دون سواها، وهى المرو أو الكواتز، خاصة الأنواع

الرمادية اللون أو السوداء (المورْيون Marion) أو المصبوغة باللون الأحمر نتيجة احتوائها على معادن الحديد. وحفر المصريون القدماء عن هذه الصخور في كل الصحارى المصرية واستخرجوا الذهب منها بكميات كبيرة، الأمر الذى جعل مصر أغنى دول العالم القديم، ولا زالت بعض مناجم الذهب الفرعونية تحتفظ باسمها الفرعونى حتى اليوم مثل منجم حوتيت، الذى يقع بالقرب من جبل أبى ضهر بجنوب الصحراء الشرقية بمصر.

ويوجد فيه الذهب مخلوطا بالمرو الأسود. وقد أهمل قدماء المصريين عروق المرو الشفافة أو البيضاء أو بنية اللون لخلوها من الذهب. مما يوحى بأن قدماء المصريين اهتدوا إلى أن الذهب يصاحب عروق المرو الملونة بالألوان الغامقة لاحتوائها على شوائب معدنية فى الغالب، وهو ما نعرفه نحن اليوم على أسس كيميائية من أن الذهب يصاحب عادة بعض العناصر الكيميائية الملونة للصخور، مثل الحديد والتيتانيوم والفاناديوم والكوبلت والكروم والنيكل وغيرها.

وعرف الانسان منذ وقت مبكر الزجاج الطبيعى، الذى يتكون إثر ارتطام البازك الكبيرة بالرمال على سطح الأرض،حيث تنصهر الرمال بالحرارة الناشئة عن هذا الارتطام ويتكون الزجاج بتصلب مصهور الرمال. ويتوقف لون هذا الزجاج على الشوائب المعدنية المصاحبة للرمال، التى تتعرض للانصهار .

وفى مرحلة لاحقة صنع الإنسان الزجاج بصهر الرمال فى أفران

خاصة. ولونها بإضافة مواد معدنية إلى الرمال قبل صهرها. وعثر الأثريون على قطع من الزجاج الملون فى آثار الحضارة الفرعونية، فيما قبل عصر الاسرات (قبل 3200 ق.م). واستخدم المصريون النطرون، أملاح الصوديوم) المستخرج من وادى النطرون بالصحراء الغربية فى صناعة الزجاج بدليل وجود بقايا وآثار لمصانع الزجاج فى منطقة وادى النطرون.

وصنع المصريون والبابليون والآشوريون زجاجا بألوان عديدة كالأزرق والبنفسجى والأحمر والأسود والأخضر وذلك بإضافة مواد معدنية إلى خلطة الزجاج قبل صهره. و استورد المصريون معادن الكوبلت من إيران وأرمنيا لاستخدامها فى صناعة الزجاج، حيث إن Ga_fHaJ يلون الزجاج باللون الأزرق المفضل لدى المصريين القدماء.

وأتقن المصريون فن التحنيط وتفوقوا فيه وصنعوا الأصباغ لتلوين الثياب والأوانى الفخارية ورسم الصور على الجدران فى المعابد والمقابر، كما برعوا فى تحضير وتركيب الأدوية من الأعشاب الطبية وكان يقوم بهذا العمل إخصائيون من الكهنة فى أماكن خاصة فى داخل المعابد وتخزن الأدوية فى أوعية فخارية وزجاجية. كما عرف أبناء الحضارات القديمة دبغ الجلود. واستخدموا الشب والعفص والنطرون وغيرها لهذا الغرض. وأما فائدة الشب والأملاح الأخرى فى عملية الدبغ، فكانت للحيلولة دون تعفن الجلد وفساده. وكان يتم ذلك بمعاملة الجلد بمحلول مخفف من أملاح الشب، عند تنظيف الجلد. وينتج عن ذلك جلد ناعم لين، طالما بقى الشب فى مساماته.و استخدم دباغو الجلود أصباغا نباتية مختلفة لتلوين الجلد بعد دبغه.

ملامح الحركة العلمية

فى مصر بالقرنين الـ19 والـ20

التاريخ عبر ودروس، والإنسان يجب أن يلم بالأحداث الخاصة بحياته خلال الأزمنة المختلفة، فمعرفة الماضى مطلوبة لكى تكون فى خدمة الحاضر والمستقبل والشعوب، التى لا تستفيد من تجاربها السابقة لا تتقدم بنفس القدر، الذى يحدث إذا تم استيعاب خبرات الماضى.

إن تاريخ مصر الحديث لا يمكن أن يتعمق فهمه أو تستوعب دروسه دون النظر فى القاعدة المادية، التى شكلت طرق توفير احتياجات الناس ودعائم حياتهم على مختلف فئاتهم من سلع أو خدمات، ودون التعرف على مصادر المعرفة والخبرة والأدوات والأجهزة، والبنى الهيكلية التى استخدمت لهذا الغرض ومدى إسهام المواد الوطنية مالا ورجالا ومعرفة مواد.

إن تتبع تاريخ العلوم فى مصر فى القرنين التاسع والعشرين لم يكن الدافع المحرك له علميا منفصلا عن حاجات الناس ومطالبهم فى حياتهم اليومية، بل كان يقود تطوره سعى حثيث لتوفير سبل الحياة

الكريمة للناس من غذاء وكساء وسكن ودروب عمل وانتقال وأمان، وبات من الضرورى رصد المراحل، التى مرت بها العلوم والتكنولوجيا فى مصر بممارستها وانعكاساتها على ما ينفع الناس. وفى رأينا إن هذا الاهتمام بهذا الرصد يمكن إن يتخذ مقياسا لحيوية الإنسان المصري.

لقد لقى تاريخ مصر السياسى منذ الحملة الفرنسية. وما بعدها عناية واهتماما كبيرين من الدارسين والباحثين. وللأسف بقى تاريخ مصر العلمى والتكنولوجى مهملا إلى حد كبير ولا يزال بدون اجتهادات جادة ومتواصلة للكتابة بأصالة مع وجود بعض الاجتهادات. التى قامت بها أكاديمية البحث العلمى والتكنولوجيا فى تأريخ الحركة العلمية للعلوم الأساسية المختلفة. والتى أعد مادتها العلمية نخبة من العلماء فى شتى التخصصات. وهنا لا بد من أن يذكر بمزيد من الاحترام الجهد المشكور الذى قام به المرحوم الأستاذ الدكتور أبو الفتوح عبد اللطيف. رئيس الأكاديمية الأسبق.

وبداية نؤكد أنه ليس بالإمكان فهم أحداث تاريخنا المعاصر ودروسه دون النظر فى مكونه العلمى والتكنولوجيا بجانبيه المعرفى والمادي، والذى تكمن وراءه الآمال والتطلعات، الإنجازات والإخفاقات، والتى تفاعلت مع الاعتبارات السياسية والاقتصادية والاجتماعية فى صياغة نوعية الحياة فى مصر وبلورة العلاقة بين مختلف فئات المجتمع المصري، وأيضا بين مصر وعالمها الخارجي، وذلك فى الوقت الذى كان على مصر أن تتفاعل مع طفرات حضارية جديدة تحيط بعالمها، وكذلك كان عليها الجهاد لمواكبة التقدم فى العالم من حولها مستفيدة بما وصل إليه العلم والتكنولوجيا حولها.

مرة أخرى نقول إن معرفة الماضى قضية مهمة بقدر ما تسهم فى إدراك الحاضر والإعداد للمستقبل، فجوهر التأصيل وقوامه هو بالدرجة الأولى الإمكانية فى استخلاص الإبداع الماضى وتحليله، كما أن الجهد، الذى يبذل للابداع فى الحاضر هو جوهر المستقبلية الصحيح، وأن القدرة على تأريخ أى عمل هى مفتاح مواجهته، فالتاريخ يظل عملا آليا إذا اقتصر على تحقيق الأصول والتثبيت من الأحداث ورواية الأخبار، ومن هنا يعتبر موضوع الحركة العلمية فى مصر خلال القرنين 19والـ 20 من الموضوعات الرائدة، التى لم يتطرق لبحثها سوى القليل من الكتاب والمؤرخين وتعزى أهميته إلى أنه يعتبر من الموضوعات الاستراتيجية القومية المهمة، التى تمثل ركنا ركينا مهما فى تاريخ مصر الحديث والمعاصر، حيث إنه يضم الكثير من الأحداث العلمية، وكذلك الشخصيات العلمية المتنوعة فى كافة مجالات العلوم والفنون، التى ظهرت خلال تلك كما أنه يغطى فترة قرنين من الزمان تبدأ من قدوم الحملة الفرنسية على مصر 1798 وحتى عام 2000 وهى فترة بكل المقاييس التاريخية والعلمية فترة متسعة.

لقد كان القرن الثامن عشر فى الشرق العربى هو أحلك ساعات ليله الطويل، وكانت حملة بونابرت، وإن لم تكن هى التى صنعت اليقظة المصرية، درسا مثمرا للمصريين، عرفتهم أن فى الدنيا شيء غير ما ألفوا، وعلما غير الذى درسوا، إذ إن بونابرت سند فى حملته الجيش المسلح بالجيش المثقف فكان مع الغزاة الباحثون والرياضيون والمهندسون والفلكيون والأطباء والجراحون.

وعندما تولى محمد على حكم مصر آمن بضرورة الأخذ بأسباب الحضارة الغربية، ونقل علومها إلى مصر فكان أن اهتم بالبعثات والتعليم على الطريقة الغربية، وكان من بين جميع قادة الشرق الإسلامي، فى ذلك العصر هو الوحيد الذى اعتبر الاقتصاد والعلم أساس السياسة، ومن ثم كان هذا الضابط الألبانى الواعى المدرك رجل دولة، والدولة التى كان بصدد إقامتها تتمثل فى دولة قديمة عريقة ترتكز على جيش قوى فعال وتعتمد على نظام اقتصادى قوى حديث يقوم على الاكتفاء الذاتي، وتستند إلى التطور العلمى والتكنولوجي، أى تطوير الإنسان والآلة فى نفس الوقت. ونجح محمد على فى تحقيق تلك المعادلة الصعبة بكل أطرافها، بنشر المدارس على اختلاف درجاتها وإرسال البعثات إلى أوروبا، وجلب ثمرات الفكر والعلم الغربي، سواء بالتعليم المباشر أو بالترجمة، وفى نفس الوقت نقل التكنولوجيا الغربية إلى مصر فى جميع مجالات الصناعة والزراعة، ولكن ظروفا عديدة وقفت فى طريقة وعاقت تقدمه، ولكنها لم تقض عليه القضاء المبرم.

وعندما تولى عباس مقاليد الحكم فى مصر ولأنه كان شكاكا فى الغرب ومحاولاته الاستعمارية، فقد حاول القضاء على منشآت محمد على بغرض الاستغناء عن العون الأوروبي، وكان هذا باختصار بمثابة القضاء على الجانب الصحى والمفيد من النفوذ الأوروبى فى مصر ولكن هذه النهضة عادت تستأنف نشاطها فى عهد إسماعيل، الذى فتح أبواب مصر على الحضارة الأوروبية، ومعها

التدخل الأوروبى بلا حساب. ومن ثم كان الاحتلال, الذى يمثل الكبوة الثانية فى تاريخ الحركة العلمية بصفة عامة. حتى قامت ثورة يوليو 1952 لتحاول من جديد تعويض ما فات من خلال مشروعات علمية تكنولوجية متكاملة فى التعليم والبعثات والتأليف والترجمة والتطوير التكنولوجي.

لأن التعليم هو حجر الزاوية فى كل تطور علمى وتكنولوجى كان لا بد من دراسة تطور التعليم فى مصر الحديثة, حيث يلاحظ أن درجة التقدم العلمى فى مصر كانت مرتبطة ارتباطا وثيقا بدرجة تطور التعليم, فقد كان التعليم فى العصر العثمانى مقصورا على الأزهر ولم يكن هناك اهتمام بالعلوم التطبيقية, وإنما كان التركيز على العلوم الدينية والأدبية, ولذلك أحطت العلوم, وتخلفت الصناعة, التى اعتمدت على آلات يدوية, ولذلك فإن البداية الحقيقية لتاريخ التعليم فى مصر تبدأ فى عصر محمد علي, الذى اهتم بإنشاء المدارس بكل أنواعها, ولكن النظام التعليمي, الذى اتبعه محمد على هو ما يسمى بنظام الهرم المقلوب, حيث بدأ بالمدارس العليا أولا. وسبب ذلك يرجع على رغبته فى الوصول إلى نتائج سريعة, كما أنشأ ديوان المدارس للإشراف على المؤسسات التعليمية بكافة أنواعها.

ولكن التعليم فى عصر عباس يتعرض لنكبة كبرى, حيث أغلق المدارس, وحتى المدارس العسكرية جمعها كلها فى مدرسة واحدة هى مدرسة المفروزة, وفى عهد سعيد يفتح باب جديد للتعليم هو

المدارس الأجنبية، التى أسستها الإرساليات التبشيرية، لكن التعليم يشهد صحوة جديدة فى عهد إسماعيل، الذى أعاد فتح المدارس التى أغلقت فى عهد عباس وسعيد، كما انشأ أنواعا جديدة من المدارس، وذهب إلى مدى أوسع بإنشاء مدارس للبنات والتوسع فى التعليم الأجنبي، لكن التعليم عاد، وتقهقر إلى حد كبير فى ظل الاحتلال البريطاني.

وكانت ثورة يوليو 1952 بداية جديدة للتعليم، حيث عملت حكومة الثورة على نشر التعليم الشعبي، وترسيخ مبدأ تكافؤ الفرص عن طريق مجانية التعليم والاهتمام الشديد بإعداد المعلم.

ويأتى الملمح الثانى بعد التعليم، وهو البعثات العلمية، التى تعتبر دينامو الحركة العلمية لأى بلد قام يرغب فى اللحاق بركب العلم والتقدم، وأدرك محمد على تلك الحقيقة من البداية، بل كان إرسال البعثات إلى أوروبا أسبق إلى إنشاء المدارس.

ورغم أن التعليم تعرض لكبوة فى عهد عباس إلا أنه تم إرسال بعض البعثات إلى أوروبا، بالرغم من أنها لم تكن فى حجم البعثات.

قصة أقدم وثيقتين مصريتين

فى فنون الكيمياء

إن نشأة العلم فى بلد من بلدان وازدهاره فيها يتطلب قدرا كافيا من النضج فى المثل الأخلاقية والاجتماعية، وهذا يتطلب قدرا كافيا من المركزية السياسية والاستقرار الحكومي، وقد تحقق هذا فى وقت مبكر فى وادى النيل، ولحسن حظ المصريين كون عهود الاستقرار طويلة مكنتهم من توطيد أركان نظمهم وتعميق جذور تقاليدهم، وبذلك تيسر للحضارة المصرية التقدم والنماء.

ولكى ندرك قيمة طول هذه العصور يمكننا مقارنة ما حدث فى مصر بما حدث فى بلد مثل أمريكا، فإن فرضنا أن ذلك التاريخ، الذى يمتد من أيام الثورة الأمريكية عام 1775 إلى يومنا هذا (حوالى 225 عاما) يمثل وحدة واحدة، فإن كلا من الدولة القديمة والوسطى والحديثة فى مصر القديمة تكون استمرت 3،4،3 وحدات على التوالي، ومن ثم فإن تعدد فترات الاستقرار الطويلة فى التاريخ المصرى كانت بلا شك أهم عوامل التقدم الحضارى والإبداع الفكرى والعلمي.

وفى هذا الإطار سنتناول قصة أقدم، وأهم وثيقتين مصريتين فى الكيمياء كشف عنهما النقاب فى بدايات القرن العشرين، وهما يظهران إلى أى مدى من التقدم وصلت إليه علوم المصريين القدماء فى الفنون وتطبيقاتها.

وتحكى القصة أنه فى حوالى 290 بعد الميلاد أمر الإمبراطور الرومانى دقلديانوس بحرق وتدمير كل الأعمال، التى تتعلق بفنون الكيمياء، خاصة إلتى تتعلق بتحضير الذهب والفضة لأنه أعتقد فى إمكانية أن يقوم صانعو الذهب والفضة بالإثراء وتكوين المال ليثوروا بعد هذا عليه، ويعتقد أن هذا هو السبب الرئيسى فى اختفاء جزء كبير من تاريخ فن الكيمياء القديمة وتطبيقاتها، ومن حسن الحظ أن بعضا من أهم الأعمال، التى بنى عليها فكر الكيمياء عند المصريين القدماء وصلت إلينا، حيث اكتشفت فى طيبة مجموعة كبيرة من أوراق البردى كتبت باليونانية، وجمعت فى السنوات الأولى للقرن التاسع عشر بواسطة نائب قنصل السويد بالإسكندرية جوهان أناستاسى tasy johann Danes فى ذلك الوقت، وتم بيع الجزء الأكبر من هذه المجموعة عام 1828 للحكومة الهولندية، التى أودعتها متحف جامعة ليدن sum university of leaden MU

وعرفت هذه المجموعة فيما بعد باسم برديات ليدن Papyus X OF Leaden X واحتوت هذه الأوراق مجموعة من الوصفات الكيماوية وبعض الإشارات لصناعة السبائك المعدنية، وإنتاج الذهب والفضة وبعض فنون الصباغة، ومن المثير للانتباه إن هذه الوصفات لم تكتب

للعامة، ولكن لمساعدة الصناعيين، حيث كانت مفصلة، ولكن فى غموض وسرية حتى لا تعطى للعامة فرصة لفهمها.

وفى عام 1885 أكمل ليمانز Clemens نشر المراجع، التى تحوى الترجمة اللاتينية لعدد من هذه المخطوطات، كما أقام الكيميائى الفرنسي، وكاتب تاريخ الكيمياء المشهور م. بيرثلوت Marcelin Berthelot بإخضاع هذا العمل للتحليل الدقيق، وكشف عن كل ما جاء فى هذه المخطوطة، وقام بترجمتها إلى الفرنسية بعد تحقيقها، حيث أرجع عصرها إلى نهاية القرن الثالث بعد الميلاد.

وفى عام 1913 وفى اوبسالا بالسويد قام العالم السويدى اوتو لاجيركرانتز Otto Lagercrantz بنشر النص اليونانى لبردية مصرية مشابه لبردية ليدن.X

وقام بترجمتها للغة الألمانية، وتم التأكد من أن هذه البردية كان مصدرها أيضا نائب قنصل السويد فى الإسكندرية، الذى أهداها بنفسه إلى الأكاديمية السويدية للتحف والآثار بستكهولم عام 1832 ولكنها ظهرت عام 1906 عندما انتقلت إلى متحف فيكتوريا بمدينة أوبسالا، وسميت البردية الثانية ببردية ستوكهلم، وتمت مضاهاتها بمخطوطة ليدن، واتضح أنهما كتبتا بنفس اليد، ولنفس الشخص.

كانت المخطوطتان « بردية ليدن »، و« بردية ستوكهلم» فى حالة جيدة من الحفظ، ومن المحتمل على رأى بيرثلوت أنهما حفظتا فى

صندوق مومياء لأحد المصريين القدماء، الذى كان يعمل بفنون الكيميا. ولاقى هذا الرأى استحسانا لدى لاجيركرانتز.

وحوت بردية ليدن حوالى خمس وسبعين وصفة لفنون الكيمياء اشتملت على صناعة السبانك وتصنيع المعادن وتلوين أسطحها وتقدير نقاوتها. كما أنها اشتملت على إحدى عشرة وصفة لصبغ الأشياء باللون الأرجوانى وألوان طبيعية أخرى. أما الإحدى عشرة وصفة الأخيرة. فقد استخلصت من Dio Scorides MediaOf Materia وتتعلق بالمواد والمعادن المستخدمة فى تلك العمليات.

أما بردية ستكهولم، فقد اشتملت على حوالى 150 وصفة كيماوية منها 9 تتعلق بالمعادن والسبانك، وأكثر من 60 وصفة تتعلق بالصباغة، وحوالى سبعين وصفة تشرح طرق إنتاج الأحجار الكريمة، والبقية من الوصفات تشرح عمليات تبييض، وصنع اللؤلؤ الصناعى.

ومما هو جدير بالذكر أن ما تم فحصه لكلتا البرديتين يؤكد، ويلقى الضوء على أن المصريين القدماء مارسوا فنونا كيماوية متقدمة.

الطب فى مصر القديمة

تمتد جذور ممارسة الطب إلى أزمنة بعيدة تصل إلى عصور ما قبل التاريخ، وكانت مصر بحق مهد الحضارة فى كل العلوم، حيث أنجز قدماء المصريين الكثير فى شتى نواحى الطب، مما أذهل العالم المتحضر، ولا تزال آثارهم لغزا يحير العقول، بل يعتبر البعض هذه الآثار ضربا من ضروب السحر كل ذلك والظلام يخيم على العالم من حول مصر، حيث كان الإنسان لا يزال بدائيا تائها فى بيداء الجهالة يسعى جاهدا لنيل غذائه مقاوما أحوال الطبيعة.

أنشئت فى مصر القديمة المدارس الطبية، التى ألحقت بالمعابد، ونبغ الأطباء المصريون فى التشريح وعلم وظائف الأعضاء، وعرفوا القلب واتصاله بالأوعية الدموية، وكذلك المخ واتصاله بالجهاز العصبي، كما مارسوا الجراحة، وتجبير الكسور، واستنبطوا آلاتها وأوقاتها ونقشوها على المعابد، وتفوقوا فى طب العيون والأمراض الباطنة والجلدية وأمراض النساء والتوليد والصحة العامة، وكان يتم التداوى بالمنتجات النباتية والحيوانية والمعدنية.

ويمكن اعتبار قدماء المصريين أول من وضع دستورا للأدوية، أما التلاوات

كانوا يتلونها والتمائم، التى استخدموها، فيمكن اعتبارها وسائل نفسية تدعم السبل الأخرى للعلاج، ولإيمان المصريين القدماء بالبعث والخلود لجأوا إلى التحنيط، والذى لا يزال الغموض يكتنفه، بالرغم من أن العلماء توصلوا إلى معرفة الطرق الفيزيائية والكيميائية، التى استخدموها لحفظ المومياء فى شتى العصور.

تعددت مصادر الطب المصرى القديم من برديات ونقوش وبقايا آدمية وآثار على اختلاف أنواعها، مما أعطى لتقدمهم الطبى مذاقا خاصا، وأن ما أنجزه قدماء المصريين فى شتى نواحى الحضارة أذهل بالفعل العالم المتحضر، وما سجل فى صفحات التاريخ الحضارى عن إنجازاتهم فى مجال الطب هو كنز تفخر به مصر، وتزهو به بين الأمم.

ووصل إلينا حوالى مائه اسم لأطباء من العصر الفرعونى فى مقدمتهم الطبيب إمحوتب.

كان الأطباء يتدربون روحانيا قبل البدء فى ممارسة الطب، ثم يبدأوا فى مزاولة مهنتهم، فينالوا بذلك تقديرا من الدولة، وتبجيلا من الشعب.

كما كان لدى قدماء المصريين تنظيمات وتخصصات تبدأ من الممارس العام والإخصائي، كما كان لديهم كبير الأطباء، ومفتش الأطباء، كما كان هناك هيئة طبية خاصة للقصر وأطباء آخرون لعامة الشعب.

أما الإخصائيون، فمنهم الباطنى والجراح، وطبيب العيون وطبيب الأسنان والنفسانى وغيرهم.

برع المصريون فى علم التشريح نظرا لقيامهم بعمليات التحنيط،

كما مارسوا الجراحة، وعرفوا خياطة الجروح والضمادات والأربطة، كما وجدت دلائل على إجرائهم عمليات الترينة والختان مستخدمين فيها التخدير الموضعي، كما أنهم استخدموا الجبائر، وتفوقوا فى علاج أمراض العظام والكسور.

وتعتبر بردية ادوين سميث الجراحين (1550 ق.م) أوضح بردية تظهر مدى التفوق الذى بلغة هؤلاء الأقدمون).

أما طب الأسنان، فقد وجدت بقايا يظهر فيها حشو الضرس، وربط الأسنان بسلك من الذهب لتقومها أو عمليات تصريف خراج بالفم، وفى بردية ايبرس (1550 ق.م تصف معرفة المصريين لضربات القلب، كما وصفوا فيها سائر الأمراض الباطنة وعلاجها والطفيليات وأمراض العيون، كما ذكروا البول المدمى، وتلوث الماء، فمنعوا التبول بنهر النيل، وسجلوا الكثير فى أمراض الجلد والشعر، وكذا أمراض النساء والحمل والولادة والرضاعة واجتهدوا فى معرفة نوع الجنين والعقم، أما الصحة العامة ومكافحة الحشرات والقوارض، فقد نالت اهتماما خاصا بهم.

تلك لمحة عابرة عن الطب فى مصر القديمة، و تلتها فترات ازدهرت فيها بدرجات متفاوتة حضارات الغزاة من الفرس إلى الإغريق والرومان، ولكن ظلت أصالة العلوم المصرية هى السائدة على مر الأجيال، فلم تغرب شمس المعرفة قط عن مصر، وإن كانت هناك سحب كثيفة حاولت حجبها فى بعض الأزمنة.

قصة المسلات المصرية

المنتشرة فى أنحاء العالم

لا نستطيع أن نستعرض جميع المعضلات، التى تثيرها العمارة المصرية، لأنها كثيرة ومتشعبة، ولكن سنتناول هنا مسألة خاصة جدا، وهى إقامة المسلات الجرانيتية، لأن الباحث إذ أراد مشاهدة الأهرام يتعين علية أن يذهب إلى مصر لكن المسلات موجودة فى كثير من البلاد الأوربية، حتى فى نيويورك، فكيف صنعت؟ المعروف أن جميع المسلات الجرانيتية قطعت من محاجَر أسوان شمالى الشلال الأول، ويمكن اليوم فحص المحاجر، التى أخذت منها هذه المسلات، وهى فى الواقع من الأمكنة، التى تجتذب إليها كثيرا من السياح، ولا سيما أن فى استطاعة الزائر أن يرى مسلة ضخمة متروكة فى موضع قطعها، بسبب صدع سرى فى صخرتها، ولو كان من المستطاع استخراجها، وإقامتها لغدت أعظم المسلات جميعا، إذ يبلغ ارتفاعها 137قدما، كما يبلغ وزنها 1168طنا.

واستطعنا بفضل هذه المسلة المتروكة أن نتصور كيف عمل المهندسون المصريون فى إزالة الطبقات العليا من الجرانيت، وكيف

كان تحديد الكتلة الحجرية المطلوب تخليصها. ثم فصل هذه الكتلة الحجرية عن أمها من جميع الجهات.

وشرح ريجنالد أنجلباك جميع هذه المسائل، مستعينا بجميع المعلومات المتوافرة فى أسوان وغيرها. كما شرح طريقة نقل المسلة المقطوعة على الزحافات إلى شاطئ النيل، وطريقة وضعها فى سفينة، ثم إخراجها إلى البر. ثم نقلها إلى المكان المعين لإقامتها. ثم إقامتها.

على أن أنجلباك لم يستطع تفسير كل ما هنالك من مسائل، برغم تجاربة الأثرية والهندسية المكنية، فمثلا ما هو نوع الأدوات، التى استعملها المصريون فى قطع الصخر البالغ الصلود؟ لعلهم استخدموا كرات من حجر الدولوريت، (وكثير منها يوجد فى مواضع أعمال القطع) لتهشيمة لا لقطعة. ولكنهم احتاجوا إلى أدوات أخرى يرجح أنها مصنوعة من المعدن، ولكن من أى معدن؟ ثم كيف نقشت النصوص الهيروغليفية المطولة المعقدة على حجر الجرانيت الصلد؟

ويدل التحديب الواضح فى أضلاع المسلة المصرية المقامة فى باريس على مدى أناقة المهندس المعمارى المصرى، كما تدل إقامة المسلة نهائيا فى العصور القديمة على عملية دقيقة بالغة، خاطر المهندس فيها بسمعته، وربما بحياته، ذلك أنه إذا لم تهبط المسلة رويدا رويدا يحتمل أن تنكسر ويضيع مجهود السنين هباء، وإذا لم يحكم

وضعها على قاعدتها كما ينبغى، فإن الخسارة لا تعوض، ويضيع منظورها المعمارى، ولهذا كان العمل معقدا ممتلئا بالصعوبات الخفية، لدرجة أن الانسان لايملك إلا أن يسأل: أكان المصريون جربوا هذا العمل فى نماذج صغيرة أولا، لكى يحددوا وزن المسلة من المسلات، ومحور ارتكازها، واختبروا كذلك عملية الإقامة، ليتحاشوا احتمالات الفشل، وعلى أى حال أدرك المعماريون وأولياؤهم من الملوك أنهم أهل خبرة بأعمالهم المعمارية، وسجلوا ذلك بكثير من الفخر.

ومن مهندسى المسلات ستة نعرفهم بأشخاصهم، لأنهم كوفئوا على عملهم بالسماح لهم بتشييد مقابرهم فى جبانة طيبة، فضلا عن إقامة تماثيل لهم فى المعابد. وتدل نصوص هذه المقابر والتماثيل على إقامة المسلات، ولكنها للأسف لا تشرح كيف تم ذلك العمل، ولعل ذلك لأن الشرح يشغل حيزا كبيرا، أو لأنه لم يكن ذا أهمية إلا للمهندسين، وهم فى غير حاجة إليه (أو هم فى حاجة إلى تفصيلات فنية إلى عبارات عامة). وهذا ينطبق على ما نفعل فى العصر الحاضر فإننا عندما نضع لوحة تذكارية على قنطرة من القناطر مثلا، لا نحاول أن نشرح- حتى فى أقصر عبارة - كيف شيدت تلك القنطرة. وهنا استحضر اثنين من أولئك المهندسين المعماريين. أولهما سنموت، رئيس مهندس الملكة حتشبسوت (1495-1475ق.م.)، وهو الذى شيد مسلاتها ومعبدها العظيم بالدير البحرى، وهو المربى لابنتها الكبرى نفرو رع، وهو فى تمثالة ممسك بها فى حجره، وثانيهما بكنخسو، الذى عاش بعد ذلك بقرن من الزمن، وهو مهندس المسلة،

التى انتقلت إلى باريس، وربما كان هو أيضا مخترع فكرة التحديب، ويحمل تمثاله نصا طويلا يقص تاريخ حياته، وهو محفوظ الآن بمتحف (الجلبتوتيك) بمدينة ميونخ فى المانيا، وانتقلت مسلات كثيرة من مصر إلى روما والقسطنطينية، ثم إلى باريس ولندن وغيرها من المدن حتى عبر الأطلنطى إلى نيويورك، وكان الرومان - وهم الخبيرون بالصعوبات الهندسية - أول الناقلين للمسلات المصرية من مواضعها الأصلية فى مصر، وأكبر مسلة قائمة فى العصر الحاضر هى المقامة أمام سان جيوفانى باللاتيران، وهى مسلة بدأها تحتمس الثالث، وأكملها تحتمس الرابع (1420-1411ق.م.) بمعبد الكرنك، ثم انتقلت إلى الاسكندرية عام 330 ميلادية بأمر من قسطنطين الأكبر الذى أراد أن يزين بها القسطنطينية، ثم نقلها ابنه قسطنطين الثانى عام 337م إلى الميدان الكبير بمدينة روما، حيث اكتشفت مكسورة إلى ثلاث قطع عام 1587م، وفى السنة التالية أقام هذه المسلة فى مكانها الحالى المهندس دومينكو فونتانا، وأحرز فونتانا هذا شهرة أخرى بإقامة مسلة أخرى فى ساحة الفاتيكان، وهى أصغر حجما لكنها سليمة، ولم يتمم المصريون صنع هذه المسلة، بدليل أنها لا تحمل شيئا من النقوش الهيروغليفية، ولذا فتاريخها غير معروف، غير أنها نقلت من هليوبوليس، بأمرالأمبراطور كاليجولا (37- 41م)، ثم أقيمت فى ميدان نيرون، ثم أمر البابا سكتوس الخامس بنقلها إلى ميدان القديس بطرس، بإشراف فونتانا عام 1586، واسترعى ذلك العمل انتباها كثيرا.

وأخذت مسلة باريس من مدينة الأقصر، ونقلت إلى مكانها الحالى بمعرفة المهندس البحرى ليبا عام 1836م، وأما مسلتا نيويورك ولندن، فأقيمتا أولا فى هليوبوليس، حيث نصبهما تحتمس الثالث (1501-1448ق.م.)، ثم نقلها الرومان حوالى عام 22ق.م. إلى الاسكندرية، حيث رآهما المؤرخ عبد اللطيف البغدادى قائمتين، وكتب عنهما فى النصف الأول من القرن الثالث عشر الميلادى، على حين رأى بير بيلون (1517-1564م)، الذى زار الاسكندرية منتصف القرن السادس عشر الميلادى- واحدة منهما فقط، بعد أن سقطت الأخرى فى أكوام الرمل المحيطة بها، ولحسن الحظ حالت أكوام الرمل، التى تراكمت حول هذه المسلة دون كسرها، فبقيت سليمة حتى أخذت إلى لندن وأقيمت على ضفة نهر التيمز عام 1878م. أما المسلة، التى ظلت قائمة، فأخذت من مكانها إلى نيويورك، حيث أقيمت فى سنترال بارك عام 1881م، وكان المهندس المسئول عن نقلها إلى أمريكا، واقامتها فى نيويورك هو هنرى هنيتشرش جورج (1841-1885م).

المصريون أول من عرف الكتابة

إن المعالم الحضارية القديمة تجمعت فى وديان الأنهار الكبرى كنهر النيل العظيم، الذى لم يحمل ماؤه الرجال والبضائع فحسب، بل حمل الفكر والثقافة أيضا. ولقد أخصب فيضان النيل الوادى الضيق ولطف الجو الجاف وخضر البور والجدب، فساعد هذا على نشأة حضارة مصر العظيمة.

إن أعظم ما قام به المصريون الأولون من جهود حضارية هو اختراع الكتابة، وسواء كانوا هم أول من اخترعها، وهو الأرجح، أم سبقهم فى ذلك السومريون أو الصينيون، فهذه مسألة موضع جدل ونظر، ولكنهم أى المصريون، على أى حال، اخترعوها مستقلين عن غيرهم، وإن هذا الاختراع بدأ فى مصر فى عصر ما قبل التاريخ، ووصل إلى مرتبة من الكمال قبل نهاية ذلك العصر. منذ نهاية الألف الرابعة ق.م حظيت الكلمة المكتوبة بمكانة خاصة فى الحضارة المصرية. فكانت معرفة القراءة والكتابة تعنى للكاتب المصرى تأمين مركز ممتاز فى المجتمع، حيث كانت الطريق مفتوحة أمام الكاتب الماهر إلى أعلى المناصب فى الدولة. وكان الأب يتحدث إلى ابنه بحماس عن معنى أن يكون المرء كاتبا بقوله:» إنك تسير بحرية فى الطريق ولن تكون ثورا يقوده الآخرون..إنك ستكون فى مقدمة الآخرين كلهم».

كان المصريون يقدرون الكتاب ذاته تقديرا يكاد يقترب من العبادة، حتى أننا نجد فى أحد النصوص رأيا قيما حول الكلمة المكتوبة يقول» :لقد مات الإنسان وتحولت جثته إلى مسحوق، وأصبح كل معاصريه تحت التراب، إلا أن الكتاب هو الذى ينقل ذكراه من فم إلى فم. إن الكتاب أنفع من البيت المبنى، ومن الصومعة فى الغرب، ومن القلعة الحصينة، ومن النصب فى المعبد.

ويفترض أن المصريين بدأوا الكتابة باستعمال صور التدليل على أشياء وأفكار لا كلمات، ثم أصبحت هذه الصور تدريجيا، وبمضى الزمن مصطلحات مبسطة، ثم معقدة ومربوطة فى النهاية على كلمات منطوقة، وبذلك أصبحت كل صورة لا تمثل فكرة فحسب، بل كلمة معينة من كلمات اللغة المصرية، وربما حدث فيما بعد أن ذهبت الفكرة الاصلية، واحتفظت الصورة بقيمتها الصوتية، وربما توافر أيضا لدى الكتاب عدد كاف من مثل هذه الصوتيات بحيث صار فى مقدورهم أن يستعملوها، بل استعملوها فعلا فى كتابة كلمات ذات أصوات واحدة، خاصة فى أسماء الأشخاص أو الكلمات ذات الدلالة المعنوية، التى لا يمكن تأديتها عن طريق التصوير وبمرور الزمن استعمل المصريون بعض الرموز للدلالة على العلامات الساكنة الأولى فى الصوتيات، وهكذا صار لديهم فى الدول القديمة مجموعة عددها أربع وعشرون علامة هجائية.

إن معظم اللغة الهيروغليفية يحتوى على نوعين من العلامات وهما العلامات الصوتية، وتدل على الصوت والعلامات المخصصة وتدل

على الفكرة أو الفصيلة، التى يمكن أن تنتمى إليها الكلمة بحسب المعنى، وبتركيب هذين النوعين من العلامات تتحقق ذاتية الكلمة، كما يسهل التعرف عليها وحفظها فى الذاكرة.

ولقد بلغ اختراع الكتابة قيمته الكبرى عن طريق اختراع تصنيع ورق البردى الذى عملوا منه مادة صالحة للكتابة عليها من لب السيقان الطويلة لنبات البردى، الذى كان يكثر فى مستنقعات الدلتا..وكان اللب يقطع إلى شرائح طولية توضع متعارضة فى Jmd ^ XH أو ثلاث، ثم تبلل بالماء ثم تضغط وتصقل. غير أن كل اختراع كان يتطلب اختراعات أخرى مكملة له، فكان أن اخترعوا الأحبار، التى يكتبون بها بفرشاة رفيعة صنعت من السمار الرقيق، الذى وجدوه فى نفس المواضع المائية مع نبات البردى.

إنه من الطبيعى أن كل كتابة خضعت لمثل هذا التطور غير أن التطور فى الكتابة المصرية كان أدق من أى كتابة، حيث ظهرت اللغة المصرية القديمة أكثر إتقانا وجمالا، وهى التى عرفها الناس الآن على أنها أسبق اللغات، التى سجلها التاريخ.

مكتبة الإسكندرية

أود أن أذكر جيل اليوم من الذين يجهلون قصة مكتبة الإسكندرية، والدور الذى لعبته على مر التاريخ، والذى أرجو من إدارة المكتبة الجديدة أن تقوم بطب قصة المكتبة، كما وردت فى ملفات التاريخ من كل الاتجاهات، ويتم توزيعها على كل المكتبات القومية والعربية وتسلم لطلاب المدارس والجامعات العربية مجانا فى بداية العام الدراسى القادم بمشيئة الله.

عند بداية حكمه قام بطليموس الأول، الذى حكم من 323الى 283ق.م. بتخصيص مكان لجامعة الإسكندرية ومكتبتها الشهيرة فى أحد قصوره الكبيرة فى منطقة الميناء الشرقي، وفى عام 297 ق.م. أتى بالكاتب الأثينى ديمتريوس الفاليرى، الذى كان تلميذا لسقراط، وخبيرا فى المكتبات ليعينه أول رئيس للمكتبة والمتحف الملحق لها. ويحكى عن الفاليرى هذا أنه أثناء رئاسته للمكتبة كان يصادر أى كتاب موجود على ظهر أى سفينة ترسو فى ميناء الإسكندرية، ثم يقوم بعمل نسخ له يعطى إحداها لصاحب الكتاب، ويحتفظ بالأصل فى المكتبة، وبذلك استطاع جمع عشرات الآلاف من الكتب، التى صدرت فى بلاد اليونان وآسيا الصغرى والهند، كما أنه أيضا جلب مكتبة أرسطو، وما فيها من نصوص فلسفية، أى أنه يمكن أن نطلق عليه

مؤسس فكرة المكتبة. ولو أن هذا الشرف ينبغى أن ينسب إلى الملكين الاول والثانى من البطالمة/ بطليموس الأول (سوتر) وأكملها بعده خلفه بطليموس الثانى (فيلادلفوس). وفى عهد بطليموس الثالث (247-222) أصدر أمرا بدا استبداديا، وهو أن يقوم جميع المسافرين، الذين يصلون إلى الإسكندرية من الخارج بتسليم ما يوجد بين متاعهم من كتب. فإذا كانت هذه الكتب لا تحتويها المكتبة، أخذت من أصحابها وأعطوا بدلا منها نسخا مكتوبة على البردى الرخيص ! كما أنه طلب من مكتبة أثينا أن تعيره البرديات الرسمية من مؤلفات أيسخليوس وسوفوكليس ويوبيدس لكى يتم عمل نسخة منها، ودفع مبلغا من المال ضمانا لإعادتها، ولكنه قرر الاحتفاظ بها لأنه أدرك أن قيمتها تستحق أكثر من المال الذى دفعه، ومن ثم أعاد لمكتبة أثينا نسخا منها.

كانت مكتبة الإسكندرية أفخم مكتبات العالم اليونانى فى الأزمنة القديمة غير أنه مما يدعو للعجب أن اسمها لم يظهر فى اللغات الأوروبية، كما ظهرت كلمة موسيون، فالاسم الفنى للفظ «مكتبة» فى اللغة اليونانية كان يعنى خزانة كتب، وكان يعنى أيضا مجموعة من الكتب. أما عن الموسيون (Museion) أو معهد العلوم فقد أنشأه بطليموس الأول فى الحى الملكى بمدينة الإسكندرية كمجمع للعلوم والفنون.

كان الموسيون جزءا من القصور الملكية، وبه مسقوف ذو عمد ومقاعد ومنزل كبير به قاعة يتناول فيها رجال العلم طعامهم معا، وكان هؤلاء الرجال يعيشون لا عيشة جماعية فحسب، بل كان على

رأسهم كاهن للإشراف على شئون الموسيون، وكان الملوك فيما سلف هم اللذين يعينونه. ولم يكن معهدا ملكيا فحسب، بل شغل بعض الأبنية فى العاصمة Gaca_mI بجوار الميناء الكبير، وكان به كاهن يقوم بالواجبات الدينية، كما كان يقوم أحد عمداء الكليات الجامعية الحديثة فى أوروبا وأمريكا بالخدمة الدينية فى كنيسة الكلية. وعاش رجال المعهد عيشة مشتركة، وكان ذلك أمرا مستطاعا ومقبولا.

و اشتمل الموسيون على آلات فلكية، ومن الصحيح السليم أن يسمى المكان الذى خصص لهذه الآلات باسم مرصد. كما اشتمل ايضا على قاعة للتشريح ودراسة وظائف الأعضاء، ومن حول هذه القاعة كانت حدائق الحيوان والنبات.

و ظل معهد العلوم قائما طول العصر الهلنستى، وكان العلماء والباحثون الملحقون به يتقاضون مرتباتهم من الملك، ثم من الولاة الرومان فيما بعد وأولئك الولاة الرومانيون هم الذين عينوا للمعهد مشرفا أو كاهنا يدير شئونه.

والخلاصة أن القرن الثالث قبل الميلادى شهد نهضة رائعة خلابة، وأفسح الموسيون لرجاله ميدان القيام بأبحاثهم ومواصلتها فى حرية كاملة، ولأول مرة فى التاريخ، وعلى قدر ما لدينا من المعرفة تم تنظيم البحث الجماعي، وذلك دون توجيهات سياسية أو دينية بحيث كان الهدف الوحيد هو البحث وراء الحقيقة. كما استطاع كبار العلماء والباحثين أن يمارسوا عملهم فى حرية حسبما يتراءى لهم،

وتمكنوا بفضل الصبغة الدولية، التى اصطبغت بها الإسكندرية من الإفادة من جميع البحوث، التى تمت من قبلهم لا على أيدى اليونانيين فحسب، بل على أيدى المصريين والبابليين.

«على بن رضوان»

ابن الفران الذى أصبح رئيسا لأطباء مصر

(1067 - 986)



تناول كثير من الباحثين فى الشرق والغرب، بالدراسة شخصيات

علمية تنتمى إلى الحضارة العربية الإسلامية، أسهبوا فى سرد تاريخها ومنجزاتها، لكن للأسف الشديد كان حظ طبيبنا المصرى «على بن رضوان» منها قليلا وشحيحا، ومن ثم فإنه بات ضروريا إلقاء الضوء على هذه الشخصية المتفردة فى تاريخ الطب العربى، وإن كان بن رضوان لم يكتشف أو يبتكر، لكن تأثيره بلا شك، كان كبيرا على الطب والأطباء فى عصره، الذى تميز بالفوضى الصحية، وانتشار الأوبئة وشح أو زيادة الفيضانات.

نشأ ابن رضوان فى بيئة فقيرة نسبيا، حيث كان أبوه فرانا فى مدينة الجيزة، وتميز بعصاميته واستطاع فى خلال سنين توهجه، التى بلغت ستين عاما، استطاع أن يرتقى بنفسه حتى أصبح رئيسا لأطباء مصر، وأن يترك حوالى مائتى كتاب من تأليفه أصبحت شاهدة على مدى رقى الطب فى زمانه، كما أنها أرخت للأحوال الاجتماعية والصحية، التى صاحبت رحلته فى عالم الطب.

ظهر الطبيب ابن رضوان فى منتصف القرن الخامس الهجرى/ الحادى عشر ميلادى، وهو عصر تفكك الدولة الإسلامية، إلى دويلات كما كانت الخلافة العباسية فى بغداد خلافة اسمية.

ولد ابن رضوان عام 379هـ/986م فى الجيزة، ولكنه نشأ بمصر، وذكر فى مذكراته، التى كتبها أن قراءات النجوم دلت على انه سيتفوق فى صناعة الطب. بدأ ابن رضوان فى التعلم، وهو فى سن السادسة من عمره، وعندما بلغ العاشرة انتقل إلى القاهرة، حيث اجتهد فى

العلم. وفى الرابعة عشر بدأ يعتمد على نفسه، ويعلم نفسه بنفسه الطب والفلسفة، وتكسب منهما، ومن صناعة التنجيم أحيانا أخرى، واستمر على هذا الحال من الجهد والتفانى حتى وصل لعمر الثانية والثلاثين، حيث استقر فى مهنة الطب، وتكسب منه حتى أن دخله من هذه المهنه كان يكفيه معيشة كريمة، بل زادت لحد أنه استطاع أن يشترى أملاكا، وأصبح له اسم وسمعة وصيت يسبقه إلى الحاكم الفاطمى فى ذلك الوقت، أنباء تذكر أنه الحاكم بأمر الله، وأخرى تذكر أنه المستنصر بالله، حتى أنه عينه رئيسا لأطباء مصر.

بدأ ابن رضوان فى كتابة مذكراته فى سن الثانية والثلاثين، وظل كذلك حتى بلغ الستين، ومن نافلة القول آن يقول ابن اصيبعة فى كتابه «عيون الأنباء عن لسان الطبيب ابن رضوان»، ملخصا لهذه الفترة من حياته « ولم أزل كذلك فى غاية الاجتهاد، وفى التعليم إلى سن الثانية والثلاثين، فإننى اشتهرت فيها بالطب وكفانى ما كنت أكسبه بالطب، بل وكان يفضل عنى إلى وقتى هذا، وهو آخر السنة التاسعة والخمسين، وكنت منذ السنة الثانية والثلاثين إلى يومى هذا أعمل تذكرة لى وأغيرها فى كل سنة إلى أن قررتها على هذا التقرير، الذى أستقبل به السنة الستين من ذلك».

كان ابن رضوان إماما فى الطب والحكمة، كثير الرد على أرباب مهنته، كما يؤكد ذلك ابن تغرى بردى فى كتابه النجوم الزاهرة، ويضيف أنه كان فيه سعة خلق عند بحثه وله مصنفات كثيرة.

مارس ابن رضوان التعليم الطبى، وقام بالتدريس فى مستشفيات مصر بعد أن أصبح رئيسا لأطبائها. فكان تركيزه على مشكلات التعليم الطبى آنذاك. ما حدا به لأن يخصص كتابا بأكمله عن هذا الموضوع أسماه «النافع فى كيفية تعليم صناعة الطب». أورد فيه معلومات قيمة. كما أرخ عن التعليم الطبى مع تقديمه لخبراته وأرائه. بالإضافه إلى هذا فإنه ألقى الضوء على ذلك التعليم، الذى كان قائما بمدرسة الإسكندرية. ومن ضمن ما نادى به الطبيب ابن رضوان إمكانية تعليم الطب بغير معلم، حيث ذكر فى إحدى مقالاته، التى كتبها بعنوان «فى التطرق بالطب إلى السعادة»: على الطالب أن يتأدب، ثم يرتاض فى التعاليم، وبعدها يقرأ كتب أبقراط ويفهم معانيها، وكان يرى أن من أسباب سوء التعليم الطبى فى زمنه آن الطلاب لا يفهمون كتب ابقراط وجالينوس، بل يعتمدون على الكنائس والجوامع، واعتبر ذلك غير كاف لممارسة الطب.

أما عن المناظرات، التى خاضها ابن رضوان مع أرباب مهنته فكانت كثيرة، ويحضرنا هنا تلك المناظرة العلمية، التى وقعت بين ابن رضوان وابن بطلان البغدادى، فجاء عن كبار الأطباء العرب على أن لحم الفرخ، (وهو صغير الحمام)، أكثر حرارة من لحم الفروج، (وهو صغير الدجاج)، ف كتب ابن بطلان رسالته إلى ابن رضوان مفسرا لهذا الأمر قائلا بتناوب كلا من ذكر وأنثى الفرخ فى حضانة البيض، فيخرج الفرخ ضعيفا بينما تنفرد الأنثى بحضانة البيض، فيخرج الفروج قويا، ويرد عليه ابن رضوان بقوله إن الطبيعة لم تجعل الديك

يتناوب الدجاجة فى الحضان والعلة هى لقلة لبث الدجاجة لطلب الغذاء إذا قامت عن البيض، بينما يتناوب الحمام أنثاه لطول لبث أنثى الحمام فى طلب الغذاء كما أن الديك أقل قبولا للتأديب، وتستمر المناظرات هكذا فى صورة رسائل بينهما شملت التعليم الطبى وغيره، أما عن المناقشات، التى دارت بينه وبين الطبيب ابن الجزار الطبيب بمدينة القيروان، والذى كتب كتابا بعنوان «كتاب فى نعت الأسباب المولدة للوباء فى مصر وطريق الحيلة فى دفع ذلك وعلاج ما يتخوف منه»، حيث رد عليه الطبيب المصرى ابن رضوان بتأليف كتابه «فى دفع مضار الأبدان بأرض مصر» نقد فيه اقوال ابن الجزار مقدما العذر فى أفكار واحكام ابن الجزار أنه لم يشاهد مصر ولم يكن له فيها مقام. كانت تلك المناظرات والمناقشات العلمية، التى دارت بين ابن رضوان وأقرانه من الأطباء تدل على طول باعه فى تفهم الطب، ولو أنه اعتمد اعتمادا كليا على تعاليم أبقراط وجالينوس، كما أنه راقب، وبدقة أحوال مصر وساكنيها وسادت روح المنطق والعلم كل مناظراته.

إن سيرة رئيس أطباء مصر على ابن رضوان لسيرة ذكية لشاب فقير نشأ فى بيئة فقيرة استطاع أن يقفز بجهده واجتهاده ليصبح رئيسا لأطباء مصر وأن يتصدى بالرد ومناقشة أنداده بقوة وإقناع، ما أكسبه احترام الجميع، هذا وقد توفى ابن رضوان فى عام 460هـ/ 1067م عن عمر يناهز الواحد والثمانين عاما.

مصريات

المصريون أول من عرف الكتابة

■ إن المعالم الحضارية القديمة قد تجمعت في وديان الانهار الكبرى كنهر النيل العظيم الذي لم يحمل ماءه والرجال والبضائع فحسب بل حمل الفكر والثقافة ايضا . ولقد اخصب فيضان النيل الوادي الضيق ولطف الجو الجاف وخصص البور والجدب فساعد هذا على نشأة حضارة مصر العظيمة.

إن اعظم ما قام به المصريون الأولون من جهود حضارية هو اختراع الكتابة وسواء كانوا هم أول من اخترعها وهو الأرجح أم سبقهم في ذلك السومريون أو الصينيون فهذه مسألة موضع جدل ونقاش ولكنهم - أي المصريون - على أية حال اخترعوها مستقلين عن غيرهم وان هذا الاختراع بدأ في مصر في عصر ما قبل التاريخ ووصل الى مرتبة من الكمال قبل نهاية ذلك العصر.. ومنذ نهاية الالف الرابعة ق. م حظيت الكلمة المكتوبة بمكانة خاصة في الحضارة المصرية فقد كانت معرفة القراءة والكتابة تعني للكاتب المصري تأمين مركز ممتاز في المجتمع حيث كان الطريق مفتوحا أمام الكاتب الماهر الى أعلى المناصب في الدولة، وقد كان الأب يتحدث الى ابنه بحماس عن معنى أن يكون المرء كاتبا بقوله «إنك تسير بحرية في الطريق ولن تكون ثورا يقوده الآخرون.. إنك ستكون في مقدمة الآخرين كلهم». لقد كان المصريون يقدرون الكتاب ذاته تقديرا يكاد يقترب من العبادة حتى اننا نجد في أحد النصوص رأيا قيما حول الكلمة المكتوبة يقول «لقد مات الانسان وتحولت جثته الى مسحوق واصبح كل معاصريه تحت التراب، إلا ان الكتاب هو الذي ينقل ذكراه من فم الى فم ان الكتاب انفع من البيت المبني ومن الصومعة في الغرب ومن القلعة الحصينة ومن النصب في المعبد».

ويفترض ان المصريين بدأوا الكتابة باستعمال صور التدليل على أشياء وافكار لا كلمات ثم أصبحت هذه الصور تدريجيا وبمضي الزمن مصطلحات مبسطة ثم معقدة مربوطة في النهاية على كلمات منطوقة وبذلك أصبحت كل صورة لا تمثل فكرة فحسب، بل كلمة معينة من كلمات اللغة المصرية.. وربما حدث فيما بعد ان ذهبت الفكرة الاصلية واحتفظت الصورة بقيمتها الصوتية. وربما توفر ايضا لدى الكتاب عدد كاف من مثل هذه الصوتيات بحيث صار في مقدورهم أن يستعملوها. بل قد استعملوها في كتابة كلمات ذات اصوات واحدة وبخاصة في أسماء الأشخاص أو الكلمات ذوات الدلالة المعنوية التي لا يمكن تأديتها عن طريق التصوير. وبمرور الزمن استعمل المصريون بعض الرموز للدلالة على العلامات الساكنة الاولى في الصوتيات وهكذا صار لديهم في الدولة القديمة مجموعة عددها أربع وعشرون علامة هجائية.



• يكتبها: د. حامد عبد الرحيم عيد

المستشار الثقافي ومدير المركز الثقافي المصري بالرباط

إن معظم اللغة الهيروغليفية تحتوي على نوعين من العلامات وهما العلامات الصوتية وتدل على الصوت والعلامات المخصصة وتدل على الفكرة او الفصيلة التي يمكن أن تنتمي اليها الكلمة بحسب المعنى وبتركيب هذين النوعين من العلامات تتحقق ذاتية الكلمة، مما يسهل التعرف عليها وحفظها في الذاكرة.

ولقد بلغ اختراع الكتابة قيمته الكبرى عن طريق اختراع تصنيع ورق البردي الذي عملوا منه مادة صالحة للكتابة عليها من لب السيقان الطويلة لنبات البردي الذي كان يكثر في مستنقعات الدلتا. وكان اللب يقطع الى شرائح طويلة توضع متعارضة في طبقتين او ثلاث ثم تبلل بالماء ثم تضغط وتصقل. غير أن كل اختراع كان يتطلب اختراعات اخرى مكملة له فكان أن اخترعوا الاحبار التي يكتبون بها بفرشاة رفيعة صنعت من السمار الرقيق الذي وجدوه في نفس المواضع المائية مع نبات البردي.

ومن الطبيعي أن كل كتابة قد خضعت لمثل هذا التطور غير أن التطور في الكتابة المصرية كان ادق من اي كتابة حيث ظهرت اللغة المصرية القديمة اكثر اتقانا وجمالا وهي التي عرفها الناس الآن انها اسبق اللغات التي سجلها التاريخ.



مصريات

الطب في مصر القديمة

• يكتبها: د. حامد عبد الرحيم عيد

المستشار الثقافي ومدير المركز الثقافي المصري بالرباط

■ تمتد جذور ممارسة الطب الى ازمنة بعيدة تصل الى عصورها قبل التاريخ.. ولقد كانت مصر بحق مهد الحضارة في كل العلوم حيث انجز قدماء المصريين الكثير في شتى نواحي الطب مما اذهل العالم المتحضر ولا تزال اثارهم لغزا يحير العقول بل يعتبر البعض هذه الآثار ضربا من ضروب السحر كل ذلك والظلام يخيم على العالم من حول مصر حيث كان الإنسان لا يزال بدائيا تائها في بيداء الجهالة يسعى جاهدا لنيل غذائه مقاوما أحوال الطبيعة.

انشئت في مصر القديمة المدارس الطبية التي الحقت بالمعابد ونبغ الأطباء المصريون في التشريح وعلم وظائف الاعضاء وعرفوا القلب واتصاله بالاوعية الدموية وكذلك المخ واتصاله بالجهاز العصبي، كما مارسوا الجراحة وتجبير الكسور واستنبطوا الاتها وادواتها ونقشوها على المعابد وتفوقوا في طب العيون والامراض الباطنة والجلدية وامراض النساء والتوليد والصحة العامة وكان يتم التداوي بالمنتجات النباتية والحيوانية والمعدنية. ويمكن اعتبار قدماء المصريين اول من وضع دستورا للادوية.

اما التلاوات التي كانوا يتلونها والتمائم التي استخدموها فيمكن اعتبارها وسائل نفسية تدعم السبل الأخرى للعلاج، ولإيمان المصريين القدماء بالبعث والخلود فقد لجأوا الى التحنيط الذي لا يزال الغموض يكتنفه بالرغم من أن العلماء قد توصلوا الى معرفة الطرق، الفيزيائية والكيميائية التي، استخدموها لحفظ الموبياء في شتى العصور.

تعددت مصادر الطب المصري القديم من برديات ونقوش وبقايا ادمية واثار على اختلاف انواعها مما أعطى لتقدمهم الطبي مذاقا خاصا. وان ما انجزه قدماء المصريين في شتى نواحي الحضارة قد اذهل بالفعل العالم المتحضر وما سجل في صفحات التاريخ الحضاري عن انجازاتهم في مجال الطب هو كنز لفخر به مصر وتزهو به بين الامم.

وقد وصل الينا حوالي مائة اسم لاطباء من العصر الفرعوني في مقدمتهم الطبيب ايمحوتب. لقد كان الاطباء يتدربون روحانيا قبل البدء في ممارسة الطب ثم يبدأون مزاولة مهنتهم فينالون بذلك تقديرا من الدولة وتبجيلا من الشعب.

كما كان لدى قدماء المصريين تقسيمات وتخصصات تبدأ من ممارس العام والاخصائي كما ان لديهم كبير الاطباء ومفتش الاطباء كما كان هناك هيئة طبية خاصة للقصر واطباء آخرون لعامة الشعب.

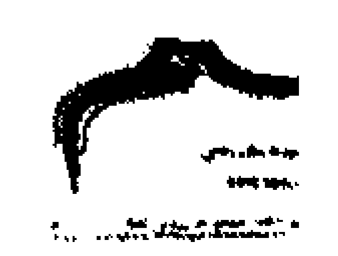
اما الاخصائيون فمنهم الباطني والجراح وطبيب العيون وطبيب الاسنان والنفساني وغيرهم.

برع المصريون في علم التشريح نظرا للقيامهم بعمليات التحنيط كما مارسوا الجراحة وعرفوا خياطة الجروح والضمادات والاربطة كما وجدت دلائل على إجرائهم عمليات التربنة والختان مستخدمين فيها التخدير الموضعي كما انهم استخدموا الجبائر وتفوقوا في علاج امراض العظام والكسور.

وتعتبر بردية ادوين سميث الجراحين (؟؟ ق.م) اوضح بردية تظهر مدى التفوق الذي بلغه هؤلاء القدماء.

اما طب الأسنان فقد وجدت بقايا تظهر فيها حشو للضرس وربط الاسنان بسلك من الذهب لتقويمها أو عمليات تصريف خراج بالفم.

وفي بردية ايبرس (؟؟ ق.م) وصف لمعرفة المصريين لضربات القلب والنبض كما وصفوا فيها سائر الأمراض الباطنة وعلاجها بالطفيليات وأمراض العيون كما ذكروا البول الدمي وتلوث الماء بمنتجو البلهارسيا بنهر النيل وسجلوا الكثير في امراض الجلد والشعر وكذا امراض النساء والحمل والولادة والرضاعة واجتهدوا في معرفة نوع الجنين والعقم، اما الصحة العامة ومكافحة الحشرات والقوارض فقد نالت اهتماما خاصا. تلك لمحة عامة عن الطب في مصر القديمة وقد تلتها فترات ازدهرت فيها بدرجات متفاوتة حضارات الغزاة من الفرس الى الاغريق والرومان ولكن ظلت أصالة العلوم المصرية هي السائدة على مر الأجيال فلم تغرب شمس المعرفة قط عن مصر وإن كانت هناك سحب كثيفة قد حاولت حجبها في بعض الأزمنة.





الصيدلة عند المصريين القدماء



د. حامد عبد الرحيم عيد

المستشار الثقافي ومدير المركز الثقافي المصري بالرباط

■ تاريخ الصيدلة بدأ بمعرفة النباتات الطبية حيث إن الإنسان الأول في تجواله بين الأعشاب والأشجار بحثا عن الغذاء والطعام وجد من أجزاء النباتات وغيرها ما استساغه فأقبل عليه وما لم يستسغه تجنبه وتحاشاه، ولاحظ ما غير في وظائفه الفسيولوجية فاستهله وقياه، وامتنع عنه. ومن هذه الملاحظات تمكن من التمييز بين هذا وذاك فكانت هذه أول المعرفة بالنباتات الطبية وبتقدم الإنسان في معلوماته أمكنه الاستفادة من هذه النباتات في إصلاح بدنه وعلاج جراحه وأمراضه وتخفيف آلامه. وكان خلط هذه الأجزاء بعضها ببعض أو عمل تركيبات منها بداية مهنة الصيدلة في أبسط صورها. ولذا قيل إن الصيدلة أقدم المهن الطبية وأن من زاول هذه الصناعة في العصور السحيقة كان عشابا أي صيدليا قبل أن يكون طبيبا.

ولقد ذكر المؤرخ سلسون في كتابه «المائدة الطبية» أن المهنة كانت منقسمة إلى الكهانة والجراحة والصيدلة ... ودلت بعض المراجع والوثائق على أنه كان هناك نوع من التخصصات: الممارس الطبي العام والجراح وطبيب الأسنان والطبيب البيطري والعشاب (الصيدلي) وكان الصيدلي كما ذكر بادج في كتابه «العشابون» أول رواد المهنة الطبية الذي عرف العقاقير وأوصافها وقيمتها العلاجية، وأن العشاب هو الذي أسس الصيدلة القديمة ولذا فقد قيل إن مصر كانت مهد الصيدلة وقد ذكر بيوبوس الصقلي أن مصر كانت لها أهمية كبيرة وشهرة عظيمة في الطب والصيدلة بل إن بعض المؤرخين ذكر أن مصر زاولت الطب والصيدلة في دقة وعناية وتعقل منذ أقدم العصور.

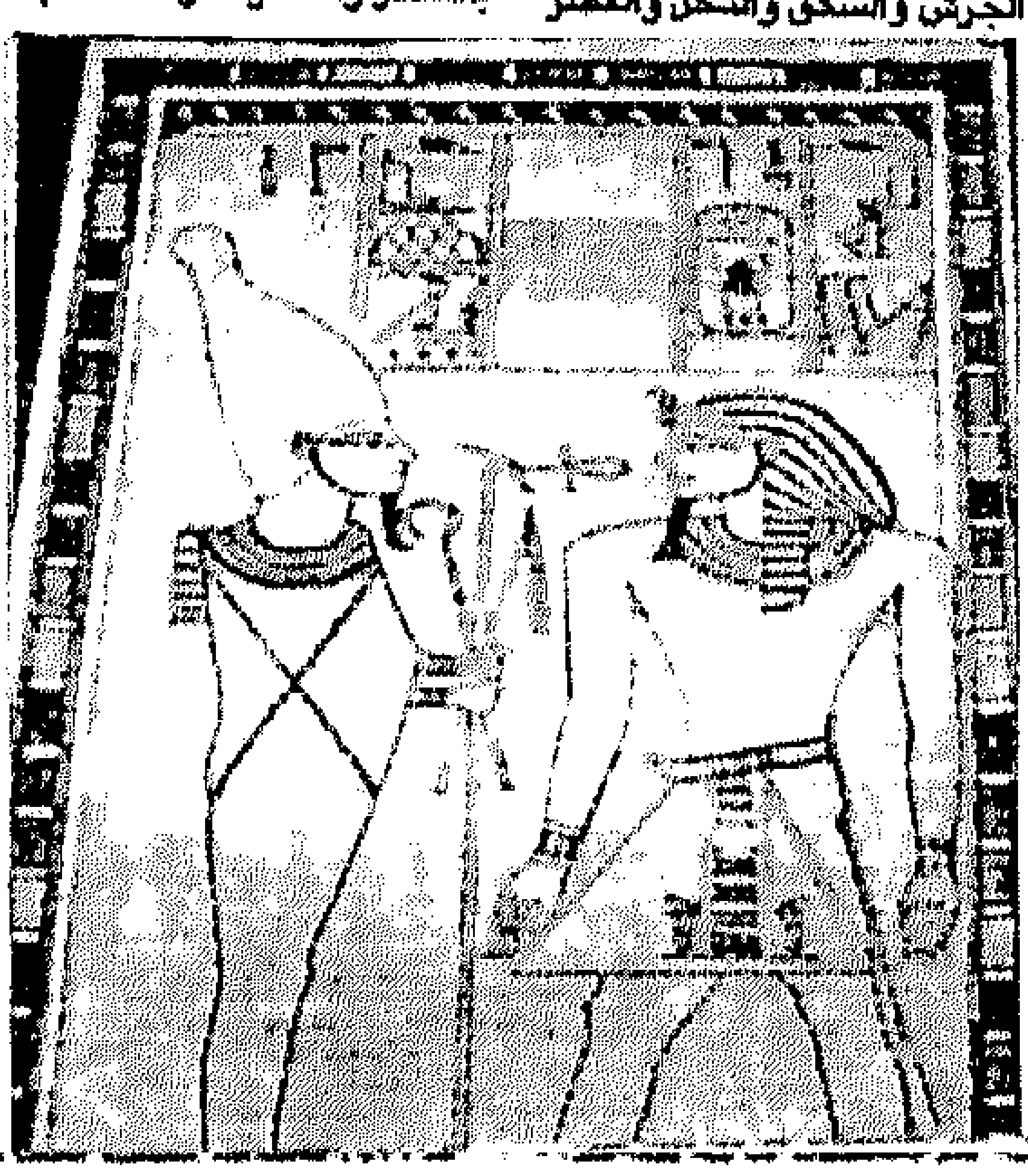
وتدل الآثار والبرديات الطبية أن المصريين القدماء كانت لهم معرفة متعمقة بكثير من العقاقير وينسب إلى أحد ملوك الأسرة الأولى وضع ما يزيد على 40 مؤلفا في الطب والعلاج من بينها مؤلفات في الأدوية والعقاقير، ولقد أمكن جمع ما يربو على 250 عقارا من المراجع المتاحة مما كان مستعملا في مصر.

وكان المصريون القدماء على معرفة طيبة باستعمالات هذه العقاقير وطرق تركيب الأدوية منها وكانوا يحصلون عليها مما كان ينمو بريا من النباتات أو مما يستوردونه من البلاد الأجنبية ولقد كانوا يجيدون فن الزراعة، وأنشأوا حدائق تجارب لانتخاب الأنواع الجيدة من النباتات والعقاقير المصريون القدماء عقاقير من مختلف المصادر الجغرافية فمنها ما كان من مصر، ومنها ما كان من اليونان أو من إيطاليا أو من سوريا أو من بلاد بين النهرين وكذلك من فارس والهند والحبشة والصومال وحضرموت وقيل إن بعضها كان من الصين ومن سومطرة (أندونيسيا).

ولقد وصل تركيب الأدوية في مصر القديمة درجة عالية من الأهمية وكان القائمون به كهنة متخصصين يطلق عليهم اسم «سينو» يساعدهم في ذلك كهنة أقل منزلة يسمون «أورما» وكانت التذاكر الطبية ترسل إليهم ويحضرونها في أماكن مخصصة في المعابد تسمى «است» حيث كانت تحفظ فيها المفردات الدوائية في أوان من الخزف أو في صناديق، وكانوا ينشدون في أثناء تحضير الأدوية التعاويذ وغيرها من الأدعية ويرددون الصلوات للآلهة وبخاصة «حورس» و«توت» وغيرهما.

وكان هؤلاء الكهنة يمارسون في تحضير الأدوية إرشادات معينة، وجد منها مكتوبا على حائط أحد المراهم كما كانوا يستعملون في تحضير الأدوية عمليات معينة ورد ذكرها في بعض البرديات مثل الجرش والسحق والنخل والعصر وبخاصة للمواد الطازجة (العصارية) والتصفية والإغلاء والهضم، وكانوا يصنعونها في أشكال صيدلية مختلفة منها ما ورد في البرديات كالحبوب والمروخات والمراهم والعجائن والأقماع والحقن الشرجية وقطرات العين والغراغر والبوشات المهبلية والمستنشقات. وقد وصفوا طرق تحضير هذه الأشكال وصفا دقيقا وهو ما نجده مطبقا ومستعملا في وقتنا الحاضر مما يؤكد أن المصريين القدماء كانوا على معرفة بأسرار الصيدلة وأصولها وفنونها ... كما كانوا يحضرون العطور باستخلاص الزهور بالدهون والزيوت الثابتة وهذا ما يتبع حاليا في استخلاص بعض الزيوت العطرية وعمليات الصهر وغيرها والتي تعرف بالطريقة الإزهارية كما أنهم كانوا يرفعون من حرارة الأفران باستعمال الكور (البوري).

ولقد كان المصريون القدماء يعتقدون أن الأمراض ما هي إلا أرواح شريرة تغزو الأجسام ولا يخرجها منها إلا العقاقير، وفي بعض الأحيان بمساعدة الآلهة التي كانوا يناجونها بالأدعية والصلوات والتعاويذ ويقدمون لها القرابين. ولهذا امتزج العلاج بالسحر والشعوذة. وكانت الآلهة مما يألفونه من الحيوانات كالعجل أبيس ومن الطيور كأبي قردان (أيبس) كذلك من تصوراتهم وفي خيالاتهم كايزيس وأوزوريس وتحوت وحورس و[illegible] أو مما يعتقدونه في الكواكب كالشمس التي سموها آتون أو [illegible] لهم معرفة وعلم [illegible] إيمحوتب ولم تنفك العلاج من السحر والشعوذة إلا بتقدم العلم والمعرفة. وكان الشخص المتخصص يقوم بفحص المريض وبتشخيص [illegible] الطبيب والصيدلي كانا متفقين [illegible] شخص واحد وأن الطبيب والصيدلي كانا متحدين في جميع العصور إلى أن حدد لكل منهما حدود يلتزم بها، ولما تقدمت العلوم واتسع مداها ومجالاتها أصبح لكل منهما مهنة مستقلة معترف بها بجلالها ويجلها الجميع. ومن أشهر آلهة الصيدلة والعلاج عند المصريين القدماء إيمحوتب وكان يلقب بابن بتاح ولد في أوسيم وقيل في بلدة الجبلين جنوبي الأقصر. وكان والده المهندس كانوفر. وكان إيمحوتب مهندسا وعمل وزيرا وطبيبا للملك زوسر من الأسرة الثالثة وتعمق إيمحوتب في الدين وبرع في السحر والعمارة والفلك والكيمياء. أما شهرته في الطب فقد فاقت شهرته في النواحي الأخرى. وكان لذكائه وحكمته الفضل في نجاح سياسة الملك زوسر فكرمه بمنحه ألقاب مراتب الدولة الهامة حتى أصبح الرجل الأول في البلاد بعد الملك زوسر وأنشئت له المعابد وأهمها معبد منف الذي ألحقت به مكتبة عظيمة وأصبح فيما بعد مدرسة تدرس فيها علوم الطب والصيدلة وهو أول من استعمل الحجر في إقامة المباني والمعابد وأول من بنى المقابر على هيئة هرم مدرج وقد صنعت له تماثيل من البرونز على هيئة رجل في يده بردية وليس على هيئة إله كما هو المعتاد. ولحكمته وعلمه ألهه المصريون وعبدوه حتى سنة [illegible] ق.م كما اعتبره الإغريق في مصر حتى أنهم اعتبروه كأسكلابيوس في اليونان وأطلقوا عليه [illegible] الطب تحوت أو توت ويعرفه الإغريق باسم هرمس الذي [illegible] «الثلاثي العظمة» ولد في بابل [illegible] جاء إلى مصر ... وتنسب إليه مجموعة من الكتب «مجموعة هرمس» قيل إن عددها 42 ولكن لم يبق من هذه المجموعة إلا القليل وهي في مختلف العلوم وبخاصة في الكيمياء كما أن عددا منها كا[illegible]





■ لانستطيع ان نستعرض جميع المشكلات التي تثيرها العمارة المصرية لانها كثيرة ومتشعبة. ولكن سنتناول هنا مسألة خاصة جدا، وهي إقامة المسلات الجرانيتية لان الباحث إذا اراد مشاهدة الاهرام يتعين عليه ان يذهب الى مصر، لكن المسلات موجودة في كثير من البلاد الاوروبية حتى في نيويورك. فكيف صنعت؟

المعروف أن جميع المسلات الجرانيتية قطعت من محاجر اسوان شمالي الشلال الاول ويمكن اليوم فحص المحاجر التي اخذت منها هذه المسلات وهي في الواقع من الامكنة التي تجتذب اليها كثيرا من السياح، ولاسيما ان في استطاعة الزائر ان يرى مسلة ضخمة متروكة في موضع قطعها، بسبب صدع سرى في صخرتها. ولو كان من المستطاع استخراجها وإقامتها لغدت اعظم المسلات جميعا، اذ يبلغ ارتفاعها 137 قدما، كما يبلغ وزنها 1168 طنا، واستطعنا بفضل هذه المسلة المتروكة ان نتصور كيف عمل المهندسون المصريون في إزالة الطبقات العليا من الجرانيت، وكيف كان تحديد الكتلة الحجرية المطلوب تخليصها، ثم فصل هذه الكتلة الحجرية عن اسها من جميع الجهات، وشرح ريجنالد انجلباك جميع هذه المسائل مستعينا بجميع المعلومات المتوافرة في اسوان وغيرها، كما شرح طريقة نقل المسلة المقطوعة على الزحافات الى شاطيء النيل وطريقة وضعها في سفينة ثم اخراجها الى البر ثم نقلها الى المكان المعين لإقامتها، ثم إقامتها. على ان انجلباك لم يستطع تفسير كل ما هناك من مسائل، برغم تجاربه الاثرية والهندسية المكثفة فمثلا ما هو نوع الادوات التي استعملها المصريون في قطع الصخر البالغ الصلابة؟ لعلهم استخدموا كرات من حجر الدولوريت (وكثير منها يوجد في مواضع اعمال القطع) للتهيئة لا للقطع ولكنهم احتاجوا الى ادوات اخرى يرجح انها مصنوعة من المعدن ولكن من اي معدن؟ ثم كيف نقشت النصوص الهيروغليفية المطولة المنمقة على حجر الجرانيت الصلد؟

ويدل التحدب الواضح في اضلاع المسلة المصرية المقامة في باريس على مدى اناة المهندس المعماري المصري كما تدل إقامة المسلة نهائيا في العصور القديمة على عملية دقيقة بالغة، خاطر المهندس فيها بسمعته وربما بحياته. ذلك انه اذا لم تهبط المسلة رويدا رويدا يحتمل ان تنكسر ويضيع مجهود السنين هباء وإذا لم يحكم وضعها على قاعدتها كما ينبغي فإن الخسارة لاتعوض ويضيع منظورها المعماري ولهذا كان العمل معقدا مثقلا بالصعوبات الخفية لدرجة ان الانسان لايملك الا ان يسأل: اكان المصريون قد جربوا هذا العمل في نماذج صغيرة أم لا، لكي يحسبوا وزن المسلة من المسلات ومحور ارتكازها واختبروا كذلك عملية الإقامة ليتحاشوا احتمالات الفشل. وعلى اي حال ادرك المعماريون واولياؤهم من الملوك انهم اهل خبرة بأعمالهم المعمارية وسجلوا ذلك بكثير من الفخر. ومن مهندسي المسلات ستة نعرفهم باشخاصهم لانهم كوفئوا على عملهم بالسماح لهم بتشييد مقابرهم في جبانة طيبة فضلا عن إقامة تماثيل لهم في المعابد. وتدل نصوص هذه المقابر والتماثيل على إقامة المسلات، ولكنها للاسف لاتشرح كيف تم ذلك العمل، ولعل ذلك لان الشرح يشغل حيزا كبيرا، او لانه لم يكن ذا اهمية إلا للمهندسين وهم في غير حاجة إليه (او هم في حاجة إلى تفصيلات فنية لا الى عبارات عامة)، وهذا ينطبق على ما نفعل في العصر الحاضر، فإننا عندما نضع لوحة تذكارية على قنطرة من القناطر مثلا لانحاول ان نشرح - حتى في اصغر عبارة - كيف شيدت تلك القنطرة وهنا استحضر اثنين من اولئك المهندسين المعماريين، اولهما سنموت رئيس مهندسي الملكة حتشبسوت (1493-1475 ق م) وهو الذي شيد مسلاتها ومعبدها العظيم بالدير البحري وهو المربي لابنتها الكبرى نفرورع، وهو في تمثاله ممسك بها في حجره، وثانيهما بكنخنسو الذي عاش بعد ذلك بقرون من الزمن وهو مهندس المسلة التي انتقلت الى باريس، وربما كان هو ايضا مخترع فكرة التحديب، ويحمل تمثاله نصا طويلا يلخص تاريخ حياته، وهو محفوظ الآن بمتحف (الجليبتوتيك) بمدينة ميونيخ في المانيا. وانتقلت مسلات كثيرة من مصر الى روما والقسطنطينية، ثم الى باريس ولندن وغيرها من المدن حتى عبر الاطلنطي الى نيويورك وكان الرومان - وهم الخبيرون بالصعوبات الهندسية - اول الناقلين للمسلات المصرية من مواضعها الاصلية في مصر، واكبر مسلة قائمة في العصر الحاضر هي المقامة امام سان جيوفاني باللاتيران، وهي مسلة بدأها تحتمس الثالث واكملها تحتمس الرابع (1420-1411 ق م) بمعبد الكرنك ثم انتقلت الى الاسكندرية عام 330 ميلادية بامر من قسطنطين الاكبر الذي اراد ان يزين بها القسطنطينية ثم نقلها ابنه قسطنطين الثاني عام 337م الى الميدان الكبير بمدينة روما، حيث اكتشفت مكسورة الى ثلاث قطع عام 1587م. وفي السنة التالية اقام هذه المسلة في مكانها الحالي المهندس دومينكو فونتانا ولحرز فونتانا هذا شهرة اخرى بإقامة مسلة اخرى في ساحة الفاتيكان، وهي اصغر حجما لكنها سليمة. ولم يتم المصريون صنع هذه المسلة بدليل انها لاتحمل شيئا من النقوش الهيروغليفية (ولذا فتاريخه غير معروف)، غير انها نقلت من هليوبوليس بامر الامبراطور كاليجولا (37-41 م) ثم اقيمت في ميدان نيرون، ثم امر البابا سكستوس الخامس بنقلها الى ميدان القديس بطرس بإشراف فونتانا عام 1576، واسترعى ذلك العمل انتباها كبيرا.

واخذت مسلة باريس من مدينة الاقصر، ونقلت الى مكانها الحالي بمعرفة المهندس البحري لبيا عام 1836م. واما مسلتا نيويورك ولندن فقد اقيمتا اولا في هليوبوليس حيث نصبهما تحتمس الثالث (1501-1448 ق م) ثم نقلها الرومان حوالي عام 22 ق. م الى الاسكندرية، حيث رآهما المؤرخ عبداللطيف البغدادي قائمتين وكتب عنهما في النصف الاول من القرن الثالث عشر الميلادي، على حين رأى بيير بيلون (1517-1564 م) الذي زار الاسكندرية منتصف القرن السادس عشر الميلادي، واحدة منهما فقط بعد ان سقطت الاخرى في اكوام الرمل المحيط بها، ولحسن الحظ حالت اكوام الرمل التي تراكمت حول هذه المسلة دون كسرها، فبقيت سليمة حتى اخذت الى لندن واقيمت على ضفة نهر التيمز عام 1878م. اما المسلة التي ظلت قائمة فاخذت من مكانها الى نيويورك حيث اقيمت في سنترال بارك عام 1881 م وكان المهندس المسؤول عن نقلها الى امريكا وإقامتها في نيويورك هو هنري هنيتشرش جورنج (1841-1885 م)

مصريات

الكيمياء في مصر القديمة

• يكتبها:
د. حامد عبد الرحيم عيد
المستشار الثقافي ومدير المركز الثقافي المصري بالرباط

الكيمياء احد العلوم الطبيعية التي عرفها الانسان ومارسها منذ وقت بعيد لاتعرف له بداية. ولم تبدأ كغيرها من العلوم في الحضارات القديمة في العالم القديم او الجديد كعلم مستقل مقصود لذاته غير ان مبادئ الكيمياء قد عرفت وارتبطت بفنون وصناعات كثيرة كصناعة الزجاج وتلوينه وصهر المعادن وانتاج السبائك والطلاء والتحنيط والعلاج وصناعة الادوية والورق والمنسوجات وغيرها.

■ وقد عرف الانسان منذ فجر التاريخ عددا من العناصر الكيميائية الفلزية التي توجد طليقة غير متحدة مع غيرها من العناصر الكيميائية وأطلقوا على هذه العناصر اسم الاحجار السبعة وهي الذهب والفضة والنحاس والرصاص والقصدير والحديد والكبريت. وعرف الانسان بعض خواص هذه العناصر الكيميائية او جيوكيميائيتها بلغة العلم في هذا العصر. لقد عرف قدماء المصريين منذ اكثر من سبعة الاف سنة ان الذهب يوجد في صخور معينة دون سواها وهي المرو او الكوارتز خاصة الانواع الرمادية اللون او السوداء (الموريون Marion) او المصبوغة باللون الاحمر نتيجة احتوائها على معادن الحديد. ولقد حفر المصريون القدماء عن هذه الصخور في كل الصحاري المصرية واستخرجوا الذهب منها بكميات كبيرة الامر الذي جعل مصر اغنى دول العالم القديم. ولازالت بعض مناجم الذهب الفرعونية تحتفظ باسمها الفرعوني حتى اليوم مثل منجم حوتيت الذي يقع بالقرب من جبل ابي ضهر بجنوب الصحراء الشرقية بمصر، ويوجد فيه الذهب مخلوطا بالمرو الاسود. وقد اهمل قدماء المصريين عروق المرو الشفافة او البيضاء البينة اللون لخلوها من الذهب. مما يوحي بان قدماء المصريين قد اهتدوا الى ان الذهب يصاحب عروق المرو الملونة بالالوان القاتمة لاحتوائها على شوائب معدنية في الغالب وهو ماتعرفه نحن اليوم على اسس كيميائية من ان الذهب يصاحب عادة بعض العناصر الكيميائية الملونة للصخور مثل الحديد والتيتانيوم والفاناديوم والكوبلت والكروم والنيكل وغيرها.

وعرف الانسان منذ وقت مبكر الزجاج الطبيعي الذي يتكون اثر ارتطام النيازك الكبيرة بالرمال على سطح الارض حيث تنصهر الرمال بالحرارة الناشئة عن هذا الارتطام ويتكون الزجاج بتصلب مصهور الرمال. ويتوقف لون هذا الزجاج على الشوائب المعدنية المصاحبة للرمال التي تتعرض للانصهار.

وفي مرحلة لاحقة صنع الانسان الزجاج بصهر الرمال في افران خاصة. ولونها بإضافة مواد معدنية الى الرمال قبل صهرها. وقد عثر الاثريون على قطع من الزجاج الملون في اثار الحضارة الفرعونية فيما قبل عصر الاسرات (قبل 3200 ق.م) واستخدم المصريون النطرون (املاح الصوديوم) المستخرج من وادي النطرون بالصحراء الغربية في صناعة الزجاج بدليل وجود بقايا وآثار لمصانع الزجاج في منطقة وادي النطرون. وصنع المصريون والبابليون والاشوريون زجاجا بالوان عديدة كالازرق والبنفسجي والاحمر والاسود والاخضر وذلك باضافة مواد معدنية الى خلطة الزجاج قبل صهرها. وقد استورد المصريون معادن الكوبلت من ايران وارمينيا لاستخدامها في صناعة الزجاج حيث ان الكوبلت يلون الزجاج باللون الازرق المفضل لدى المصريين القدماء.



واتقن المصريون فن التحنيط وتفوقوا فيه وصنعوا الاصباغ لتلوين الثياب والاواني الفخارية ورسم الصور على الجدران في المعابد والمقابر. كما برعوا في تحضير وتركيب الادوية من الاعشاب الطبية وكان يقوم بهذا العمل المتخصصون من الكهنة في اماكن خاصة في داخل المعابد. وتخزن الادوية في اوعية فخارية وزجاجية. كما عرف ابناء الحضارات القديمة دبغ الجلود واستخدموا الشب والعفص والنطرون وغيرها لهذا الغرض. واما فائدة الشب والاملاح الاخرى في عملية الدبغ فكانت للحيلولة دون تعفن الجلد وفساده وكان يتم ذلك بمعاملة الجلد بمحلول مخفف من املاح الشب بعد تنظيف الجلد وينتج عن ذلك جلد ناعم لين طالما بقي الشب في مساماته. واستخدم دباغو الجلود اصباغا نباتية مختلفة لتلوين الجلد بعد دبغه.

المحتوى

شركة الأمل للطباعة والنشر
(مورافيتلى سابقًا)
ت: 23904096 - 23952496

ربما يرد على ذهن قارئ هذه المقالات والرسائل أنها متنافرة لا يربط بينها رابط. وبالتالى فهى لا تجيب عن أسئلة جوهرية ولا تفكك إشكالية معقدة. والحقيقة أن الهدف المقصود هو أن يستجلى القارئ مسار فكر، ومنهج معالجة. يعكسان اقترابا أصيلا وأسلوبا مختلفا لإثارة الذهن كى يتفاعل مع مضمون ما يقرأ. وليلمس ما كان يهم المصريون و مصر فى وقت ما وحتى اليوم من المشكلات والمعضلات المطروحة فى الساحة الفكرية للحوار وتبادل المعلومات. كما أنه يعكس دورا مهما للعمل الثقافى فى العلاقات بين الدول. خاصة دولة شقيقة كالمغرب . والقواسم الثقافية المشتركة بين البلدين .



الثمن 6 جنيها